


9

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة

تأليف:
د. نايف خرما



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978 بإشراف أحمد مشاري العدواني 1923 ـ 1990

9

أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة

تأليف

د. نايف خرما



المحتوى

المحتوى
المحتوى
المحتوى

توطئه

هذا الكتاب ينشر ضمن سلسلة كتب «عالم المعرفة» التي يتعهدها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، وهي سلسلة تهدف إلى نشر الثقافة العامة في وجوه المعرفة المختلفة، ولذلك فانه يكتب بموجب مواصفات معينة نلتزم بها لكي تفي مادته بالهدف الذي يكتب من اجله.

فبادئ ذي بدء، ليس هذا الكتاب موجها للمتخصصين في علوم اللغة المختلفة التي أشار إلى بعضها إشارات سريعة بينما يبحث بعضها الآخر بشكل أكثر تفصيلا. وعلى الرغم من ذلك فربما وجد بعض هؤلاء المتخصصين شيئا من المتعة في مطالعة الكتاب، بل وربما أثار في البعض الآخر- خاصة أولئك الذين لم تتح لهم فرصة الاطلاع على الدراسات اللغوية التي تجرى في الغرب-حماسا للاطلاع على وجه معين من وجوه تلك الأبحاث بشكل تفصيلي عميق لإمكانية الاستفادة منه وتطبيقه غي أبحاث اللغة العربية.

كما أنه ليس المقصود أن يكون هذا الكتاب كتابا مدرسيا أو جامعيا أو مقدمة في «علم اللغة» هذا العلم الذي أصبح في وقتنا الحاضر جزءا لا يتجزأ من منهج الدراسة في أقسام اللغات الحية وخاصة الأجنبية منها بالجامعات. وذلك لأننا حاولنا، لمصلحة القارئ المثقف غير المتخصص، أن لا نفترض معرفة مسبقة بأي من اوجه الدراسات التي سنكتب فيها أو حتى بالعلوم اللغوية الحديثة

بوجه عام. كما أننا حاولنا بقدر المستطاع أن نتجنب الناحية الأكاديمية المحضة التي تستوجب التحديد الشديد وأن نبتعد عن المصطلحات الفنية الدقيقة التي أصبحت شيئا لا غنى عنه في دراسة تمهيدية لعلم اللغة الحديث والتي نعاني منها الكثير عند بدئنا بتدريس هذا العلم في الجامعات. ولكن من الممكن أن يعتبر هذا الكتاب مقدمة لتلك المقدمات التي يقرر تدريسها في الجامعات، فربما كان معينا لأولئك الطلاب على فهم ما يدرسون فيما بعد، بأن يتعرفوا لكل عام على مدى اتساع الدراسات اللغوية الحديثة، وعلى فروعها واتجاهاتها المتعددة، أو تعينهم على أن يقرروا بشكل مبدئي ما إذا كانوا يميلون إلى هذا النوع من الدراسة فيبدءون الاهتمام بها أثناء دراستهم الجامعية الأولى، بهدف التخصص في أحد فروعها في دراساتهم العليا.

ثم أن القارئ لن يجد في هذا الكتاب الإجابات الشافية الوافية على جميع المسائل التي ستثار أثناء البحث، وذلك لسبب بسيط هو أن الأبحاث في الأوجه المختلفة لموضوع اللغة مستمرة لا تنقطع، كما أن علم اللغة بمفهومه الحالي حديث عهد بين العلوم العريقة الأخرى، ولهذا فان الإجابات القاطعة على كثير من الأسئلة الهامة لا زالت غير متوافرة. هنالك آراء ونظريات و فرضيات ونتائج أبحاث وتجارب كثيرة جديدة، ولكن قليلا منها يرقى إلى مرتبة العلم الثابت الأكيد، وجلها لا زال مفتوحا لمزيد من الدراسة والبحث والمناقشة والتجربة. وربما كان أهم ما سيجده القارئ في هذا الكتاب هي المسائل أو الأسئلة نفسها التي بدأت تثار في عصرنا الحاضر وبخاصة في ربع القرن الماضي، وذلك بالنظر إلى عمقها واتساع مداها من ناحية والى الإمكانات التقنية التي أصبحت متوافرة من ناحية أخرى والتي يحاول علماء اللغة أن يفيدوا منها في تجاربهم.

أن تساؤلات لا حصر لها أصبحت تتناول نواحي جديدة لم يتطرق لها أحد من قبل، كما أن أمورا ومسائل قديمة قدم الإنسان على الأرض أصبح العلماء يتناولونها من جديد من وجهات نظر. مختلفة وفي ضوء التقدم العلمي الهائل الذي أصبح يميز هذا القرن عما سبقه من قرون. وان من المفيد حقا، لا بل من الضروري، أن يصبح القارئ المثقف مدركا لأهمية تلك التساؤلات وطرق تناولها بالبحث والدراسة، وذلك لكي يتمكن على الأقل

من التخلص من تلك النظرة الضيقة التي ساهمت كتب القواعد المدرسية ولا زالت تساهم في غرسها في أذهان النشء من طلاب العلم والتي تكاد تنحصر في النواحي الشكلية المحضة من النحو والصرف تدرس بنفس المنهج الذي بدأه سيبويه منذ كتب أول كتاب في قواعد اللغة العربية، ولكي يصبح هذا القارئ على صلة بالآفاق الأكثر شمولا للدراسات اللغوية، ولمدى أهمية اللغة في حياة الإنسان.

لكل ما سبق ذكره، وبلوغا للهدف الذي تسعى إليه هذه السلسلة من الكتب، فقد حاولنا أن نبتعد في هذا الكتاب عن الصيغة الأكاديمية المحضة، وأن نبسط الأمور بالقدر الذي لا يجعل الكلام بعيدا عن الدقة أو مبهما على القارئ في نفس الوقت. وقد اضطررنا لاستعمال القليل من المصطلحات الفنية التي أصبحت تؤلف لها المعاجم الخاصة، وعملنا عند استعمال كل منها على شرحها بطريقة سهلة، وذلك لتمكين القارئ من إدراك أدق للمسألة التي تجري معالجتها.

وبالنظر للتاريخ الطويل جدا لدراسات اللغة، والتراث الهائل من المؤلفات في هذا الموضوع، فقد حاولنا أيضا أن نتجنب الخوف في التطور التاريخي لتلك الدراسات، بل أشرنا فقط إلى ما له علاقة مباشرة بالمدارس الفكرية المحاصرة، وبالأبحاث التي تجرى حاليا، لان هذا هو ما نطمح أن ننقل بعضا منه إلى القارئ العربي.

أن هذه القيود التي وعدنا بالالتزام بها قدر المستطاع قد جعلت من بحثنا هذا أمرا عسيرا، وواجهتنا بكثير من الصعوبات التي احتاج تذليلها إلى مجهود خاص. فقد حاولت بعض الجهات في السنوات الأخيرة أن تقدم شيئا مماثلا لما كتبنا فيه، وذلك عن طريق إلقاء المحاضرات العامة في العلوم اللغوية على الجمهور المثقف ونشر بعضها مطبوعا، فلما حاولت جهات أخرى تقديم كتب مبسطة للقارئ العادي في هذا الموضوع، وقد كانت جميع تلك المحاولات باللغات الأجنبية، وأكثرها باللغة الإنكليزية بالذات، وترجم بضع منها إلى اللغة العربية. ويمكننا تصنيف هذه الكتب إلى ثلاث فئات:

الفئة الأولى: من هذه الكتب تفترض أن للقارئ معرفة سابقة واهتماما مسبقا بموضوع البحث، ولذلك فان المؤلف يعتمد على تلك المعرفة وذلك

الاهتمام ويعتبرهما أمورا مفروغا منها، ثم ينطلق من هناك ليقول ما يرغب في قوله. هذا النوع من الكتب ربما صلح مقدمة لمن شاء التخصص في علم اللغة، ولكنه لا يصلح عادة للقارئ المثقف بوجه عام.

والفئة الثانية: كتاب نجح إلى حد كبير في التخلص من «أدوات المهنة» أي من المصطلحات الفنية الملازمة لمهنة اللغوي الحديث، فعرض الموضوعات اللغوية بشكل مفهوم للقارئ ولكن ذلك كان في كثر من الأحيان على حساب الدقة العلمية. هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى نجد أن هذه الكتب قد تقادم عهدها بعد انقضاء عشر سنوات أو أكثر قليلا على صدورها. وهذا ليس في الواقع عيبا في الكتاب نفسه، ولكنه واقع ينسحب على جميع الكتب التي من هذا النوع. ويمكن تلخيص السبب بأن الاهتمام بالدراسات اللغوية لم يعد مقصورا على عالم اللغة فحسب بل امتد إلى أولئك العلماء الذين يحملون في فروع المعرفة الأخرى التي لها علاقة باللغة، أو التي تستعمل اللغة في أبحاثها. وسنرى في صفحات أخرى قريبة من هذا الكتاب أن فروع المعرفة هذه تكاد تشمل كل ما له علاقة بالإنسان من جوانبه المتعددة. ولقد زاد هذا الاهتمام لدى أولئك العلماء زيادة هائلة بعد ظهور نظريات حديثة في علم اللغة نفسه اعتبرت ثورات فعلية في العصر الحاضر، ودفعت بكثير من المختصين في العلوم الإنسانية والاجتماعية بوجه خاص إلى إعادة النظر في كثير مما كانوا يؤمنون به كحقائق مسلم بها. ولهذا فقد رأت تلك العلوم نهضة جديدة وزخما في الأبحاث يكاد حتى المثقف أن يعجز عن متابعتها للاطلاع على أحدث منجزاتها، وذلك نظرا لكثرتها وتشعبها وصدورها غالبا على شكل مقالات في مجلات ودوريات تعد بالمئات وتصدر في جميع أرجاء المعمورة. وكثيرا ما تكون بعض المسائل التي يدور البحث فيها أموراً مثيرة للجدل والخلاف، فتجرى عليها الأبحاث فيأتي بعضها بنتائج مغايرة للبعض الآخر، فتعقد لها المؤتمرات لكي يواجه الباحثون بعضهم بعضا ويطلع كل منهم الآخر على أحدث ما توصل إليه، ويناقشون تلك النتائج ويوصون ببعض الاتجاهات... الخ...

وكثيرا لا يتسع مجال الدوريات لنشر هذه الأبحاث إلا بعد انقضاء سنوات فإذا جمعت في كتب، لا تصدر هذه إلا بعد سنوات أيضا. وفي مثل هذه الحالات، وهي كثيرة، لا يستطيع حتى المتخصصون، وبخاصة في

البلدان غير الأوروبية أو الأمريكية، متابعة ما يجري لنقص في وسائل تنظيم المعرفة وتوزيعها فيما بين هذه البلدان والدول الأخرى.

ولكي نعطي فكرة واضحة عن مدى الصعوبة التي يواجهها حتى المتخصصون في الوصول إلى أحدث الأبحاث، وبخاصة ما يعرض منها في المؤتمرات العالمية فقط، يمكننا أن نشير إلى بعض ما تمدنا به بعض النشرات الدورية عن المؤتمرات اللغوية أو المتعلقة باللغة التي تعقد كل عام. ففي الفترة الممتدة بين شهر أبريل ونهاية عام 1977 فقد عقد في العالم ثمانية وخمسون مؤتمرا لها علاقة باللغة، أي بمعدل يزيد عن سبعة مؤتمرات في الشهر الواحد وامتدت رقعة الأماكن التي عقدت فيها بحيث شملت معظم أنحاء العالم بدءا من الولايات المتحدة الأمريكية وكندا، ثم معظم أقطار أوروبا غربها وشرقها، ومرورا ببعض بلدان الشرق الأوسط، حتى وصلت إلى استراليا واليابان.[1]

أما الفئة الثالثة: من الكتب العامة المؤلفة حديثا فهي مجموعات من المقالات التي ساهم فيها كبار المختصين في كل موضوع من مواضيعها. وهنا علينا أن نتصور ما يحدث عندما نطلب من عالم متخصص كبير أن يلخص موضوعه كله واحدث الأبحاث فيه في عشر صفحات أو أكثر قليلا. لقد وفق القليلون جدا في ذلك بمحاولة الابتعاد عن الأمور العلمية أو الأكاديمية الدقيقة التخصص وقدموا خلاصات عامة ممتعة للقارئ العادي، أما الآخرون-وهم الأغلبية-فيبدو إن أدوات المهنة قد أصبحت جزءا لا يتجزأ من طبيعة عمل كل منهم بحيث لم يستطع أن يتخلص منها وان يعبر عما يريد قوله باللغة التي يمكن أن يفهمها الإنسان العادي، بل إن بعض تلك المقالات تشكك القارئ في معرفته بلغته التي نشأ معها وتعلم بها.

وهذه إحدى الصعوبات الرئيسية التي واجهتنا في الكتابة في موضوع اللغة كما ينظر إليها المعاصرون في البلدان المتقدمة. إن الكتابة عن اللغة بوساطة اللغة أمر شاق للغاية بحد ذاته، وذلك لأنا إذا نظرنا إلى الموضوع من زاوية المفردات فقط، نجد أن معنى كثير من المصطلحات المستعملة في علم اللغة مرتبط في أذهاننا بمفهوم معين فرضته علينا ظروف كثيرة متشابكة، ليس هذا مكان بحثها، فإذا أردنا استعمالها للتعبير عن مفهوم

(1) The Linguistic Reporter, vol. 19, No.6, March, 1977, p.4- 5. (Advance announcements).

خاص بعلم اللغة يختلف في كثير أو قليل عن المفهوم العام، تولدت في ذهن القارئ أو السامع بلبلة لا تزول إلا مع استعماله لتلك اللفظة استعمالا متواصلا أثناء دراسته اللغوية للدلالة على المفهوم الجديد. ولنضرب على ذلك مثلا بسيطا من واقع الحياة اليومية. انك كإنسان مثقف درس قواعد اللغة العربية وتعرف على بعض التعابير المستعملة خصيصا لها كالنعت والحال والمستثنى والمفعول به والمفعول معه والتمييز وحتى المبتدأ والخبر على بساطتها بالنسبة لك إذا استعملت أيا منها عند الحديث مع إنسان آخر لم يدخل المدرسة قط أو لم يتم سوى المرحلة الابتدائية منها مثلا، فسيكون رد فعله إما عدم الفهم أو محاولة الرد باللعب على هذه الألفاظ بمفهومها العام أو ربما الغضب لاعتقاده انك تسخر منه أو تنتقص من قيمته. ومهما كان رد الفعل، فان النقطة التي نود إيضاحها هي أن للدراسات اللغوية لغتها الخاصة التي يسمونها ما وراء اللغة (metalanguage) والتي لا يفهمها إلا الدارس للغة أو المتخصص فيها، وقد أعطينا مثلا بسيطا للغاية ولكنه يوضح ما نريد أن نقول.

ولسنا ندري إن كانت هنالك طريقة لفهم قواعد أية لغة بدون استعمال بعض التعابير الفنية الخاصة بها. وحتى لو نظرنا إلى الناحية التطبيقية لا النظرية، كأن يكون الهدف هو إتقان استعمال اللغة قومية كانت أم أجنبية، فإنا نجد أن محاولات كثيرة قد جرت للوصول إلى ذلك دون إقحام الدارس في خضم تلك التعابير الفنية، وقد كانت النتائج مخيبة للآمال. والتعابير الفنية ليست مقصودة لنفسها بالطبع ولكنها وسائل تساعد على إدراك الدارس للطريقة التي تعمل بها اللغة، ولذلك فقد وجد انه لا بد من تعريف ذلك الدارس ببعض تلك التعابير لتساعده على فهم أكبر لتراكيب اللغة وترابطاتها وطرق عملها.

لقد قلنا إن هذا المثل بسيط جدا وهو فعلا كذلك إذا تصورنا أن الإنسان المثقف في البلدان المتقدمة الذي يكون قد درس لغته وتعرف على طريقة عملها أثناء دراسته الثانوية، غالبا ما يكون قد تعرف على كثير من التعابير الفنية التقليدية التي ما زالت مستعملة في الكتب المدرسية منذ مئات السنين-وهذا ينطبق طبعا على الطالب العربي بالنسبة للغته-فإذا تناول أحد الكتب اللغوية الحديثة وجد أمامه لغة ربما كانت أقرب إلى لغة

أجنبية منها إلى اللغة التي يتكلمها ويقرأها ويكتب بها. لقد أصبح علم اللغة والعلوم الملحقة به أو التابعة له أو المتعلقة به علوما تخصصية يستعمل كل منها تعابير ومصطلحات خاصة به، حتى أن المعاجم الخاصة أصبحت توضع لها، لكي يفهم حتى أتباع مدرسة معينة ما بقوله أتباع المدرسة الأخرى. وأصبح مؤلف كتاب في أحد هذه العلوم يجعل في آخره، معجما موجزا أو قائمة بالتعابير الخاصة المستعملة في ذلك الكتاب ومعنى كل منها في السياق الذي تستعمل فيه.

ومما يزيد الأمر صعوبة بالنسبة للكاتب العربي أن جميع الأبحاث اللغوية الحديثة تقريبا تتم بلغات أجنبية، حتى أن الباحث العربي ذاته يجد نفسه مضطرا لإجراء أبحاثه بإحدى اللغات الأجنبية لكي يفهمها من يشرف عليها أو يناقشها في جلسة أو مؤتمر أو مجلة أو كتاب وخاصة أن معظم هذه الأبحاث تتم في جامعات أجنبية. وكما هو الحال بالنسبة للتعابير الفنية المستخدمة في العلوم الطبيعية التي أصبح معظمها يدرس حتى نجد جامعاتنا العربية باللغة الأجنبية ليست هنالك تعابير عربية مرادفة لها متعارف عليها يستطيع أن يتفاهم عن طريقها حتى الباحثون العرب فيما بينهم. ومعظم ما اطلعنا عليه من تراجم الكتب الغربية يستعمل المترجم فيه تلك التعابير بشكلها الأصلي أو يجتهد في ترجمتها ويخشى في نفس الوقت غموضها فيتبعها بالتعبير الأجنبي على الفور.

بالإضافة إلى ذلك فان معظم اللغات التي أجريت عليها أبحاث حديثة لغات أجنبية، واللغة الإنكليزية بوجه خاص، كما أن معظم الأمثلة التوضيحية مأخوذة من تلك اللغات، ولذلك لم نستطع أن نتجنب إيراد بعض الأمثلة من تلك اللغات، ولكن حاولنا في معظم الأحيان الإتيان بأمثلة من اللغة العربية، التي لا ندعي التخصص في الدراسات اللغوية الخاصة بها.

أمر آخر لا بد من الإشارة إليه لأنه يجعل من مهمة مؤلف كتاب من هذا النوع مهمة شاقة حقا. ألا وهو هذا التطور المذهل في النظريات اللغوية المختلفة التي تتفق في بعض أجزائها وتختلف في بعضها الآخر، بل يكاد بعضها يناقض البعض الآخر مناقضة كاملة، كل ذلك خلال حقبة من الزمان تقل عن نصف قرن، بل ربما بلغت أوجها حاليا مبتدئة في الربع الثالث من القرن الحالي، حتى قيل أن ثورات ثلاثا في النظرة إلى اللغة

وفي طريقة دراستها قد حدثت خلال القرن الحالي: أولاها في الثلاثينات وثانيتها في الخمسينات وثالثتها في السبعينات منه، كما أن عدد الكتب والمقالات والمؤتمرات اللغوية التي ظهرت أو عقدت خلال الأعوام الأربعين السابقة تعادل أضعاف مثيلاتها ربما منذ بدء الخليقة. وأخيرا، لا بد أن نشير إلى التشابك الكبير الذي أصبح وإلا الآن بين دراسة اللغة حتى من الناحية الشكلية البحتة ومن الدراسات العلمية والإنسانية والاجتماعية الأخرى، وهل هنالك علم ليس له صلة باللغة؟

ونظرا لكل ما سبق ذكره، فأنا نلفت نظر القارئ ألا يتوقع أن تكون مادة هذا الكتاب من النوع القصصي أو الإخباري الخفيف السهل، ولكنا نأمل في نفس الوقت أن نكون قد وفقنا في جعل هذه المادة مقبولة، سائغة، يسيرة القراءة من ناحية، ومثيرة لكثير من التفكير والتأمل من ناحية أخرى.

وبالنظر لكثرة الموضوعات التي تشغل بال علماء اللغة والعلوم المساندة لها والمتعلقة بها في الوقت الحاضر نجد أنفسنا مرغمين على اختيار أهم تلك الموضوعات وأكثرها حداثة وإمتاعا، وذلك لاستحالة الإلمام حتى بجزء ضئيل من كل منها في حدود هذا الكتاب.

ولا يفوتني، في نهاية هذه المقدمة، أن أتقدم بوافر الشكر للإخوان الذين تكرموا بالاطلاع على مخطوطة الكتاب وإبداء ملاحظاتهم القيمة، وهم الأستاذ صدقي حطاب-بالمجلس الوطني، الأستاذ علي حجاج والأستاذ صلاح جراده-بوزارة التربية، والزملاء بكلية الآداب الدكتور محمد سامي أنور والدكتور رجاء الدريني والدكتور داود عبده، وأخيرا وليس آخرا الدكتور فؤاد زكريا-مستشار هذه السلسة الذي أشار ببعض التعديلات التي أجريتها بناء على ملاحظاته.

والله ولي التوفيق

نايف خرما

يناير 1978

١ لماذا هذه الدراسات اللغوية؟

١-ما جدوى هذه الدراسات اللغوية؟

قبل أن نبدأ بالاطلاع على بعض المظاهر اللغوية التي يهتم عالم اللغة وإضرابه بها، وعلى مدى العمق من ناحية والتشعب والشمول التي أصبحت الدراسات المعاصرة تتميز بها من الناحية الأخرى، وعلى الرغم من أن المجال لن يتسع إلا لذكر عدد محدود من مجالات الاهتمام هذه، كما لن يتسع حتى لإيفاء أي منها حقه من البحث والإيضاح، فربما كان من الأفضل أن نحاول الرد على التساؤل الذي لا بد أن يراود بعض القراء عن فائدة مثل هو هذه الدراسات اللغوية، هذا إذا كانت لها أية فائدة، وعما إذا كانت هنالك أية ضرورة لدراسة اللغة التي نتعايش معها طوال يقظتنا وحتى في أحلامنا، بحيث أنها أصبحت جزءا لا يتجزأ منا.

نود، قبل أن نبدأ الإجابة على أمثال هذه الأسئلة أن نشير في أن مجرد السؤال بهذه الصيغة يعتبره العلماء النظريون جميعا، بمن فيهم علماء اللغة النظريون-إهانة كبيرة لهم. فهم يقولون أن لكل إنسان الحق بدراسة أي مظهر من مظاهر السلوك الإنساني-واللغة أهم تلك المظاهر جميعا أو حتى أي مظهر من مظاهر هذه الأرض التي نعيش عليها،

أو أي مظهر من مظاهر الكون بأسره الذي لا تشكل أرضنا إلا إحدى جزئياته-يقولون أن لكل إنسان الحق في دراسة أي مظهر أو أي أمر طبيعي أو عقلي لمجرد أنه يثير اهتمامه، ويجد فيه متعة خاصة بغض النظر عما إذا كانت لتلك الدراسة أية فائدة تطبيقية أو عملية. وهم يؤكدون أن هذا الكون زاخر بالأسرار التي لم نتوصل إلى اكتشاف طبيعتها بعد، ولذلك فان على كل من يجد في نفسه الميل والكفاءة والاستعداد أن يقوم بدراسة أي موضوع يتعلق بأي مظهر أو جزء أو ناحية من نواحي هذا الكون الواسع. كما يؤكدون-وهم على حق فيما يقولون-أن النظرية تسبق التطبيق دائما، سواء أكان التطبيق في الذهن كهدف من أهداف العمل النظري أم لم يكن، وهذا هو الغالب. وفي العادة يتولى الاستفادة من النظرية من الناحية العملية أناس آخرون هم من ندعوهم بالعلماء التطبيقيين. ولكن هذا لا يعني أبدا أن جميع النظريات التي أتى بها الإنسان في نواحي العلوم المختلفة، قد وجدت لها جانبا تطبيقيا أو فائدة عملية، فتاريخ الفكر الإنساني زاخر بآلاف النظريات التي لم يستفد منها أحد فائدة عملية بالمعنى المفهوم، ومع ذلك فلم يمنع هذا المفكرين والعلماء المعاصرين من متابعة أبحاثهم النظرية البحتة دون النظر إلى إمكانية أو عدم إمكانية الاستفادة منها.

لقد قلنا أن هذا الكون الواسع يزخر بالأسرار التي يحاول الإنسان منذ وجد على هذه الأرض أن يكتشفها، ولكن أقربها إلينا أسرار هذه الأرض التي نعيش عليها، ولا ريب أن أهم من يدب على ظهرها هو الإنسان، وأن اللغة هي أهم مظهر من مظاهر سلوكه. إذا فهي، أكثر من غيرها، بل وقبل غيرها، جديرة بالدراسة والبحث ما دامت مرتبطة بالإنسان إلى هذا الحد.

وقد حاول المفكرون لا اللغويون فقط على امتداد العصور أن يزيحوا الستار عن كثير من الغموض الذي يكتنف اللغة البشرية والتي لم يستطع الإنسان حتى الآن أن يتوصل إلى إزالته كله، وان توصل النظري الإجابة عن بعض التساؤلات التي أثيرت خلال آلاف السنين من عمر البشرية على هذه أكان. ومن هذه التساؤلات الكثيرة ما يتعلق بأصل اللغات جميعا، وهل لها اصل واحد أم عدة أصول؟ وكيف بدأت؟ وكيف انتشرت؟ وكيف تغيرت؟ وأي منها تنتمي النظري فصيلة واحدة؟ وكم عدد لغات العالم؟ وكيف تتغير اللغة الواحدة عبر القرون، سواء من حيث أصواتها إلى قواعدها الصرفية

والنحوية أم دلالات مفرداتها؟ وما هي علاقة المجتمع بهذه التغيرات؟ وكيف تنشأ اللهجات، وكيف تتوزع؟ وكيف تنشأ لهجات خاصة بأقليات عرقية أو دينية أو قومية صغيرة تعيش في مجتمع كبير؟ وهل هنالك فروق بين نوعيات اللغة التي تستعملها طبقات اجتماعية معينة؟ أو بين أنواع اللغة التي يستعملها الفرد نفسه مع أفراد آخرين تختلف علاقته بكل منهم من العلاقة الحميمة جدا النظري الجهل الكلي؟ ثم ما هي طبيعة اللغة ومن أي شيء تتكون؟ وما هي علاقة اللغة بالفكر-وهل يمكن أن يوجد أحدهما بدون الآخر؟ وما هي علاقة اللغة بالأسرار نفسه؟ وهل هو مفطور عليها؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما هي طبيعة هذه القدرة النظرية؟ وكيف يمكن للطفل أن يتعلم أية لغة يسمعها بشكل مستمر؟ وهل الفروق الظاهرية بين اللغات فروق أساسية أم أن وجوه الشبه الأساسية بينها أهم من تلك الاختلافات الخارجية؟ وإذا كان الأمر كذلك، وإذا توصلنا النظري طبيعة اللغات عامة من حيث تركيبها الأساسي، فهل يمكن أن نتخلص من مشكلة تعدد اللغات بأن نخترع عالمية يتكلمها ويكتب بها جميع الناس أينما وجدوا؟ وما هي المشاكل الحالية في الترجمة من لغة النظري أخرى؟ وإذا كانت اللغات متشابهة في الأساس، ألا يمكن التوصل النظري طريقة آلية للترجمة مثلا؟

لا نريد أن نستطرد فنذهب في مثل هذه الأسئلة النظري نهايتها، فقد لا توجد نهاية فعلية لها. وهي تدل على مدى الاهتمام الواسع الذي أولاه الآن دراسة اللغة منذ القدم حتى اليوم، وهو لم يكن يفعل ذلك دائما وفي ذهنه فائدة معينة يريد أن يجنيها من تلك الدراسة. لا شك أن هذا الأمر كان واردا في أحيان كثيرة، وربما كان أفضل مثال على ذلك ما هدف إليه اللغويون العرب الأوائل عندما وضعوا أمهات كتب القواعد من ضبط اللغة العربية بالشكل الذي نزل به القرآن الكريم خوفا مما يمكن أن يطرأ من التغيّر على اللغة عبر السنين، فيؤثر على معاني الآيات القرآنية وما تهدف إليه. وقد كانوا يهدفون أيضا إلى تعليم تلك اللغة بالذات لأطفال العرب وللمسلمين من غير العرب عبر السنين أيضا، كما لا نزال نهدف حتى اليوم، وذلك لكي لا تضيع علاقتنا بديننا وتراثنا وحضارة بل وبقوميتنا العربية من أساسها.

إذا كان الهدف التطبيقي واردا في بعض الأحيان، ولكن لم يكن واردا دائما. ولم يكن ما قلناه في الصفحات السابقة يقصد إلى الإيهام بأن لا فائدة ترجى من أية دراسات لغوية، بل العكس هو الصحيح، كما سيتضح بعد قليل. ولكن كل ما أردنا قوله، هو أن الدراسات النظرية ستبقى مستمرة إلى ما شاء الله سواء أكانت لها فائدة عملية أم لم تكن.

أما الدراسات اللغوية فان فوائدها تعادل في أهميتها أهمية اللغة نفسها التي تكون مادة البحث، وسنعمل على تجميع هذه الفوائد ومحاولة تصنيفها تحت أبواب كبيرة حتى لا تبدو مبعثرة لا رابط بينها. ولكننا سنبدأ بأقلها أهمية ثم نتدرج إلى ما هو اكثر أهمية حتى نصل إلى أهم تلك الفوائد جميعا في أواخر هذا الفصل.

2- عندما تضطرب الأمور:

والأمور يمكن أن تضطرب وتختل بأشكال مختلفة. وربما كان أوضحها وأسهلها بالنسبة للغة هو ما يصيب بعض أجهزة الإنسان ذات العلاقة باللغة من اضطراب أو تلف كأن يولد الطفل كفيفا أو يصاب بمرض يفقده بصره بعد حين. ولكن القارئ لهذا الكتاب سيلاحظ في الحال أننا لن نذكر البصر من ضمن أجهزة النطق. وهذا صحيح لان حديثنا سيتركز في الغالب على الكلام أي على المظهر المنطوق والمسموع من اللغة وليس على المظهر المكتوب منها. كما أننا لم نأت على ذكر حواس أخرى كالشم والذوق واللمس مثلا، ولكن ليس لنفس السبب بالطبع. إلا أننا سنفترض الإنسان القارئ في جميع ما سنكتبه تقريبا. فلهذه الحواس جميعا أهميتها في اكتساب اللغة بوجه خاص، وفي استعمالها بوجه عام. وحاسة البصر بخاصة هامة جدا في اكتساب اللغة من حيث دلالة الألفاظ على الأشياء المرئية، ولكن لا اللغويون ولا التربويون أولوا هذا الأمر اهتماما خاصا من الناحية التطبيقية، وسبب ذلك أنهم وجدوا أن معظم الأطفال المكفوفين يكتسبون اللغة بطريقة طبيعية تقريبا بمساعدة الأهل والرفاق قبل دخولهم المدارس فلم يهتموا بالمظهر المنطوق من اللغة بالنسبة لهؤلاء بل أولوا عنايتهم الخاصة للشكل المكتوب منها، لكي لا يحرم هؤلاء من هذه النعمة التي يمكن أن يتمتع بها الأسوياء عن طريق التحاقهم بالمدارس-وربما كان من أمتع ما كتب

باللغة العربية عن هذه التجربة المبكرة في اكتساب اللغة هو كتاب الأيام لطه حسين.

ولمعالجة هذا الأمر بالنسبة للمكفوفين، اخترعت طريقة بريل (Braille) المعروفة والتي تعتمد في جوهرها على استبدال حروف الأبجدية في لغة معينة برموز أخرى تعتمد على النقط البارزة التي تنتظم كل مجموعة منها بطريقة معينة، لتدل على حروف الأبجدية. وهي شبيهة إلى حد ما بالرموز المستعملة في البرقيات والمعروفة باسم (Morse Code) إلا أن هذه تستطيع نقل الرسائل بطريقة النقر الصوتية إلى أماكن بعيدة، حيث يمكن سماعها، بينما تعتمد الأولى على حاسة اللمس فقط، وتتوفر الآن آلات طابعة خاصة بطباعة الرموز المستعملة في طريقة بريل.

بالإضافة إلى هذا فان توافر أجهزة التسجيل في العصر الحاضر قد زاد في إمكانية إفادة المكفوفين، فقد أصبحت بعض المكتبات متخصصة في الكتب المسجلة على أشرطة والتي يستطيع المكفوفون استعمالها عندما يشاؤون.

وكلا الطريقتين محدودتان بالطبع ولا تغنيان عن البصر تماما، لان إمكانية تسجيل جميع الكتاب أو كتابتها بطريقة بريل غير واردة، ومنهما طريقتان لعلاج نقطة ضعف معينة، وهما طريقتان ناجحتان إذا نظر إليهما من هذه الزاوية.

أما الصم البكم فان مشكلتهم اكبر بكثير من مشكلة المكفوفين فهؤلاء لا يمنعهم فقد البصر من اكتساب لغة وهم في طفولتهم-بمساعدة الأهل طبعا-ومن أولئك الذين يولدون وهم فاقدون لحاسة السمع أو يفقدونها في طفولتهم المبكرة تواجههم صعوبة كبيرة للغاية في انهم لا يسمعون الأصوات لكي يتمكنوا من إصدار مثيلاتها ومن فهمها، ولذلك يظلون عاجزين عن النطق إذا لم تلاحق حالاتهم منذ سنوات طفولتهم الأولى. فإذا وجد عند فحصهم أن لديهم مقدرة ولو ضئيلة جدا على السمع، فان مشكلتهم تهون هذه الأيام وذلك لتوفر الأجهزة الإلكترونية الحديثة التي تستطيع أن تكبر حجم الصوت وقوته آلاف المرات ليصل إلى الدقة المطلوبة، وبذلك يمكن أن ينمو أولئك الأطفال نموا يكاد يكون طبيعيا. أما أولئك الذين لا فائدة من حاسة السمع عندهم، فانهم يقاسون من هذه العاهة طوال حياتهم. إلا أن

وسائل عديدة قد جربت للتخفيف من مصابهم وكلها تعتمد بشكل رئسي على محاولة تعليم هؤلاء النطق بشكل أو بآخر وكذلك تعليمهم قراءة الشفاه لفهم ما يقال لهم. وهذه الطريقة ناجحة إلى حد ما كما أنها تعتمد على المواجهة ورؤية الأصم للمتكلم، وإلا فلا فائدة منها. كما أن هنالك رموزا مرئية تعتمد على الجسم واليدين بشكل خاص اخترعت أنواع مختلفة منها في بلدان عدة، وربما كان أكثرها شيوعا الآن لغة الصم البكم المستعملة في الولايات المتحدة الأمريكية. وهذه اللغة تساعد هؤلاء على التفاهم فيما بينهم، وكذلك على التفاهم مع غيرهم بوساطة من يعرف هذه اللغة الخاصة- وقد شاهدنا قبل اشهر قلائل على شاشات التلفاز كيف كان الرئيس كارتر يخاطب عددا من الصم البكم وكيف كانت إحدى السيدات تترجم لهم ما يقول بسرعة كبيرة، بلغة الإشارة تلك، فاستطاعوا أن يتصلوا برئيس دولتهم، وان كان ذلك قد تم عن طريق شخص ثالث.

أما مجال النجاح الحقيقي في تعليم اللغة لهؤلاء المرضى، فهو مجال القراءة والكتابة. وهنا لا توجد مشاكل صعبة الحل، فقد تم التوصل إلى طرق خاصة وفعالة جدا في تعليم القراءة والكتابة لأي أصم أبكم طالما أن مقدرته العقلية عادية، وبذلك يكسبه اجتمع لا إلى صف المثقفين فحسب بل والى صفوف الأعضاء الفعالين المنتجين الذين يمكنهم أن يكسبوا قوتهم بالطرق العادية أيضا.

ولعل من اقرب الأمثلة لأنواع الخدمة والمساعدة التي يمكن تقديمها للصم البكم (أو ضعيفي السمع) ما يجرى في معاهد التربية الخاصة بدولة الكويت، حيث تستخدم طرق تعليمية حديثة جدا وأجهزة إلكترونية عصرية، ما كانت لتتاح للناس في هذه الأيام لولا ذلك التقدم الهائل في دراسة الأمواج الصوتية التي يولدها الإنسان عندما يتكلم. (وفي نفس المعاهد أيضا قسم خاص بالمكفوفين حيث يتعلمون القراءة والكتابة على طريقة بريل).

بالإضافة إلى الحالات التي ذكرت حتى الآن، هنالك بعض الأطفال الذين يولدون بحلوق مشقوقة أو بدون السنة. وقد تبين أيضا أن بإمكان أمثال هؤلاء أن يكتسبوا اللغة. بدون صعوبة كبيرة، رغم عدم تمكنهم من نطق الكلام الذي يريدون قوله.

وهذه الأمثلة المرضية جميعا تدعونا أن نفرق بين أمرين:-الأمر الأول هو اللغة والثاني هو الكلام، أي الكلام المنطوق فعلا. أما الصم فهو نطق الأصوات البشرية المعروفة. ولكن اللغة هي المقدرة على فهم ما يقال وعلى تركيب جمل جديدة، والكلام أحد مظهريها الخارجيين أما المظهر الآخر فهو الكتابة.

نقول هذا في هذا الموضع لنخلص إلى نتيجة هامة جدا بالنسبة لاكتساب اللغة وبالنسبة للاضطرابات اللغوية التي يمكن أن نصيب الإنسان. فقد تبين من الأمثلة المرضية السابقة أن عدم توافر القدرة على الرؤية أو النطق ليس سببا يمنع من اكتساب اللغة البشرية بأشكال أخرى. كما سنرى بعد قليل أن بعض الاضطرابات اللغوية يمكن أن تطرأ على النطق دون أن تؤثر في مظاهر اللغة الأخرى. ومع أن كلا من الكلام (أو النطق) واللغة يعتمد على وجود أجهزة (mechanisms) بيولوجية (أو على الأصح، فسيولوجية) في الجهاز العصبي المركزي للجسم-ومكانه الدماغ-، إلا أن معظم العلماء المختصين في هذا النوع من الدراسة المتصلة بعلاقة اللغة بالدماغ، يعتقدون بأن اللغة أساسية أكثر من النطق أو الكلام. يقول لنبرغ (Lenneberg) الذي كان أستاذه علم النفس وعلم بيولوجيا الأعصاب في جامعة كورنيل بأمريكا[1] وواحدا من أكثر العلماء اهتماما وكتابة في هذا الموضوع، يقول أن واحدا من أهم الاكتشافات في السنوات الأخيرة هو أن بإمكان الأطفال الذين لم تتح لهم فرصة الكلام من قبل: إذا لم يتعدوا سنا معينة، أن يكتسبوا وينموا قدراتهم اللغوية. وانه قام هو نفسه بدراسة حالات عدد من الأطفال الذين أصيبت أدمغتهم قبل الولادة أو بعدها مباشرة، بخلل بسيط منهم من إصدار حتى أصوات المناغاة المعروفة، ناهيك عن الكلام العادي، ووجد أن بإمكان هؤلاء الأطفال أن يكتسبوا اللغة إذا نموا في جو عادي يسمعون فيه كلام الناس ويتعاملون معهم، وان كانوا لن يتمكنوا من النطق بالكلام كالبشر العاديين. لقد كان الناس حتى عهد قريب جدار ينظرون إلى أمثال هؤلاء الأطفال على أنهم متخلفون عقليا ولكن هذه النظرة بدأت تختلف الآن وأصبح بالإمكان فحص القدرة اللغوية الكامنة عند الطفل بأساليب حديثة، فإذا وجد أن تلك القدرة موجودة فعلا، أمكن تزويد الطفل بالتعليم والتربية العاديين، لا بما يزود به المتخلفون عقليا، وأصبح من الممكن الاستفادة من

هذا الطفل استفادة شبه كاملة كعضو فعال في المجتمع.

وكما سنذكر في الفصل الثالث فان الدراسات قد أثبتت بطلان الاعتقاد السابق بوجود علاقة بين اللغة وحجم الدماغ، فهنالك بعض الأقزام الذين لا يزيد طول أحدهم عن 85 سنتمترا، وحجم الرأس عن رأس طفل صغير جدا، ومع ذلك فجميعهم يتقنون لغة واحدة على الأقل وبعضهم يتقن عدة لغات. ولكن من الثابت طبعا أن الدماغ هو مركز اللغة، وأن المنطقة اليسرى منه بالذات هي المسؤولة عن اللغة. ومن أهم الدراسات التي تجري الآن هي ما يقوم به أطباء الأعصاب والدماغ بالتعاون مع علماء اللغة للتعرف على طبيعة اللغة وتعقيداتها المختلفة من ناحية ولمحاولة تحديد أدق لتلك المناطق من الدماغ التي يمكن أن تكون متخصصة أو مسؤولة عن مهارات لغوية معينة-وإحدى النتائج التي يمكن أن تخرج بها تلك الأبحاث هي معرفة الطريقة التي يمكن أن تعالج بها بعض الحالات المرضية الناتجة عن اضطرابات الدماغ بسبب من ضربة أو نوبة قلبية أو ما يشابههما. كما أن من الممكن أن تساعد هذه الدراسة على معرفة مظاهر اللغة التي يمكن أن تكون قد تضررت بسبب الضربة مثلا وذلك بتحديد المنطقة المصابة تحديدا دقيقا ومعرفة اختصاصها بالنسبة للغة، وهذا يساعد طبعا على علاج المصاب عن طريق تنمية المظاهر أو المهارات اللغوية الأخرى التي لم تتضرر بعد.

وبدراسة أدمغة المصابين بإصابات مختلفة، بالإضافة إلى أساليب حديثة تستعمل للتجريب على أدمغة غير المصابين، تبين مثلا:

ا- أن ذلك الجزء الواقع في المنطقة اليسرى من المخ والذي يسمى منطقة بروكا (Broca's Area)[2] هو الجزء المسؤول عن برمجة الكلام أو النطق بشكل خاص بحيث أن أصابته ينتج عنها اختلال كبير في النطق وفي التركيب النحوي للجمل، يصل أحيانا إلى حد عدم التمكن من النطق إطلاقا. ولكن هذا لا يعني فقد المقدرة اللغوية، لان المصاب في هذه المنطقة قادر على استعمال أعضاء النطق لوظائف أخرى بما في ذلك غناء نغمة معينة بدون استعمال المفردات. كما أن المصاب لا يتأثر من ناحية مقدرته على فهم ما يسمعه وما يقرأه.

2- أن الجزء الآخر من المخ الذي يسمى منطقة فرنيكه (Wernicke's

Area)[3] يبدو مسؤولا عن القدرة اللغوية، لا عن النطق. لأنه إذا أصيب، لا تتأثر طلاقة المريض الشفوية، ومن المصاب يجد صعوبة في إيجاد الكلمات المناسبة للمواقف المختلفة، كما يجد صعوبة في الكتابة وفي فهم ما يسمع أو يقرأ.

وهذان النوعان من الاختلال اللغوي هما مظهران من مظاهر الاضطراب المسمى بالحبسة (aphasia) الذي اكتشفت أنواع مختلفة منه حتى الآن. وان كان النوع الثاني المذكور هنا هو أكثرها شيوعا بالتأكيد.

وربما كان من بين أشكال هذا النوع الثاني من الحبسة أن يفقد المصاب السيطرة على الكلام، أي أن ينطلق بالكلام المتواصل الذي لا معنى له في الغالب، ولا يستطيع أن يتوقف إلا بصعوبة بالغة. وهذا المصاب غالبا، يجد صعوبة في الفهم وفي القراءة والكتابة أيضا.

أن تلك المجموعة من الألياف التي تصل بين منطقتي المخ اليمنى واليسرى والتي تسمى الجسم الجاسىء[3] (corpus callosum) لها أهمية خاصة بالنسبة للغة. فقد تبين مثلا أن أحد المصابين غير قادر على القراءة بينما يقوم بالمهارات اللغوية الأخرى جميعا بدون صعوبة.

وبفحص دماغه بعد موته تبين أن جزءا من المنطقة المسؤولة عن الأبصار في المنطقة اليسرى من الدماغ تالفة، كما أن ذلك الجزء من الحاجز- الجسم الجاسئ-الذي يصل بين منطقتي الأبصار في جزئي الدماغ الأيمن والأيسر تالف أيضا. ولذلك لم يكن بإمكان الرسائل البصرية أن تصل إلى المنطقة اليسرى المسؤولة عن اللغة. كما أن هناك حالة أخرى كان فيها ذلك الجسم الواصل بين المنطقتين تالفا كليا قد تسبب في حالة من الصمم بالنسبة للغة فقط، أي عدم المقدرة على فهم الكلام المسموع على الرغم من القدرة على سماع الأصوات الأخرى التي لا علاقة لها باللغة[4].

لقد زاد الاهتمام بهذا النوع من الدراسات زيادة كبيرة في السنوات الأخيرة والعاملون بها متفائلون بنتائجها من الناحيتين العملية (العلاجية) والنظرية (المتعلقة بطبيعة اللغة وتركيبها).

أما أهم تلك النتائج جميعا فهي أن أعراض جميع الإصابات التي تمت دراستها حتى الآن تتبع نمطا معينا ومبادئ عامة يمكن إيجازها فيما يلي:

- أن إصابة بعض ألياف الدماغ وإتلافها لا تتسبب في خسارة أجزاء

مختارة من اللغة كأن تختفي بعض الكلمات أو بعض القواعد النحوية مثلا من لغة المصاب، بينما تبقى كلمات وقواعد أخرى على ما هي عليه.

- أن الإصابة لا يمكن أن تلغى القدرة اللغوية إلغاء كاملا بينما يبقى المصاب في نفس الوقت طبيعيا من جميع الوجوه الأخرى.

- أن ما يميز جميع إصابات الحبسة (aphasia) أنها لا تقضي على اللغة قضاء تاما بل تسبب خللا في وظيفتها الطبيعية وفي استعمالها، مما ينتج عنه اضطراب في التنسيق الداخلي واختلال في الأداء اللغوي الخارجي. ويشبه الأستاذ لنبرغ ما يحصل في مثل هذه الحالات، لا بخزانة المال التي يختفي جزء من محتوياتها، بل بالحاسب الإلكتروني الذي يختل عمل جزء إلكتروني في داخله فتنتج عن ذلك أخطاء في حساباته[5].

لذلك فان الأطباء يتجهون الآن في علاج المصابين بالحبسة لا عن طريق إعادة تعليمهم اللغة كما نعلم اللغة الأجنبية للطلاب بل عن طريق اكتشاف تلك المهارات اللغوية التي لا زال المصاب يحتفظ بها، وتنميتها بشكل يمكن أن تعوض فيه إلى حد ما عن الخلل الذي طرأ على لغة المصاب. وإذا كان لهذه الدراسات أن تؤتى أكلها فان على الأطباء المختصين بهذه النواحي أن يتعاونوا مع علماء اللغة سعيا وراء فهم أكبر لطبيعة اللغة ومقوماتها المختلفة وطريقة تأديتها لوظائفها، لان الجهل بهذه الأمور لن يؤدي بتلك الأبحاث إلى شيء.

ومما يجدر ذكره هنا، أن الكلام السابق لا ينطبق على الأطفال حتى حوالي الرابعة عشرة من عمرهم. فقد تبين أن بإمكانهم استعادة أية مقدرة لغوية يفقدونها بسبب إصابات الحبسة، بعكس البالغين، الذين عادة يفقدونها إلى الأبد. وتتضاءل هذه الإمكانية لدى الأطفال إلى أن تتوقف قبل سن العشرين من العمر. ويعزو العلماء ذلك إلى أن النمو اللغوي يستمر ما دامت عملية النضوج الجسماني مستمرة، ويتأثر بها. فالأطفال ضعاف العقول مثلا يكون نضوجهم الجسماني بطيئا بوجه عام. ولذلك فان بداية النمو اللغوي-أي اكتساب اللغة-تتأخر، كما أن النمو اللغوي نفسه يسير ببطء مسايرا في ذلك النضوج الجسماني العام. وعندما يتوقف هذا النضوج في حوالي الرابعة عض ة أو الخامسة عشرة من العمر يتوقف نمو اللغة ولما تبلغ مرحلة الكمال التي تبلغها في الناس الأسوياء قبل ذلك بسنوات طويلة.

فيبقى مستوى اللغة عند ضعاف العقول على حاله فيما تبقى من سني حياتهم.

هذه أمثلة على اضطراب الأمور اللغوية الناتج عن أسباب جسمانية، وقد رأينا كيف تتضافر جهود العلماء من ذوي الاختصاصات المختلفة لعلاجها وللاستفادة من الدراسات التي تجرى عليها. ولكن لا بد لنا، قبل أن ننتهي من هذا الموضوع، أن نشير إلى تلك الاضطرابات اللغوية التي تحدث نتيجة لعوامل وأمراض نفسانية.

يقول برندان ماهر (Brendan Maher) أستاذ علم النفس بجامعة هارفارد[6] أن الاهتمام بالعلاقة بين اللغة وبين علم الأمراض النفسية قد زاد كثيرا في الآونة الأخيرة بعد أن تبين لعلماء النفس المعاصرين مدى المبالغة الشديدة في نظريات فرويد وأسلوب التحليل النفسي الذي ابتدعه لمعرفة أسباب الأمراض النفسية المختلفة تمهيدا لعلاجها. وقد ساعد على نمو هذا الاهتمام التطور الكبير الذي سنشير إليه في الفصل الثالث في الأبحاث المتعلقة بطبيعة أو سيكولوجية اللغة بالإضافة إلى توفير وسائل التحليل السريعة للغاية بوساطة الحاسب الآلي (الكمبيوتر).

فمن مجالات هدا الاهتمام مثلا العلاقة بين اللغة والمصابين بالمرض النفساني المعروف بالفصام أو انشطار الشخصية (Schizophrenia) وهنا يستفيد الأطباء النفسيون من بعض ما توصل إليه علماء اللغة وغيرهم من مفاهيم تتعلق بكمية المعلومات (Information) التي يحملها تعبير أو جملة معينة. ومن تلك المفاهيم ما يطلق عليه تعبير الفائض (redundancy) الذي سنعود إليه في مناسبة قريبة-. وخلاصة هذا المفهوم أن في كل جملة ينطقها الإنسان فائضا، بمعنى أن من الممكن حذف بعض أجزاء الكلمات أو بعض الكلمات الكاملة من الجملة دون أن يعطل ذلك مقدرة المستمع على فهم الرسالة التي تحملها تلك الجملة. وهذا الأمر يبدو واضحا لنا إذا تذكرنا أمرين: أولهما اللغة التي نستعملها في البرقيات والتي نحاول أن نحذف منها اكبر عدد من المفردات التي لا تؤثر تأثيرا مباشرا على مدى فهم الرسالة. والأمر الثاني هو مقدرتنا على فهم إذاعات الراديو وأحاديث الهاتف والأحاديث المشابهة لذلك التي تتم في وسط ضجيج كضجيج المصانع أو حركة سير العربات في الشوارع المزدحمة. وفكرة الفائض هذه تعتمد

على نظرية الاحتمال (probability theory) عند تطبيقها على الجملة، وبوجه خاص على احتمال وقوع كلمة في سياق لغوي معين. فإذا عرفنا الكلمات القليلة الأولى من جملة معينة أصبح بإمكاننا أن نخمن الكلمة التي يمكن أن تتلو كل كلمة سابقة بعد ذلك، مع وجود احتمال-يختلف مقداره من حالة إلى أخرى-بأن يكون تخميننا صحيحا. وهذه النظرية نظرية رياضية طبقها العلماء على اللغة وأوجدوا لها الحسابات الدقيقة التي لا نريد أن ندخل فيها في هذا الموضع. ولكن ما لا بد من ذكره هنا أن هناك علاقة وثيقة بين الفائض والفهم، فكلما زادت نسبة الفائض في الكلام سهل الفهم على السامع وزاد مقدار ما يفهمه من الكلام، والعكس صحيح أيضا. وهنا نأتي إلى ربط هذا كله بعرض الفصام.

لقد دلت تجارب عديدة على أن لغة المصابين بمرض الفصام تتميز بمستوى منخفض من الفائض، بمعنى أن فهم هؤلاء للكلام يقل عن الإنسان السوي لعدم استفادتهم عن السياقات اللغوية فيما سبق من ذلك الكلام. وقد تأكدت هذه النتيجة بمناهج تجريبية مختلفة. وربما استطاعت هذه النتيجة أن تفسر مشكلة هؤلاء المرضى. فالملاحظة العامة عن لغة هؤلاء هي أن المريض يبدو وكأنه يتمتع بروح الدعابة وكأنه يستخدم في حديثه التورية والتلاعب بالألفاظ بينما هو في الواقع يجد صعوبة في الاستفادة من السياقات السابقة في كلامه هو، تلك السياقات التي يستفيد منها الإنسان السوي لإتمام كل جملة ولاستعمال المفردات استعمالا سليما. لقد درست أيضا مسألة تحسين السياقات للمساعدة على تذكر كلام قيل في وقت سابق. وقد تبين من التجارب أن هذا يساعد الأشخاص العاديين على التذكر، بينما لا يكون له نفس الأثر على المصابين بالفصام.

كما أن تجارب أخرى أظهرت أن من الممكن أن تكون مشكلة هؤلاء المرضى هي عدم المقدرة على التركيز، وسرعة تشتت أفكارهم من موضوع إلى آخر. يقول أحدهم: «عندما يتكلم الناس معي فكأنهم يتكلمون لغة أخرى، فمن الصعب علي أن استوعب ما يقولون مرة واحدة، فرأسي يزدحم بكلام فوق ما يحتمل، ولذلك فأني لا افهم ما يقولون بل أني أنسى ما أسمعه في الحال لأني لا أستطيع أن استمع إلى كلامهم لمدة كافية، وكأن ما أسمعه يتألف من نتف مبعثرة تحتاج إلى أن تجمع مرة ثانية في الذهن»[7].

لقد أجريت تجارب أخرى على مضمون أو مادة كلام المصابين بالفصام، وقد دلت هذه على أن من الممكن معرفة مدى شدة الإصابة بالمرض من معرفة نوع المواضيع التي يتكلمون فيها. فالكلام في المواضيع العاطفية، كالحب مثلا دليل على شدة الإصابة، بينما الكلام عن الطقس أو الأصدقاء مثلا يدل على أن الإصابة خفيفة.

وخلاصة ما يمكن قوله بالنسبة للفصام حتى الآن، أن النظرة إليه قد اختلفت من اعتباره مرضا عقليا محضا ومعالجته على هذا الأساس، إلى اعتباره مرضا لغويا له علاقة باللغة والعقل على السواء، ولكن الأبحاث لا زالت مستمرة للكف عن نواح أخرى تساعد على علاجه.

وليس الفصام هو المرض النفسي الوحيد الذي اختلفت النظرة إليه، وأصبحت الاكتشافات اللغوية المعاصرة تلعب دورا أكبر في محاولة فهم أسبابه وفي علاجه بل هناك أمراض كثيرة أخرى غيره، إلا أن هذا المثل على ما نعتقد كاف لتوضيح الاتجاهات الحديثة في هذا المجال. كما أنه ليس من الضروري أن يصل الاضطراب اللغوي إلى حد المرض النفسي، بل أن هناك كثيرا من اللبس وإساءة الفهم يمكن أن يحصلا في الاتصال اليومي العادي الذي تلعب اللغة فيه أكبر دور بدون منازع. كما أنه ليس من الضروري أن يكون سوء الفهم هذا غير مقصود، بل أن من الممكن استخدام اللغة استخدامين: أحدهما حسن، يهدف إلى إيصال الأفكار السليمة إلى الآخرين، والآخر سيئ، يقصد منه إيصال مفاهيم معينة ليست كلها جيدة بالضرورة إلى الآخرين بقصد التأثير عليهم لسبب أو لآخر.

وهنا نجد أنفسنا وقد بدأنا الدخول في مبحث جديد واسع هو مبحث الاتصالات (communications) الذي يتصف بأهمية خاصة في أيامنا هذه، والذي لم يصبح مبحثا منفصلا عن الدراسات اللغوية فحسب، بل انه قد تفرع إلى عدة مباحث فرعية مختلفة، منها ما يعتمد على اللغة، ومنها ما يعتمد على الصوت البشرى الذي هو مادة اللغة الإنسانية، ومنها ما يعتمد على اللغات الصناعية التي بني بعضها على اللغة البشرية، ومنها ما يعتمد على لغتنا مضافا إليها بعض النظريات الرياضية. ولذلك يحسن أن نبحث هذا المظهر أو الوظيفة الخاصة باللغة وهي وظيفة الاتصال بأنواعه في جزء خاص من هذا الفصل، وهذا ما سنفعله في الصفحات القليلة التالية.

3-اللغة كوسيلة للاتصال:

أن تعريف بعضهم بأن اللغة وسيلة للاتصال بين البشر ليس تعريفا دقيقا تماما. فمن ناحية، يمكن أن يحصل الاتصال بين البشر بوسائل غير لغوية تتراوح بين ردود الفعل العفوية كاحمرار الوجه دلالة على الخجل أو العبوس تعبيرا عن الغضب والإيحاء المتعمد بأحد أجزاء الوجه أو الجسم والوسائل الكثيرة الأخرى كالرسومات والنقود والأعداد.... وان القصيدة الشعرية أو القطعة الموسيقية. ومن ناحية أخرى، فان الاتصال ليس مقصورا على الإنسان، فعدد من الحيوانات يستعمل وسائل بعضها معقد جدا للاتصال فيما بينها-كما سنذكر فيما بعد-ومن ناحية ثالثة ليس الاتصال هو الوظيفة الوحيدة للغة البشرية، فهي بالإضافة إلى أنها وسيلة للاتصال بين البشر تقوم بوظائف أخرى متعددة، فاللغة الواحدة المستعملة في مجتمع معين تعطى الفرد شعورا بالانتماء إلى ذلك المجتمع. وهي كثيرا ما لا تعني غير هذا الشعور بالانتماء والأمان كمعظم أنواع التحية التي تستعمل في أوقات النهار المختلفة والتي فقدت معظم معانيها الحرفية، وكمعظم الكلام العام الذي نتبادله مع غرباء عنا في الحفلات والمناسبات المختلفة. وإذا كان هذا النوع من الكلام يعطى الفرد شعورا بالأمان والانتماء الاجتماعي، فهنالك أيضا تلك الصلوات والأدعية الدينية وما شابهها مما يحاول الفرد أن يقيم بها علاقة مع خالقه. كما أن هنالك نوعا من الكلام الذي يؤلف حدثا بمجرد النطق به، كقول الرجل لزوجته «أنت طالق» أو قول البائع للشاري «بعتك كذا بكذا دينار» أو كقول القاضي للمتهم «حكمت عليك المحكمة بكذا»، فهذا الكلام يؤدي معنى الحدث أو الفعل بمجرد قوله. وقريب من هذا تلك الأوامر والطلبات وأنواع الرجاء المتعددة التي يطلب بها الفرد أن يؤدي غيره عملا ما، أي انه يحاول عن طريقها التأثير في الجو أو البيئة المحيطة به. وهنالك أيضا وظيفة التعبير عن الفكر الإنساني، وان وكانت العلاقة بين اللغة والفكر لم يمكن تحديدها حتى الآن، ومن اللغة تستخدم أيضا للتعبير عن المشاعر والعواطف الإنسانية في الأدب عامة والشعر خاصة، وهي تستخدم للتأثير في الناس تأثيرا حسنا أو سيئا. وهي في شكلها المكتوب، أو المحفوظ بطرق أخرى في عصرنا هذا، تحفظ حضارة المجتمعات المختلفة للأجيال القادمة.

ولكن، على الرغم من تعدد الوظائف التي تؤديها اللغة تبقى وظيفتها كوسيلة للاتصال بين البشر أهم تلك الوظائف جميعا. ونحن لو درسنا كلا من تلك الوظائف الأخرى التي ذكرناها قيل قليل، لوجدنا في كل منها تقريبا أحد الجوانب التي لها علاقة بالاتصال بين أفراد المجتمع الواحد أو الجنس البشري بأسره.

ولكننا عندما نتحدث عن وظيفة اللغة كوسيلة للاتصال بين الناس، نجد أنفسنا نتحدث عن ثلاثة أشياء مختلفة تقريبا. فهنالك،-أولا، ما نسميه في زمننا هذا بالاتصالات السلكية واللاسلكية التي أصبحت جزءا هاما جدا من حياتنا المعاصرة. ثم هنالك الناحية الرياضية أو الحسابية للغة والتي تتعلق بمدى المعرفة أو المعلومات التي تحملها الجملة أو الكلمة في الجملة، وهذه الناحية تعني بها نظرية المعلومات. (Information theory) وأخيرا هنالك الناحية التي تتعلق بوظائف اللغة. Language) (Functions والتي أشرنا إليها قبل قليل-وبخاصة تلك الوظائف التي تتعلق بالتعامل مع الجماهير، ومحاولة التأثير عليها وإقناعها، ويدخل ضمن ذلك كل من الدعاية والإعلان وهما من اخطر الوظائف اللغوية التي تستغل في هذه الأيام.

أما الاتصالات السلكية واللاسلكية فهي تعتمد بالدرجة الأولى على تحليل وقياس مادة اللغة البشرية، أي الصوت البشري (وغير البشري بالطبع) وتحويله من طاقة إلى طاقة أخرى، وتوزيعه عبر الأسلاك أو عبر الهواء إلى أماكن قريبة وبعيدة واختراع ما يلزم من المعدات والأجهزة لذلك. وكلنا نعيش هذه الأيام عصر الهاتف والبرق واللاسلكي واستعمالات الأخير في الراديو والتلفاز والتلكس والطابعة البعيدة (tele-printer) وغيرها كما نعيش عصر الحاسب الآلي (الكمبيوتر) الذي يستعمل أيضا في أحدث استعمالاته كوسيلة للاتصال بين الناس الذين يعيشون على مسافات بعيدة من بعضهم بعضا. وطبيعة الصوت التي تعتمد عليها هذه الناحية من نواحي الاتصال ليست مما يختص به علماء اللغة بوجه خاص، فبعضهم ممن يختص بعلم الأموات يساهم في هذا النوع من الدراسة، ولكن لأهداف نظرية أكثر منها عملية. أما دراسة طبيعة الصوت أثناء مروره في الهواء فهي من اختصاص علماء الطبيعة (الفيزياء) وهم الذين قاموا وما زالوا يقومون بالتجارب والأبحاث المتعلقة بهذا الموضوع ولذلك فعملهم ونتائج دراساتهم لا تدخل

في نطاق علوم اللغة بمعناها الدقيق. ولهذا السبب فإنا لن نتعرض لها بأكثر مما قلناه هنا، ويمكن لمن كان له اهتمام خاص بذلك متابعة الموضوع في كتب الفيزياء، وبخاصة ما يبحث منها في طبيعة الصوت.

أما نظرية المعلومات وتسمى أحيانا نظرية الاتصال (Communication theory) التي أشرنا إليها إشارة سريعة في الجزء الثاني من هذا الفصل، في نظرية علمية تعتمد على الرياضيات بشكل خاص، وقد طلع بها في بادئ الأمر أولئك المهندسون المختصون بتصميم الدوائر الكهربائية اللازمة لشبكات الهاتف والتلغراف. فقد كان همهم أن ينتجوا معدات ذات حد أقصى من الكفاءة في استعمال القنوات (channels) وهذا يتطلب طريقة لقياس السعة (capacity) النظرية لكل قناة، بالإضافة إلى مقدار تلك السمة المستخدمة في البث بأي نظام رمزي للإتصال (code). ولذلك فان موضوع الاتصالات أوسع بكثير من اللغة الحرية، وان كان يشملها طبعا، ويتطلب توافر العناصر الأساسية للاتصال التي يتطلب الاتصال اللغوي توافرها. من نظام رمزي (code) إلى قناة (channel) أو وسيط لنقل الرمز كالصوت والموجات الكهرومغناطيسية والضوء والنبضات الكهربائية وغيرها، إلى إنسان أو جهاز يقوم بترتيب الرسالة (encoder) إلى تركيب رسالة ذات معنى إلى فك رموز تلك الرسالة على يد إنسان أو آلة (decoder). ولكن ليس من الضروري أن تكون هذه العناصر مما يتعلق باللغة البشرية، فنظرية الاتصال تعتبر إشارات المرور جزءا من نظام اتصال معين، وكذلك جهاز ضبط الحرارة في السيارة أو المنزل، وجهاز الإنذار وما إليها.

وتهتم نظرية الاتصال بكل خاص بقياس كمية المعلومات التي تحملها إشارة معينة (signal) في سياق معين. وهنا يجب أن ننتبه لما نقصده بتعبير «معلومات» في هذه النظرية فان المعلومات تزيد كلما زاد عدد الإشارات البديلة. فلو فرضنا أن في أحمد اتفق مع علي على نظام للاتصال الليلي مؤلف من حركتين ضوئيتين: الأولى إشارة ضوئية واحدة والأخرى إشارتان. الأولى تشير إلى وجود شخص ما في بيت احمد مثلا والأخرى تشير إلى عدم وجوده. فهذا نظام بسيط للغاية وسعته من حيث كمية المعلومات التي يمكن أن يبثها محدودة للغاية. أما إذا زادت تلك الإشارات فان كمية المعلومات التي يصبح بإمكان النظام ككل بثها تزيد تبعا لعدد الإشارات. وقد اتفق

على قياس المعلومات بوحدة تسمى (bit) أو (binit) يمكن أن نسميها وحدة المعلومات، كما اتفق على أن سمة نظام للاتصال يعتمد على إشارتين اثنتين فقط، احتمال وقوع كل منهما في السياق المعين مساو للآخر، يساوى وحدة معلومات واحدة. فإذا زادت الإشارات إلى أربع متساوية في احتمال الوقوع في السياقات المختلفة، أصبحت المعلومات = 2 وحدة لكل استعمال، فإذا زاد عدد الإشارات إلى (8) ثمانية أصبحت السعة = 3 وحدات لكل استعمال. وبعبارة أخرى تبلغ سعة نظام كامل من هذا النوع: اللوغاريتم للأساس 2 لعدد الإشارات البديلة أو:

لو 2 الإشارات البديلة.

ولكننا في هذا النظام افترضنا أن احتمال وقوع كل إشارة في السياقات المختلفة مساو للإشارة الأخرى، وهذا عمليا غير صحيح. فإذا أخذنا مثلا على نظام بسيط للاتصال ذلك الجهاز المستعمل في المحلات التجارية للإنذار من اللصوص، نجد أن هذا النظام يعتمد على إشارتين فقط هما: الصمت وقرع الجرس. ولكن احتمال قرع الجرس أقل بمراحل من الصمت (لان الجرس لا يقرع إلا في الحالات النادرة التي يهاجم فيها اللصوص المحل التجاري). ولذلك فإنا نقول أن قرع الجرس ذا الاحتمال المنخفض يعطي من المعلومات أكثر بكثير من إشارة الصمت العالية الاحتمال.

لقد قام العلماء بهذه الطريقة بحساب السعة أو كمية المعلومات التي يمكن أن يبثها جهاز اتصال-معين بأكمله، كما توصلوا إلى معادلة بسيطة بالنية لسعة معلومات أية إشارة في سياق معين، هي المعادلة التالية:

كمية المعلومات = اللوغاريتم للأساس 2 لمعكوس احتمال وقوع الإشارة.

أو كمية المعلومات = لو 2 $\frac{1}{\text{الإحتمال}}$ (I = Log2 1/2)

فلو فرضنا أن عندنا نظاما للاتصال مؤلفا من إشارتين اثنتين فقط ووجدنا من دراسة عدد كبير من الرسائل المركبة من تينك الإشارتين أن الإشارة س مثلا ترد مرة واحدة كل 15 مرة ترد فيها الإشارة الأخرى ص.

نقول أن نسبة ورود الإشارة س هي 1/16 أو 0,0625، بينما نسبة ورود الإشارة ص هي 15/16 أو 0,9475 ومجموعهما، كما هو الحال في جميع الحالات المشابهة هو العدد الصحيح 1. أما المعكوس فهو مقلوب الكسر

العادي. فمعكوس احتمال الإشارة الأولى س هو 16/1 أي = 16. ومعكوس احتمال الإشارة ص هو أو 067, 1 وهكذا تكون كمية المعلومات التي تحملها الإشارة س هي:

لو2 1/ (16/1) = وحدات.

أما بالنسبة للإشارة ص، فان كمية المعلومات التي تعطيها هي:

لو2 1 (16/15) = 093, 0 وحدة.

بعبارة أخرى فان الإشارة ص ترد 15 مرة أكثر على الإشارة س، ولكنها تحمل فقط 1/43 من كمية المعلومات التي تحملها الإشارة س.

أما سبب قياس كمية المعلومات بهذه الوحدات التي تعتمد على اللوغاريتم للأساس 2، بدلا من اللوغاريتم للأساس 10 الأكثر شيوعا في الرياضيات فهو أن معظم الأجهزة المستعملة لحفظ وتوزيع المعلومات كالحاسب الآلي (الكمبيوتر) تعمل على أساس ثنائي، فالشريط المستعمل في الحاسب الآلي تسجل عليه المعلومات كسلاسل من نقاط ممغنطة أو غير ممغنطة، كما أن المعلومات ترسل تلغرافيا على أساس سلسلة من النبضات الكهربائية، القصيرة أو الطويلة، الموجبة الشحنة الكهربائية، أو السالبة وهكذا. وربما كان لهذه الطريقة في القياس فائدة خاصة عند تطبيقها على اللغة البشرية، لان معظم المقارنات (contrasts) التي نلاحظها فيها تكون عادة على أساس ثنائي، كما نرجو أن يتضح من بحثنا لأنظمة اللغة المختلفة في الفصل الخامس.

لا نعتقد أن هنالك ضرورة للمضي في التفاصيل الرياضية لهذه النظرية لأنها لن تكون-سهلة الفهم على القارئ إلا إذا أعطيت كاملة مفصلة، ولا مجال لذلك في هذا الموضع.

ما نود أن نقوله هنا هو أن المنهج المستعمل في هذه النظرية قد استعمل أحيانا لمحاولة التوصل إلى بعض الخصائص اللغوية. ومن أهم هذه الخصائص خاصية الفائض (redundancy) التي أمكن حسابها بدقة الآن والتي لولاها لما استطعنا فهم ما يقال لنا، بسبب الضجة بأنواعها المختلفة التي يتعرض لها الصوت أثناء مروره في الهواء وقبل وصوله إلي، أذن السامع، ويلعب قانون الاحتمال دورا هاما في هذا الموضوع وربما كان أوضح مثل على الفائض هو تهجئة الكلمات الإنكليزية التي يقع فيها الحرف

(q). فهذا الحرف يكون دائما في تلك اللغة متبوعا دائما وبدون استثناء بالحرف (u). أي أن احتمال وقوع هذا الحرف الأخير بعد الحرف الأول هو 100٪، فهو فائض كله وإذا أردنا قياس المعلومات التي يحملها، نجد انه لا قيمة إخبارية له على الإطلاق.

ومن الأمثلة على هذا أيضا ما نطلق عليه تعبير (الكليشيهات) أي الأمثال والتعابير المتداولة على نطاق واسع جدا بحيث تفقد معناها الأساسي، وتكون في نفس الوقت سهلة جدا على الفهم، حتى لو لم يكملها المتكلم كلها. فنحن حالما نسمع شخصا يبدأ جملة بقوله:

لا حول.................

نستطيع أن نتمها بقولنا

.... ولا قوة إلا بالله.

ونحن واثقون إلى حد كبير بأن هذا ما سيقوله المتكلم. والأمثلة على ذلك كثرة جدا.

ومن أسباب حدوث الفائض الضروري جدا لكل لغة بشرية تلك القيود المفروضة على طرق التركيب المختلفة في اللغة، سواء تلك المفروضة على تركيب الأصوات بعضها مع بعض لتكوين الكلمات أو المفروضة على تركيب الكلمات بعضها مع بعض لتكوين الجمل، وغير ذلك. فنحن إذا حسبنا رياضيا عدد الكلمات المختلفة التي يمكن أن تنتج من تركيب أية خمسة من أصوات اللغة الإنجليزية التي تبلغ حوالي ستة وأربعين، فان العدد هو: 976 , 962 , 205، (أي حوالي 206 ملايين كلمة) ولكن الواقع أن جميع كلمات اللغة الإنكليزية الموجودة في أكبر المعاجم لا تزيد كثيرا عن نصف مليون. إذا، العدد الحقيقي لتلك الكلمات المؤلفة من خمسة أصوات أقل بكثير ذلك العدد. والسبب هو تلك القيود المذكورة سابقا، والتي إذا عرفناها استطعنا أن نحسب عدد تلك الكلمات بدقة اكبر بكثير.[8]

و قبل أن تترك نظرية الاتصال تجدر الإشارة إلى ظاهرة أخرى هامة من ظواهر الاتصال التي تنطبق على اللغة أيضا، وهي ما تسمى بالحمل الوظيفي (functional load). ولشرح هذه الظاهرة نأخذ أمثلة من النظام الصوتي للغة الإنكليزية.

فهنالك عدد كبير جدا من الكلمات الإنكليزية التي تختلف كل اثنتين

منها، الواحدة عن الأخرى بورود الصوت (p) في إحداهما مقابل (b) في الأخرى مثل: pit/bit pack/back pad/bad وبسبب العدد الكبير من الكلمات التي تحصل فيها هذه المقابلة (contrast) في اللغة، نقول بأن لهذبن العنصرين حملا وظيفيا عاليا.

فإذا أخذنا صوتين آخرين مثل (ث) و (ذ) نجد أن المقابلة بينهما محصورة في عدد اصغر من الكلمات، لذلك نقول أن الحمل الوظيفي لهذين العنصرين اقل منه في العنصرين السابقين، وإذا أحصينا الكلمات الإنكليزية التي تحصل فيها المقابلة بين الصوتين (ش) و (ج) في أوائل الكلمات، نجد أنها اقل عددا من المقابلتين السابقتين، لذلك نقول أن الحمل الوظيفي لهذين العنصرين، هو الأقل بين العناصر الستة المذكورة.

أن التطبيق العملي لهذه الظاهرة يتعلق بالناحية التعليمية للغة. فكلما ارتفع الحمل الوظيفي لعنصرين من عناصر اللغة، اصبح من الضروري الاهتمام بالمقابلة التي تقوم بين ذلك العنصرين والتأكد من إتقان تلك المقابلة خشية اللبس وسوء الفهم. كما أن هذه الظاهرة أيضا تفيد الدراسات اللغوية التاريخية. فقد اتضح أن المقابلات ذات الحمل الوظيفي المالي تقاوم الاختفاء من اللغة عند انحدارها من جيل إلى جيل آخر بعكس تلك المقابلات التي يكون حملها الوظيفي منخفضا.

ننتقل الآن إلى بحث إحدى الوظائف الأساسية الأخرى للغة بالإضافة إلى الاتصال بالمعنى المذكور آنفا، وهي التي تعتبر في نظر الكثيرين أهم وأخطر وظائف اللغة جميعا، ونعني بها وظيفة التأثير على الآخرين أو وظيفة الإقناع (persuasion)، أي إقناع الآخرين بالرسالة التي تبعث بها إليهم.

وهذه ليست وظيفة جديدة تم اكتشافها مؤخرا، بل هي قديمة جدا، كما أن وعي الناس لأهميتها وعنايتهم بها كانا أمرين واضحين في عصور مختلفة نعرف منها بوجه خاص التاريخ الإغريقي القديم والعصور الرومانية القديمة والعهود العربية في أوجها، وعهودا أخرى من تاريخ العالمين القديم والوسيط، ولم ينقطع هذا الاهتمام في البلدان المختلفة في العصور الحديثة. ولكن ما اكسب هذه الوظيفة أهمية خاصة بل وأكسبها خطورة في أحيان كثيرة هي وسائل الإعلام الجماهيرية (mass media) التي أصبحت متوافرة

في عصرنا الحاضر بشكل لم يسبقه مثيل من قبل، والتي تتمثل بوجه خاص في الصحافة والأفلام السينمائية والراديو والتلفاز.

لقد كان الإقناع فنا يعتمد على المنطق من ناحية وعلى البلاغة والفصاحة اللغويتين من ناحية أخرى، ولكنه كاد أن يصبح علما الآن بعد أن اصبح يعتمد على المنطق وعلم النفس من ناحية وعلى الدراسات اللغوية الحديثة وبخاصة في علم المعاني من ناحية أخرى.

وربما كان من أهم العوامل التي تساعد على الحوار المقنع تحديد معاني المفردات المستعملة تحديدا دقيقا لئلا يكون كل من المتحاورين يستعملها بمعنى مختلف عن الآخر فلا ينتج عن ذلك إقناع واقتناع، بل لبس وسوء تفاهم. وهذه الكلمات على نوعين: نوع له معان متعددة يختلف أحدها عن الآخر كثيرا أو قليلا، وهذه الكلمات كثيرة في كل لغة. ونوع آخر من الكلمات هي تلك التي تشير إلى معان مجردة، كالحق والعدل والشرف والحرية والديمقراطية وأمثالها. وكثيرا ما استعملت أمثال هذه الكلمات ولا زالت تستعمل للدلالة على أمور بعيدة كل البعد حتى عن المفهوم الشعبي الشائع لكل منها، وقد أصاب الفيلسوف الفرنسي فولتير حين قال «قبل أن ابحث معك أي شئ، يجب أن تحدد معاني كلماتك».

وكما سنرى في الفصل الخامس فان علم المعاني الحديث (semantics) لا يقتصر على دراسة المفردات ومحاولة التوصل الجماهيرية أفضل الطرق لتحديد معانيها وإيجاد الصلات بين كل مجموعة مترابطة منها، بل يمتد الجماهيرية معاني الجمل التي سنرى أن بعضا منها يمكن إلى يطال الإبهام أيضا بسبب من مفرداتها أن تراكيبها فيصبح للجملة اكثر من معنى، ويتسبب ذلك في كثير من سوء الفهم.

إن العلاقة بين اللغة والفكر علاقة وثيقة للغاية. ومهما اختلفت الآراء في نوعية تلك العلاقة، وأي منهما سابق أن مسبب للآخر، فلا شك إلى للغة أثرا كبيرا على الفكر، ولذلك فان للدراسات اللغوية أهمية خاصة لكل موضوع يتعلق بالفكر ومن بين هذه المواضيع عملية المناقشة العلمية وإقناع الناس بأفكار معينة.

لقد كنا نتحدث حتى الإقناع عن الجانب الإيجابي من وظيفة الإعلام اللغوية، ولكن خطورتها تتجلى في العصر الحاضر في استعمال هذه الوظيفة

على نطاق واسع جدا وبالتعاون مع العاملين في حقول أخرى وبخاصة علم النفس، للتأثير على الجماهير من الناحيتين الاقتصادية والسياسية. أما الناحية الأولى فيستخدم لها ما يسمى بالإعلان التجاري، وأما الناحية الأخرى فان من ضمن ما يستخدم لها فن الدعاية.

لقد أصبح الإعلان التجاري على نطاق واسع جدا من أسس النظام الاقتصادي الرأسمالي. فليس باستطاعة آلات المصانع التي تنتج المواد والسلع المختلفة أن تستمر في دورانها، وملايين العمال الذين يعملون فيها إلى يستمروا في أعمالهم وفي كسب قوتهم إذا لم تقم أجهزة الدعاية لتلك المنتجات بالإعلان عنها بشتى الطرق والأساليب المغرية وبشكل متصل لحث المستهلك على المزيد من الاستهلاك وعلى المزيد من إبدال القديم بالجديد، مع إلى القديم ليس قديما بالفعل ولا الجديد جديدا بالفعل، إلا من حيث إلى أحدهما سابق شئ زمنيا وربما لا يمتاز الجديد على القديم بشيء على الإطلاق، بل وبما كان القديم افضل من الجديد مادة وصنعا. ولكنها آلة الصناعة الرهيبة التي إلى توقفت عن الدوران أن حتى إلى تباطأ دورانها في البلدان المسيطرة علي معظم صناعة العالم، وهي تعد على الأصابع، فان كسادا اقتصاديا ومشاكل اقتصادية يمكن إلى تخل بتوازن العالم بأسره.

أن فن الإعلان التجاري كاد أن يصبح علما في العصر الحاضر، تنفق عليه الأموال الطائلة، وتجند له بعض أفضل العقول في العالم لمعرفة أفضل الطرق لتسويق المنتجات، ويعتمد على عدة علوم ومباحث، ولكنه يستعمل اللغة كإحدى الوسائل الرئيسية للوصول إلى عقل المستهلك وإقناعه بالمزيد من الشراء وبالمزيد من الإنفاق.

أما الدعاية السياسية بالذات فيمكن أن تكون للأفراد الراغبين في الوصول الأنفاق نوع من الحكم عن طريق نوع من الانتخابات، كما يمكن أن تكون للحكومات أو ضدها. وهذه الوظيفة التي تستخدم اللغة لها، من اخطر الوظائف على الإطلاق. فبينما يمكن أن تكون بعض هذه الدعاية موضوعية الأنفاق حد ما، فان معظمها ليس كذلك، يحاول القائمون عليها إخفاء ما لا يريدون وإظهار ما يريدون وهم يحاولون التأثير على الناس بطرق شتى وأساليب تختلف من بيئة الأنفاق أخرى، وأخطرها ما لم يظهر

كدعاية على الإطلاق، بل يبدوا وكأنه عرض موضوعي برئ لموضوع معين يتعلق بشخص أو بحكومة أو بهيئة أو بحزب سياسي، بينما يكون السم فيه مغلفا بالسكر. وهذا النوع الهادئ المدروس المتواصل هو الذي بإمكانه أن يخاطب عقول المثقفين بوجه خاص ويستعمل في المجتمعات ذات المستوى الثقافي الجيد وذلك لتكوين رأي عام متفق مع اتجاه الحكم، ولكن يبدو وكأنه صادر عن مجموع الأفراد الذين يتألف منهم المجتمع.. أما الدعاية التي تخاطب العواطف بشكل خاص وتحاول إثارة الناس عن هذا الطريق فهي تصلح وتستعمل فعلا لمخاطبة المجتمعات المتخلفة ثقافيا والتي يتصرف أفرادها بعواطفهم اكثر مما يتصرفون بعقولهم. لكن اثر هذا النوع من الدعاية لا يستمر طويلا لان ثورة العواطف لا تستمر طويلا، بينما عمر القناعة العقلية أطول بمراحل.

ومن أنواع الدعاية ما نعرفه جميعا وما نسمعه ونراه في أوقات الأزمات والحروب ومن هذه أيضا ما يلجأ أصحابه الأنفاق الكذب وإخفاء الحقائق وهو اقل الدعايات أثرا، ومنها ما يعتمد على إطار الحقائق بشكل اقرب الأنفاق الصدق ويكسب ثقة الناس الذين يستمعون إليه فيترك فيهم أثرا عميقا. وتستعمل للدعاية، كما تستعمل للإعلان، وسائل الاتصال الجماهيرية، وكلما اتسع نطاق هذه الوسائل فوصلت الأنفاق مسافات أبعد وجمهور اكبر زاد أثرها وفعلها في النفوس.

أن دراسات متشعبة للغاية تجرى بشكل مستمر على محتوى وطريقة استعمال هذه الوسائل بحيث تخدم الأغراض المختلفة، بعد أن اصبح لها ذلك الأثر العميق الشامل على سلوك الناس في كل مكان، واستعمال اللغة كعنصر أساسي في تلك الوسائل يخضع لدراسات لا حصر لها، فقد أصبحت وسائل الاتصال الجماهيرية في متناول كل فرد وأصبحت تدخل كل بيت بأحد أشكالها المختلفة، ولذلك فان الدراسات النظرية التي يستند عليها استعمال تلك الوسائل، ومنها الدراسات اللغوية أمر لا غنى عنه بحال من الأحوال.

4- تعليم اللغات

لربما كان أهم المجالات التي ظهر فيها اثر الدراسات اللغوية الحديثة

هو مجال تعليم اللغات القومية منها والأجنبية، والأخيرة بوجه خاص.

أ- تعليم اللغات القومية:

أما بالنسبة لتعليم اللغة القومية فقد كان عطاء علم اللغة الحديث قليلا نسبيا، وربما كان سبب ذلك أن الطفل يكون قد اكتسب بالفعل أسس اللغة المنطوقة قبل أن يلتحق بالمدرسة ويتعملها على نطاق واسع لقضاء جميع حاجاته، وهو يذهب للمدرسة ليتعلم القراءة والكتابة بشكل رئيسي، وسنرى فيما بعد كيف أن لغويي القرن الحالي ركزوا جل اهتمامهم على اللغة المنطوقة على اعتبار أنها هي الأساس بينما اعتبروا اللغة المكتوبة مظهرا ثانويا للغة ولذلك لم تحظ بالعناية الكافية منهم. بل أن الواقع أننا نلاحظ وجود رد فعل ضد هذا الشكل من أشكال اللغة خلال القرن الحالي ناتج عن التركيز عليه خلال جميع القرون السابقة بدون استثناء. فماذا قدم علماء اللغة المحدثون، إذا، لمساعدة المدرسين على تحسين أدائهم في مجال تعليم اللغات القومية؟

ربما كان أهم ما فعلوه في هذا المجال هو توضيحهم للعلاقة بين المظهرين المنطوق والمكتوب من اللغة. فاللغويون المحدثون لا يفضلون واحدة على الأخرى بل يعتبرون أنهما مظهران مختلفان في كثير من الوجوه ولكل منهما وظيفة خاصة به وأشكال خاصة به فإذا فهمنا هذا اختلفت نظرتنا التقليدية التي كانت تعتبر لغة الكلام شكلا ممسوخا مشوها من أشكال اللغة المحترمة التي هي اللغة المكتوبة فالآخرة في الغالب هي الشكل الرسمي من اللغة الذي يجمع بخصائص معينة من حيث مفرداته وتراكيبه الخ. بينما لغة الكلام هي الشكل غير الرسمي في الغالب الذي يستعمل في مواضع الاتصال اليومية والذي يتمتع أيضا بخصائص مشابهة أحيانا ومختلفة أحيانا أخرى عن الشكل الأول. وبهذا المنظار يجب أن ننظر إلى كل من هذين الشكلين، ولا نفضل أحدهما عن الآخر من الناحية اللغوية.

وهنا تواجهنا مشكلة اللهجات الواسعة الانتشار كاللهجة التي تستعمل في قطر بأكمله وتختلف في أمور كثيرة من حيث الناحية الصوتية أو الصرفية/النحوية أو المفردات ومعانيها الخ عن لهجة أخرى تستعمل في قطر آخر يستعمل نفس اللغة الأم في شكلها المكتوب كما هو حادث بالنسبة لمعظم اللغات المستعملة حاليا، والتي كانت مستعملة في السابق. لقد بين

علماء اللغة بكل وضوح أن اللغة كائن حي متغير باستمرار وان ذلك التغير ظاهرة طبيعية، استطاعوا في بعض الأحيان أن يكتشفوا قوانينها، وانه لا يمكن التصدي لهذه الظاهرة بقصد إيقاف سيرها عن طريق المجامع والأكاديميات اللغوية أو بقرارات حكومية أو غيرها. كما اصبح جليا الآن أن معظم اللغات الرئيسية الواسعة الانتشار في العالم كالإنكليزية والفرنسية والروسية والعربية وغيرها لم تكن كل منها إلا إحدى اللهجات التي انفصلت عن اللغة الأم، وأنها كانت في وقت من الأوقات تعتبر صورة مشوهة غير محترمة من تلك اللغة الأم.

ثم تواجهنا في المدارس أيضا اللهجات المحلية الأضيق نطاقا مما سبق والتي نلاحظها بين مواطني القطر الواحد ممن يسكنون البادية أو الريف أو المدينة الصغيرة أو الكبيرة، بل وتلك اللهجات المحلية جدا التي تميز مدينة عن مدينة أو قرية عن قرية بل وجزءا من مدينة واحدة عن جزء آخر منها. بالإضافة الأول تلك اللهجات التي تميز الطفل القادم من أسرة غير مثقفة وذلك القادم من أسرة أخرى يتمتع أفرادها بمستوى ثقافي رفيع.

أن الموقف من جميع هذه الاختلافات في اللهجات واحد من وجهة النظر اللغوية المحضة. فكلها أشكال معترف بها وليس لأي منها ميزة أو فضل على الأخرى، وكل منها تستحق الدراسة كمظهر من عدة مظاهر للغة الواحدة. ولكن وجهة النظر اللغوية هذه لا تساعد المدرس في تعليم شكل موحد من اللغة للجميع، كما لا تساعد السلطات الحكومية على اتخاذ أسلوب للمحافظة على وحدة عناصر الأمة المختلفة، تلك الوحدة التي تعتبر اللغة الواحدة أهم مقوماتها على الإطلاق. ولذلك فالحاجة تدعو الأول قرار سياسي في كل دولة على حدة، وفي بعض الأحيان لمجموعة من الدول التي يستعمل مواطنوها لغة واحدة كما هو الحال بالنسبة للدول العربية، يحدد تلك اللغة الموحدة التي ينبغي تدريسها للأطفال في المدارس، بغية التقريب بين أبناء الأمة الواحدة والثقافة الواحدة والدين الواحد بالنسبة للغالبية العظمى. وليس مثل هذا القرار سهلا كما يتصور بعض الناس، بل هو في غاية الصعوبة في بعض الحالات. ولعل الأمة العربية اسعد حالا من غيرها بالنسبة لهذا الوضع، فقد حفظ لنا القرآن الكريم لغة كاملة ذات أسس مشتركة يعتمد عليها في الوقت الحاضر لنشر الوعي الموحد بالتراث

الواحد والمصير الواحد بالنسبة لأبناء الأمة العربية جميعا، ولا شك أن انتشار التعليم في البلدان العربية واتخاذ اللغة العربية الفصحى المبسطة في المراحل الأولى كلغة واحدة للتعليم في مدارس العالم العربي من أهم العوامل التي ستساعد على التقريب بين أبناء الأمة الواحدة التي رأينا كيف كادت اللهجات المختلفة لا أن تباعد بينها فحسب، بل أن تفصم عرى أية علاقات كانت ويجب أن تكون قائمة بينها. أن وعي مدرس اللغة بل ومدرس المواد الأخرى لهذه الحقيقة أمر هام للغاية، يظهر له أهمية المهمة الملقاة على عاتقه وينمي في جميع المدرسين الوعي بأهمية اشتراكهم، مهما كانت المواد التي يدرسونها، في تنمية هذا الاتجاه والمساهمة فيه مساهمة فعالة.

أن هذا الاتجاه في استخدام لغة موحدة، على الأقل للكلام الرسمي وللكتابة، اتجاه واضح في جميع المجتمعات والقرار المؤيد له قرار سياسي اجتماعي بالدرجة الأولى. وربما كان من أهم ما قدمه علم اللغة الحديث لمدرس اللغة القومية هو المساهمة في جعله واعيا لأمور كثيرة منها موقفه من اللهجات المختلفة الذي ذكرناه آنفا. ومن الدراسات التي يمكن أن يستفيد منها المدرس عند معالجته أمور اللغة الموحدة واللهجات المختلفة، تلك الدراسات المقارنة. التي تتوافر الآن في بلدان كثيرة بين تلك اللغة الموحدة التي ترغب الدولة في تعليمها لجميع أبنائها وبين اللهجات المختلفة، وذلك بقصد إبراز نقاط الاختلاف الرئيسية التي ينبغي على المدرس إيلاؤها عنايته الخاصة.

ومن ضمن الأمور الأخرى التي استفاد منها مدرس اللغة القومية هو اطلاعه على دراسات المدارس اللغوية الحديثة المختلفة ونتاج تلك الدراسات. وعلى الرغم من أن تعدد تلك المدارس خلال القرن الحالي أصاب البعض بشيء من الارتباك إلا أن ذلك كان له فائدة كبيرة. فقد بين هذا التعدد مثلا انه ليس هنالك طريق أو منهج واحد للبحث اللغوي كما كان الاعتقاد السائد في السابق، كما بينت نتائج هذه الدراسات أهمية اللغة المنطوقة أي لغة الحديث وكذلك الاختلافات بينها وبين اللغة المكتوبة، كما أظهرت أن بعض القواعد التقليدية لم تكن موجودة في اللغات فمعا بل ربما كانت من اختراع اللغويين القدامى في محاولة من هؤلاء لإخضاع بعض التراكيب التي بدت شاذة إلى قاعدة تنطبق على عدد كبير من الحالات الأخرى، كما

كان الحال في اللغة، الإنكليزية مثلا بالنسبة للإصرار على صحة التركيب التالي غير المستعمل:

He is older than I وتفضيله على الصيغة المستعملة فعلاً في الكلام وهي: He is older than me بحجة أن كلمة than حرف عطف وهي تعطف جملتين، فتكون الجملة الكاملة الاصلية هي: .He is older than I (am old) بدلا من اعتبار الكلمة حرف جر، وتحليل أو اعراب الجملة على هذا الاساس.

لقد أظهرت نتائج الدراسات اللغوية الحديثة لمدرس اللغة القومية أيضا أن القواعد التقليدية لم تكن شاملة لجميع جوانب اللغة، بل كانت تهتم ببعض الجوانب دون غيرها، لأنها كانت معيارية هدفها منع الوقوع في الخطأ، لا وصفية تصف جميع جوانب اللغة، فنتج عن ذلك إهمال لبعض الجوانب العامة من اللغة.

أن اطلاع مدرس اللغة القومية أيضا على أبحاث علم اللغة النفسي، وبخاصة المتعلق منها بطريقة اكتساب الطفل للغة، مفيد له وان كان لا ينعكس انعكاسا مباشرا على عمله، على اعتبار أن الطفل يكتسب اللغة قبل أن يذهب إلى المدرسة. ولكن الفائدة تظهر في تفهم المدرس للأسس التي بنى عليها بعض اللغويين الذين كلفوا بتجهيز مواد تعليمية، تلك المواد، وقدرته، نتيجة لذلك، على التعامل مع تلك المواد بطريقة افضل فهو يلاحظ مثلا أن بعض المواد التعليمية تتجنب حمل الطالب على استظهار قواعد اللغة، وتركز على تمثل تلك القواعد عن طريق الاستعمال والتطبيق فإذا فهم الأسس التي بني عليها المؤلفون منهجهم هذا، استطاع تقديم المادة وتدريسها بشكل سليم، وبوعي كامل.

ولا شك أيضا بان الدراسات الحديثة تساعد مدرس اللغة القومية في فهم اكبر لتلك اللغة، من حيث العلاقات النحوية بين المفردات وغيرها، فيزداد إدراكه للهيكل العام والتفصيلي لتركيب اللغة، ويكتسب بذلك مقدرة ومرونة اكبر في التعامل مع تلك اللغة من حيث تجنب الغموض، ومن حيث الأساليب المختلفة لقول المعنى الواحد الخ.. مما طلع به أنصار نظرية القواعد التحويلية وغيرهم.

ثم أن معرفة مدرس اللغة القومية بما يجري من الدراسات اللغوية الحديثة تؤثر تأثيرا مباشرا على تدريسه لأدب تلك اللغة من نثر وشعر

وخطابة وقصص وغيرها. صحيح أن النواحي الجمالية ليست لها علاقة مباشرة باللغة، أو على الأصح، ليست وسيلة فهمها والاستمتاع بها هي التحليل اللغوي فحسب، ولكن الأدب لغة، بل أن اللغة هي مادته ووسيلته المباشرة، فهو من هذه الناحية يخضع للتحليل اللغوي كغيره من أشكال التعبير اللغوي الأخرى. وقد أصبحت دراسة الأساليب الآن مبحثا مشتركا بين اللغويين ورجال الأدب معا.

وأخيرا هنالك تدريس التحليل اللغوي نفسه للطلاب أصحاب تلك اللغة القومية. فعلى الرغم من أن الطالب يستطيع التعبير عن نفسه بتلك اللغة بسهولة ويسر، دون أن يفكر كثيرا بالقواعد التي تحكم تراكيب تلك اللغة، إلا أن فهمه لتلك القواعد يساعده كثيرا على صحة لغته وعلى الارتقاء بمستوى تعبيره بتلك اللغة. وهذا التحليل أكثر ضرورة في الحالات التي تكون فيها الهوة عميقة بين لغة الحديث التي يستعملها الطفل في بيته وبين أقرانه وتلك اللغة الموحدة التي يتعلمها في المدرسة. وهذه الحالة تنطبق علينا في العالم العربي. ولا بد للمدرس الذي سيعلم طلابه هذا التحليل اللغوي أن يكون هو نفسه مطلعا على الأساليب الحديثة في الدراسات اللغوية.

ب- تعليم اللغات الأجنبية:

أما بالنسبة لتعليم اللغات الأجنبية فقد كان أثر الدراسات اللغوية الحديثة فيها كبيرا للغاية وبخاصة منذ أواسط القرن الحالي، وقد شمل ذلك الأثر الطرق والمواد التعليمية والوسائل المعينة كما شمل بالطبع الأسس اللغوية والنفسية التي بنيت عليها كل من تلك الطرق.

فحتى أوائل القرن كان الاهتمام مركزا على اللغة المكتوبة وذلك بتأثير دراسة اللغة اللاتينية، ولذلك فقد كانت المهارة اللغوية التي تركز عليها المدارس عند تعليم الطلاب لغة أجنبية هي مهارة القراءة، كما كان الحال ولا يزال بالنسبة لتعليم اللغة اللاتينية، على الرغم من أن اللغات الأجنبية الأخرى كانت لغات حية كاللغات الأوروبية الحديثة على سبيل المثال. وكانت طريقة التدريس تبعا لذلك تعتمد على تدريس قواعد اللغة الأجنبية ثم تدريب الطلاب على قراءة نصوص مكتوبة بتلك اللغة وترجمتها إلى اللغة القومية، وهذه الطريقة هي التي تسمى طريقة القواعد والترجمة (Grammar-

Translation Method). وفي أوائل القرن الحالي ظهرت حركتان: أولاهما لم تعش طويلا، وهي الحركة التي نتج عنها ما يسمى بالطريقة المباشرة (Direct Method) والتي افترض أصحابها خطأ أن الطالب يتعلم اللغة الأجنبية بنفس الطريقة التي يكتسب بها لغته القومية أي عن طريق التعرض لكمية ضخمة من الكلام المستمر دون نظام ودون تحديد أو تقييد أو تنظيم للمواد اللغوية التي ينبغي أن يتعرض لها.

أما الحركة الثانية التي ظهرت في الثلاثينات والتي استمرت مدة طويلة بل أنها لا زالت مستعملة في بعض بلدان العالم، فهي الحركة التي أولت عناية خاصة مفردات اللغة وبذلت جهودا كبيرة محمودة في تحديد اكثر الكلمات شيوعا في اللغة الإنكليزية بالذات، وأنتجت عددا من هذه التعدادات للمفردات أهمها ما ضمنه مايكل وست (Michael West) في كتاب مطبوع يشمل أكثر ألفي كلمة إنكليزية شيوعا[9]. وقد اتخذت هذه الإحصاءات أساسا لتأليف كتب تعليم اللغة الإنكليزية في العالم، وبخاصة نجد تلك البلدان التي كانت تابعة للإمبراطورية البريطانية. وكانت مهارة القراءة هي المهارة الرئيسية التي يدرب الطلاب على إتقانها، ومن لم تهمل المهارات الأخرى إهمالا تاما.

لقد بدأ الأثر الكبير لعلوم اللغة على تعليم اللغات الأجنبية منذ الحرب العالمية الثانية، وبخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي هذه الفترة كانت قد برزت اتجاهات معينة نجد الدراسات اللغوية في كل من أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، كما سنذكر في الفصول اللاحقة، أهمها الاهتمام بلغة الحديث والتركيز على تراكيب اللغة اكثر من مفرداتها،: قد تبلورت هذه الاتجاهات بظهور المدرسة الوصفية التشكيلية التي سيأتي الكلام عنها.

لقد أثرت هذه المدرسة بالذات في طرق تعليم اللغات الأجنبية تأثيرا كبيرا ليس لان منهجها والنظريات التي طلعت بها بدت ثورية في وقتها فحسب، بل لان السلطات العسكرية الأمريكية استعانت أيضا ببعض علماء اللغة أنفسهم لكي يجهزوا للدارسين من العسكريين المواد التعليمية ذاتها التي سيستعملونها ولكي يوصوا بالطرق والأساليب التفصيلية التي ينبغي استخدامها لتعليم تلك المواد بالوسائل التعليمية المعينة، السمعية منها

والبصرية التي يعتقد أولئك العلماء أنها تساعد على سرعة التعلم وكفاءته. وهكذا بدأت سابقة خطيرة في حقل التربية بأن يقوم أصحاب النظريات اللغوية أنفسهم بتطبيق تلك النظريات في الميدان التربوي، بدلا من أن يتركوا ذلك للتربويين من مخططين ومؤلفين للكتب وللمواد التعليمية ومدرسين في الفصول، الذين من الطبيعي أن يكونوا اقدر على ذلك نظرا للعوامل غير اللغوية الأخرى التي تدخل في صميم العملية التربوية والتي ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار عند محاولة تطبيق أية نظرية. لقد ظهرت آثار هذه السابقة على نطاق واسع جدا في الخمسينات والستينات من هذا القرن ولا تزال بادية لنا حتى الآن على الرغم من ردة الفعل التي تشهدها حاليا والتي تحاول أن تعيد للمربي مركزه الطبيعي في مجال التطبيق وتحفظ لعالم اللغة مكانه الطبيعي في عالم التنظير، على أن يستفيد ذلك مما يتوصل إليه هذا من نظريات وآراء ونتائج بحوث.

ومهما يكن من أمر، فليس من الممكن إعادة عقارب الساعة إلى الوراء، وما حدث كانت له بعض الفوائد كما كانت له بعض المضار. فلننظر ماذا فعل أصحاب المدرسة الوصفية التشكيلية في مجال تعليم اللغات الأجنبية.

لقد انطلقوا من بعض الأسس النظرية، أو على الأصح الافتراضات، التي اعتمدت عليها نظريتهم اللغوية برمتها. وهذه الأسس هي:

أولا: أن المظهر الصوتي للغة، أي الكلام المنطوق هو المظهر الأساسي والأولي.

ثانيا: أن اللغة ليست إلا مجموعة من العادات المكتسبة مثلها في ذلك مثل مظاهر السلوك الأخرى (هنا يلاحظ أثر المدرسة السلوكية في علم النفس بشكل واضح).

ثالثا: أن اللغة هي لغة الحياة اليومية التي يستعملها الناس فعلا لا تلك اللغة التي يوصى بعض النحويين باستعمالها على أنها اللغة الصحيحة (وهنا نلاحظ الاتجاه إلى المنهج الوصفي، والابتعاد عن المنهج المعياري في البحث اللغوي).

رابعا: اللغات ليست واحدة، بل تختلف بعضها عن بعض كثيرا أو قليلا، وهذه الاختلافات مهمة من الناحية التعليمية.

خامسا: ليست هنالك لغات بدائية، بل أن كل لغة من لغات الأرض

مركبة لكل معقد جدا، وفيها من الأنظمة الداخلية ما يجعلها قادرة على تلبية جميع حاجات الناس الذين يستعملونها.

لقد ترجمت هذه الأسس والافتراضات إلى خطة عمل على الشكل التالي:

- ما دامت اللغة في الأساس هي لغة الكلام المنطوقة لذلك فان عن الضروري جدا إبلاء هذا الجانب من اللغة اكبر قدر من الاهتمام عند تدريسها. وهذا ما حصل فعلا، بل لقد بولغ في هذا الاهتمام حتى أن اللغة المكتوبة أصابها الكثير من الإهمال وأصبحت مهارة القراءة تعتبر مهارة ثانوية لا تحتاج إلى طرق وأساليب خاصة لتنميتها، بل تأتي نتيجة طبيعية لإتقان المهارتين الشفويتين: الاستماع والكلام. وليس أدل على ذلك الاهتمام المبالغ فيه بالمظهر الشفوي للغة، من أن طريقة تدريس اللغات الأجنبية التي طلع بها أصحاب هذه المدرسة سميت بالطريقة السمعية الشفوية (Audio-Lingual Approach).

وبما أن جميع نواحي اللغة المنطوقة تقريبا تظهر في لغة الحديث أو الحوار، لذلك فقد أصبح الحوار (dialogue) أحد المواد الأساسية المستعملة في تعليم وتعلم اللغات الأجنبية، بالإضافة إلى تلك التمارين الخاصة بإظهار الفروق بين الأصوات المفردة المختلفة والتدريب عليها.

من الناحية الإيجابية ساعد هذا التركيز على لغة الكلام ولغة الحوار بشكل خاص على زيادة الاهتمام بتلك الظواهر الصوتية التي لا يمكن للغة المكتوبة أن تعبر عنها، كالنبر والتنغيم (Stress and intonation) التي لها اثر كبير في تغير معاني الكلمات ومجموعات الكلمات من جمل وخلافها. كما ساعد هذا الاتجاه أيضا على الاهتمام بالتراكيب اللغوية الأكثر شيوعا في لغة الحديث منها في لغة الكتابة، وهي في العادة التراكيب الأقل تعقيدا، بالإضافة إلى التمرس باستعمال المفردات ذات العلاقة المباشرة بالحياة اليومية حتى ولو كانت كلمات عامية في لغة معينة.

ونظرا إلى أن تدريس المظهر الشفوي من لغة أجنبية معينة عملية شاقة جدا على المدرس، فقد هب أصحاب التكنولوجيا لمساعدته في هذا المجال باختراع وتطوير أجهزة التسجيل والبث المختلفة التي ترفع جزءا من العبء عن المدرس، وتعين المدرس الوطني الذي ليست اللغة الأجنبية التي يدرسها

لغته القومية وذلك باستعمال التسجيلات التي قام بها محترفون من أصحاب تلك اللغة. وأصحاب المصانع بمساعدتهم للمدرس يساعدون أنفسهم طبعا بأن يجنوا الربح الوفير من ذلك كله.

- بالإضافة إلى هذا الاهتمام باللغة المنطوقة، وبوجه خاص بتلك اللغة التي يستعملها عامة الناس في حديثهم، دون التفات لما يقرره النحويون التقليديون من اوجه الصحة والخطأ اعتمادا على نماذج اللغة المكتوبة، فان إيمان أصحاب هذه المدرسة بأن السلوك اللغوي شبيه ببقية أوجه السلوك الأخرى، من أنه مجموعة من العادات، جعلهم يطبقون نظريتهم في التعلم على اكتساب اللغة فكانت اللغة في نظرهم، تكتسب عن طريق المؤثر والاستجابة والثواب ولذلك فقد أخذوا يفتتون اللغة إلى أصغر أجزائها ويضعون تلك الأجزاء في نماذج متشابهة بقصد تدريب الدارسين على إتقان كل جزء على حدة إلى أن يتدرب عليها جميعا وبذلك يكون قد امتلك زمام اللغة بأكملها.

وهذه النظرية تعتمد في جزء منها على تحاشي الخطأ إذا كنا ننشد اكتساب الدارس لعادات معينة. كما تعتمد على التكرار والترديد وعلى المحاولة والخطأ وغير ذلك من الخطوات التفصيلية الخاصة بنظرية التعلم المذكورة. وسنذكر في الفصل الخامس. كيف قسموا اللغة إلى نماذج من الجمل متشابهة في ظاهرها هي التي قالوا بأهمية تدريب الدارس على استعمالها لدرجة الإتقان التام، بالإضافة إلى تقسيم الأصوات إلى وحداتها الصغرى واستعمال ظاهرة المقارنة أو المقابلة (contrast) لإظهار الفروق بينها.

وبما انهم كانوا أيضا ينظرون إلى الشكل الخارجي الظاهر من اللغات فقط فقد لاحظوا الفروق بينها أكثر من ملاحظتهم لأوجه الشبه. وبما أن الطفل الذي يتعلم لغة أجنبية يكون في العادة قد اكتسب لغته القومية، بشكلها المنطوق على الأقل، قبل ذلك، إذا فقد تكونت لديه بعض العادات اللغوية المتعلقة بالشكل أو الأشكال الخاصة بلغته القومية. فإذا كانت بعض هذه الأشكال تختلف عن اللغة الأجنبية فلابد أن العادات المبنية عليها والمكتسبة سابقا ستتدخل في عملية تعلم اللغة الأجنبية وتعمل على تعطيلها أو تأخيرها. إذا فلابد من إجراء الدراسة المقارنة الشاملة بين اللغة القومية

واللغة الإتقان لاكتشاف أوجه الاختلاف بينهما بشكل خاص بغية التركيز على هذه الأوجه عند تعليم اللغة الإتقان-ونتيجة لذلك فقد أجرى بالفعل عدد من هذه الدراسات وجهزت المواد التعليمية بناء على نتائجها.

لقد انتشرت طريقة التدريس السمعية الشفوية هذه في معظم أنحاء العالم، بما في ذلك العالم العربي-وقد رافقها من أساليب الدعاية الشيء الكثير خاصة وان تدريس اللغات الإتقان بهذه الطريقة كان عملا شاقا للغاية وبخاصة على المدرس المحلي، مما جعل رجال الصناعة يهبون للاستفادة من هذا الوضع ويستغلونه الأقل أقصى الدرجات. فبالإضافة الأقل جهاز التسجيل الفردي رخيص الثمن نسبيا قام هؤلاء بإنتاج المختبرات اللغوية (Language Laboratories) التي أوحوا للناس أنها هي الطريقة وهي البلسم وهي الجواب النهائي على مشكلة تعليم اللغات ت الإتقان، مع أنها ليست في الواقع أكثر من وسيلة معينة، جيدة أجراء أحسن استعمالها، وسيئة أجراء أسيء استخدامها. كما قاموا بإنتاج الكتب المبرمجة وآلات التعليم (Teaching Machines) التي انتشرت لبعض الوقت في الولايات المتحدة الأمريكية بالذات ولكنها لم تلق نفس الرواج الذي لاقته المختبرات اللغوية داخل الولايات المتحدة وخارجها.

لقد أطلنا بعض الشيء في بيان أثر هذه المدرسة اللغوية في تعليم اللغات الإتقان بالذات، لأنه كان أكبر أثر من نوعه في التاريخ، ولأننا تعلمنا منه الشيء الكثير.

لقد تبين الآن بشكل واضح أن معظم ما اعتبره أصحاب هذه المدرسة اللغوية أساسا لنظريتهم، ليس إلا افتراضات مبنية على مبادئ في علم النفس لا تستطيع أن تفسر ظاهرة السلوك اللغوي بأكمله، حتى أجراء افترضنا أنها قادرة على تفسير ظواهر السلوك الإنساني الأخرى. لقد اتضح الآن أن منهج هذه المدرسة في الدراسة اللغوية ليس شاملا ولا عميقا بشكل يتمشى مع تعقيد اللغة البشرية، وان هذه اللغة ليست مجموعة من العادات، كما كانوا يعتقدون، بل هي جهاز محكوم بقواعد معينة ينبغي اكتشافها، وان العلاقات بين أجزاء الجملة الواحدة أعمق بكثير من تلك العلاقات الظاهرة على السطح الأقل آخر ما جاء به تشومسكي وأنصاره والذي سنذكره بشيء من التفصيل في الفصل الخامس.

لقد زعزعت القواعد التحويلية الثقة بنظرية المدرسة السابقة لها، وبكل ما بنى عليها وبخاصة فيما يتعلق بطرق تدريس اللغات الإتقان. كما دلت تجربة الطريقة السمعية الشفوية لمدة عقدين أن ثلاثة في أنحاء مختلفة من العالم، بأن فيها عيبا أن عيوبا رئيسية ينبغي تلافيها، رغم كل ما فيها من حسنات ومزايا، إلا أن أصحاب القواعد التحويلية، ومنهم رائدهم تشومسكي نفسه، كانوا يشكون في مدى فائدة نظريتهم في قواعد اللغة من الناحية التطبيقية إذا أريد استخدامها كأساس لطريقة جديدة في تعليم اللغات الأجنبية. ولذلك لم تتبلور أية طريقة جديدة بشكل كاف حتى الآن.

إلا أن آخر اتجاه في الدراسات اللغوية وهو الذي يؤكد على اللغة كوسيلة للاتصال، يحاول أنصاره كما يحاول التربويون الاستفادة منه للطلوع بطريقة جديدة تستفيد من حسنات الطرق السابقة جميعا، وتضيف إليها ذلك البعد الاجتماعي الذي كان مهملا حتى الآن. فقد كان الاهتمام في تعليم اللغات الأجنبية-بل وأحيانا كثيرة في تعليم اللغات القومية-منصبا على الصحة اللغوية (accuracy) أي على إتقان الشكل اللغوي لوظيفة الاتصال أو بعبارة أخرى على الكلام والكتابة بدون أخطاء لغوية، وهذا هدف جيد لا غبار عليه. ولكننا نعلم تماما أن بإمكان الإنسان أن يستعمل جملة سليمة تماما من الناحية اللغوية، ومع ذلك فهي لا تخدم الوظيفة المقصودة منها أو أنها تسيء إلى السامع وتخلق جوا من النفور أو تسبب سوء التفاهم أو على الأقل لا تخلق الاستجابة المرجوة. كأن يقول تلميذ لمدرّسه:

أقفل الباب، الهواء بارد

مستعملا صيغة الأمر الجافة في مقام يستوجب استعمال نوع من الطلب المهذب أو الرجاء. فالجمل المستعملة صحيحة من الناحية اللغوية ولكنها غير مناسبة من الناحية الاجتماعية.

أن الاتجاه قوي الآن لمحاولة بلورة طريقة وتجهيز مواد تعليمية تخدم الهدف الشامل من اللغة وهو الاتصال بجميع أبعاده، وتحاول تنمية قدرة الدارس على الاتصال (communicative competence) بدلا من تنمية قدرته اللغوية فقد (linguistic competence) وهو هدف نبيل يستحق الجهد الذي يبذل للوصول إليه. إلا أن العقبات التي تعترض سبيله عقبات ضخمة ولن

يكون التغلب عليها سهلا بأي حال من الأحوال.

وأولى هذه العقبات هي المدرس المحلي. فالمقدرة على الاتصال بالمعنى المذكور لا تتوفر إلا لأهل اللغة أنفسهم أو لمن عاش معظم حياته بينهم، بينما معظم المدرسين المحليين ليسوا من هذا النوع. والإضافة إلى أن هذه الطريقة المقترحة تعتمد على استعمال اللغة في المجتمع استعمالا وظيفيا، فلكل مجتمع لغته القومية التي تستعمل لقضاء الحاجات الجامعية اليومية جميعها، ولهذه الأسباب، فان من المتوقع إلى ينجح استخدام هذه الطريقة في المراحل العليا بمد أن يكون الطالب قد اكتسب الكثير من القدرة اللغوية، لكي يستطيع استعمالها استعمالا وظيفيا. وهذا ما هو حاصل بالفعل في الفصول الدراسية الأولى في الجامعات إليه الكليات التي يضطر الطالب لدراسة المواد فيها باللغة الأجنبية. ومع ذلك فهنالك بعض التجارب التي تجري على استخدام هذه الطريقة في أول مراحل تعليم اللغات الأجنبية، وسيمر بعض الوقت قبل إلى تظهر نتائجها.

5- فوائد أخرى:

وعلاوة على ما سبق فقد تبين أن للدراسات اللغوية المتنوعة فوائد أخرى نذكر بعضها بإيجاز شديد في الصفحات التالية.

أ- اللغات القومية واللغة العالمية:

بانتشار وسائل الانتقال الحديثة السريعة جدا في القرن الحالي بالنسبة للقرون السابقة، أصبح العالم صغيرا للغاية يؤثر ما يحدث في جزء منه على أجزائه الأخرى، كما أصبحت الحروب حروبا عالمية يشترك فيها إليه يتلظى بلهيبها عدد كبير من الأمم في آن واحد، وأصبحت الهيئات العالمية، كعصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى وهيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن منذ الحرب العالمية الثانية، تحاول إلى تجعل من استعمال اللغة في حوار هادئ وسيلة للحفاظ على السلام العالمي. ولذلك فقد ظهرت أهمية استخدام عدد محدود من اللغات ذات الأهمية السياسية الكبيرة كالإنكليزية والفرنسية والروسية والإسبانية والصينية وسيلة للتفاهم بين ممثلي مختلف بلدان العالم في تلك المحافل الدولية، وفي الهيئات المنبثقة عنها. كما دعت الحاجة إلى مثل ذلك أيضا أو إلى استعمال لغة واحدة طبيعية أو مصطنعة في

المؤتمرات العلمية التي تنعقد بالمئات في كل عام.

من الناحية الأخرى، أدى استقلال عدد كبير من بلدان العالم، خاصة في أفريقيا وآسيا خلال القرن الحالي وشعور كل من تلك البلدان بوحدته القومية إلى ضرورة اعتماد لغة قومية واحدة يستخدمها جميع سكان ذلك البلد في التفاهم بعضهم مع بعض بغض النظر عن اللغة التي كانت كل فئة تستعملها من قبل. ولم يكن هذا الأمر سهلا في كثير من الحالات التي تكونت فيها بلدان مستقلة بحدود مصطنعة تعود إلى أيام الاستعمار الأوروبي لها، حيت كان يسكن عدد من القبائل المختلفة في الأصل واللغة والتراث.

رغم تناقض هذين الاتجاهين إلى حد ما، فقد نال كل منهما حظه من النجاح. فظهر عدد من اللغات القومية في البلدان حديثة الاستقلال، كما ظهرت منذ أواخر القرن الماضي أنواع من اللغات العالمية التي كان الهدف منها أن تكون لغة ثانية يتعلمها جميع سكان العالم الذين يحتاجون للاتصال مع أناس آخرين يتكلمون لغة قومية مختلفة. وقد تأخر التفكير في اختراع لغة عالمية حتى ذلك الوقت لان الحاجة لم تكن تدعو لذلك في الماضي، فقد سيطرت اللغة اللاتينية على أوروبا حتى أيام النهضة الأوروبية الحديثة وكانت تعتبر لغة عالمية بالنسبة لأوروبا، كما سيطرت اللغة العربية على عدد كبير من بلدان آسيا وشمال أفريقيا وأجزاء من أوروبا واعتبرت لغة عالمية أيضا لعدة قرون من الزمن. وفي عصرنا الحاضر سيطرت اللغة الفرنسية لمدة من الزمن كلغة السياسة والدبلوماسية كما تستعمل اللغة الإنكليزية حاليا كلغة عالمية للتجارة وبعض النواحي العلمية والعملية أيضا.

أما بالنسبة للغات العالمية المصطنعة فقد كانت اشهرها الاسبرانتو Esperanto التي طلع بها عام 1887 العالم الروسي الدكتور لازاروس زامنهوف (Dr. Lazarus Zamenhof) الذي كان يكتب تحت الاسم المستعار الدكتور اسبرانتو، والتي لاقت رواجا كبيرا، أما بشكلها الأصلي أو بأشكالها المعدلة، حتى الخمسينات والستينات من القرن الحالي في عدد كبير من بلدان أوروبا وأمريكا وبقية بلدان العالم وخصصت لها المجلات وبرامج الإذاعة كما درست في عدد من المدارس والجامعات. وقد استعملت في المؤتمرات الدولية والندوات العلمية كما استعملت كمقدمة لدراسة اللغات الأخرى.

والاسبرانتو ليست لغة طبيعية ولكنها في نفس الوقت ليست لغة صناعية

بالمعنى الدقيق، لأنها مبنية على أسس مختارة من اللغات الأوروبية. وهي لغة صوتية بمعنى أن لكل حرف من حروف أبجديتها صوتا واحدا فقط، كما أن لها قواعد نحوية قليلة جدا، يزيد عددها عن ست عشرة قاعدة، وبضع قواعد لاشتقاق الكلمات من بعضها. وجميع هذه منتظمة جدا، تنطبق على جميع الحالات ذات العلاقة بدون أي من تلك الشواذ التي تعج بها اللغات الطبيعية. وعلى الرغم من أن بعض اللواصق في بداية الكلمة أو نهايتها (prefixes & suffixes) مصطنعة، كتلك التي تدل على حالة الفعل بالنسبة للزمن وهي:

اللغة الإنكليزية	اسبرانتو
helpas	helps
helped	Helpis
will help	Helpos
would help	Helpus

بمعنى أنها لا تستعمل بشكلها الحالي للدلالة على هذه الحالات في أية لغة، أنها طبيعية من حيث تنظيم أصواتها وليست غريبة على اللغات الأوروبية، التي بنيت الاسبرانتو عليها. وقد حاول مخترع هذه اللغة وأولئك الذين عدلوها من بعده، ومخترعو اللغات الأخرى المشابهة، أن يجعلوا أمر اكتساب هذه اللغة سهلا للغاية، وذلك بجعل كل شيء فيها منتظما جدا، يسير على قاعدة واضحة وبتقليص عدد المفردات التي يحتاجها الفرد بشكل رئيسي ومساعدته على صياغة أعداد أكبر من المفردات عن طريق الاشتقاق المنتظم.

ومع كل هذه التسهيلات بالنسبة لهذه اللغات المصطنعة فأنها، بعد شيوع واسع لبضع سنوات، بدأ نجمها بالأفول، ولم تستطع أن تصمد وتنتشر ذلك الانتشار الذي كان متوقعا لها، لعوامل كثيرة منها عدم تشجيع كثير من الحكومات لرعاياها على تعلمها لأسباب سياسية، ومنها أن لغة أي قوم هي الوسيلة الأساسية للتعبير عن الفكر والحضارة المميزين لأولئك القوم، بينما الاسبرانتو ومثيلاتها، تعبر عن حضارات مميزة، بل ربما كان أقصى ما تستطيع التعبير عنه هو الحضارة العالمية المشتركة بين جميع الشعوب.

من جهة أخرى، فانه ليس من السهل على لغة من هذا النوع أن تدوم

طويلا وتنتقل من جيل إلى جيل دون أن يطرأ عليها من التغيير ما يطرأ على اللغات الطبيعية بعد أن يتعلمها جيل جديد عن جيل سابق مع تغيير طفيف في كل مرة، مما يستدعي إعادة النظر في هذه اللغة كل فترة من الزمن.

ومن جهة ثالثة فان لغات بعض الدول العظمى كالإنكليزية والروسية والصينية تكتسب رواجا واسعا في البلدان ذات العلاقة المباشرة مع كل دولة، ثم على نطاق عالمي، وفي الندوات والمؤتمرات العالمية، لما لتلك الدول من أهمية وأثر في تلك الهيئات، ولذلك فان اللغات المصطنعة تلقى منافسة حادة قوية من جانب هذه اللغات الطبيعية.

وأخيرا، إذا كان أصحاب فكرة للغة العالمية الواحدة يأملون بأن اللغة الواحدة المشتركة تستطيع أن تقوى من أواصر الصداقة ن الأمم، وتقلص من فرص الحروب والمشاحنات والخلافات، وتزيد من فرص السلام، فهم واهمون، لان اللغة الواحدة لم تكن في يوم من الأيام العامل الوحيد لمنع الحروب والنزاعات.

أما علاقة علم اللغة باللغات العالمية أو القومية فهي علاقة في غاية القوة، فلولا تلك الأسس التي تتوصل إليها النظريات الحديثة، لما أمكن التفكير لا في لغة واحدة تصلح لغة قومية لمجتمعات تتكلم لغات أو لهجات مختلفة، ولا في صياغة لغة عالمية تتمتع بأهم تلك الخصائص التي تتمتع بها اللغات الطبيعية.

ب- الترجمة والترجمة الآلية:

لقد أدت نفس العوامل التي ذكرناها في الجزء السابق إلى مزيد من الاهتمام بالترجمة كوسيلة للتفاهم بين الأمم، كما أدى تفجر المعرفة في السنوات القليلة الماضية في القرن الحالي إلى محاولة ابتكار وسيلة سريعة للترجمة باستعمال الآلة فظهرت ما تسمى بالترجمة الآلية (machine translation) أي الترجمة بواسطة الآلة، وهي ما سنتحدث عنه أولا.

أن وقتنا الحاضر يعد بحق عصر المعلومات، فلم يسبق أن واجهنا في أية فترة من تاريخ البشرية هذا السيل العارم من المعلومات التي لم تعد تقتصر على مكان واحد، أو لغة واحدة، كما لم تعد تقتصر على مبحث معين أو عدد محدود من المباحث، بل لقد شملت جميع المباحث العلمية

والإنسانية على السواء كما أنها تظهر بجميع لغات العالم الرئيسية. وفيما عدا ما يعتبر من الأسرار القومية أو العسكرية فان معظم هذه المعلومات تظهر على شكل كتب ودوريات ومجلات وصحف مختلفة، واصبح من الضروري لتلك الأمة التي يهمها أن تكون في الصدارة بين الأمم، أن تكون على اطلاع مستمر على أحدث تلك المعلومات. وما يجرى حتى الآن للوصول إلى هذا الهدف هو أن يقوم المترجمون المختصون كل في مجاله بالعمل المستمر في ترجمة أهم الكتب والمقالات من اللغات الأجنبية إلى اللغة القومية. ولكنه أصبح من الواضح الآن أن هذا لا يفي بالغرض نظرا للأعداد الهائلة من الكتب والدوريات التي تظهر بلغات مختلفة كل عام، وقلة عدد المترجمين الأكفاء وصعوبة أعدادهم الأعداد الجيد. ولذلك فقد اتجهت جهود العلماء إلى اختراع وسيلة لتخزين المعلومات في أضيق حيز ممكن، واستعملوا لذلك الحاسب الآلي (الكمبيوتر) كما استنبطوا وسيلة للترجمة الآلية واستخدموا لتلك الحاسب الآلي أيضا، وقد اعتمدوا للوصول الآن الوسيلتين على ما زودهم به علماء اللغة المحدثون من التحليل اللغوي-وهو ما سنعمل على إعطاء فكرة سريعة عنه فيما بقي من هذا الكتاب-كما استفادوا طبعا من نظرية المعلومات، التي آثرنا إليها إثارة سريعة في صفحات قريبة سابقة.

والوسيلتان المذكورتان ناجحتان، إلا أن النجاح الذي صادفته عملية تخزين المعلومات أكبر بكثير مما لاقته عملية الترجمة. فعلى الرغم من أن الترجمة الآلية تستخدم الأكفاء على نطاق واسع في ترجمة الأبحاث العلمية على وجه الخصوص، إلا أننا نواجه صعوبات كبيرة عندما تتعرض الآلة لترجمة النصوص الأخرى المتعلقة بمباحث العلوم الإنسانية، كما تشعر الآلة بعجزها التام عن ترجمة أية نصوص أدبية ناهيك عن النصوص الدينية. وكثيرا ما تروى النكات عما يحصل عندما تحاول الآلة القيام بعملها في المجالات الأخيرة. ومن هذه النكات أن المثل الإنكليزي المعروف The spirit is willing but the flesh is weak القريب في المعنى من بيت الشعر العربي:

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجساد قد أعطى للآلة لترجمته الآن اللغة الروسية، ثم أعطيت الترجمة الروسية للآلة مرة ثانية

لإعادتها الآن اللغة الإنكليزية، فكانت النتيجة ما يلي:

The vodka is good but the meat is poor

وشتان ما ين المعنيين. فما هو يا ترى سبب عجز الآلة، عن القيام بجميع أنواع الترجمة؟

ستصبح الإجابة عن هذا السؤال واضحة للقارئ الذي سيدرك مدى تعقيد اللغة مما سيقرأه في الصفحات القادمة من هذا الكتاب. بالإضافة الآن أن علماء اللغة لم يأتوا حتى الأكفاء بنظرية تستطيع أن تفسر جميع الظواهر اللغوية تفسيرا كاملا وتضع للغة القواعد الكاملة، سواء تلك القواعد التي تتعلق بالتراكيب الصرفية والنحوية، أو تلك التي تتعلق بالمفردات وبنظام المعاني (أو الدلالة). ومن المحتمل أنه حتى لو حصل ذلك فلن يكون ذا فائدة كبيرة لجهاز الترجمة، بسبب مدى تعقيد تلك القواعد وعدم إمكانية تطبيقها دون خطأ من غير وجود الإنسان. ولنعط مثلا على نوع القواعد أو القوانين التي لا يحصل أي التباس في تطبيقها رغم تعقيدها الشديد. فإذا كنت موسيقيا وألفت قطعة موسيقية مستخدما «النوتة» ورموزها المتعارف عليها، فان أي إنسان آخر يعرف تلك الرموز والقواعد التي تحكم ربط بعضها ببعض، لا يجد أية صعوبة في قراءتها وفهمها. وهذا ينطبق أيضا على اللغة الرمزية المستعملة في الرياضيات فهي لغة عالمية يفهمها الجميع. فاللغة المستخدمة في هاتين الحالتين لغة وضعية لا طبيعية كاللغة البشرية وهي موضوعة بحيث أن كل رمز فيها يدل على شيء واحد لا يتعداه، كما أن قواعد استخدام وربط تلك الرموز قواعد صارمة وشاملة فلا مجال للبس في استخدامها. وهذا غير متوافر في لغات البشر الطبيعية، لا فيما يتعلق برموزها التي هي المفردات الموجودة في المعاجم ولا من حيث القواعد التي تربط بين هذه المفردات لتجعل منها مجموعات من أشباه الجمل والجمل البسيطة أو المركبة التي تحمل المعاني المطلوبة. ولذلك فان عمل الكمبيوتر في الترجمة يتوقف الآن حد كبير على مقدرتنا على تزويده بالمعجمين الكاملين للغتين معينتين وكذلك بمجموعتين كاملتين من قواعد تلك اللغتين، والأمران عسيران جدا، كما أن ثانيهما يتطلب أن يتوصل علماء اللغة إلى نظرية لغوية كاملة شاملة، يمكن الاعتماد عليها لتفسير جميع جوانب اللغة.

أما بالنسبة للمفردات فان إحدى المشاكل الرئيسية المتعلقة بها هي تعدد المعاني أو الدلالات بالنسبة لكثير منها الأسباب تاريخية واجتماعية لا داعي للخوض فيها هنا)، بالإضافة إلى كثرة المترادفات في معظم اللغات. أما الحالة الأولى، فأمثلتها باللغة العربية ليست كثيرة، ونعطى عليها مثلا: كلمة الخال التي نجد لها المعاني التالية، بعضها في الأدب والبعض الآخر مما لا زال مستخدما حتى الآن:

الخال = اللواء في الجيش
الخيلاء
الإنسان الضعيف
السحاب
نوع من البرود (أي الثياب)
الشامة في الجسم
أخو الأم

أو كلمة أمة التي وردت في القرآن الكريم بثلاثة معان هي:
الجماعة من الناس-في عدة آيات.
الحين-في الآية: واذكر بعد أمة.
الدين-في الآية: إنا وجدنا آباءنا على أمة.

وهذه الظاهرة متوفرة في بعض اللغات كاللغة الإنكليزية مثلا أكثر من توافرها في لغات أخرى.

أن المعنى المقصود لكلمة متعددة المعاني لا تستطيع الآلة أن تتوصل إليه لتنقله إلى لغة أخرى لان ذلك يتوقف على السياق اللغوي الذي ترد فيه، ولذلك فالأمر يحتاج إلى عقل بشري وتكاد تتعذر برمجته في حاسب آلي.

أما الترادف فمشكلته من نوع آخر، وهي مشكلة تصعب على الإنسان المترجم، لا على آلة الترجمة فحسب. فاللغويون الغربيون لا يعتقدون بوجود الترادف الكامل، بمعنى أنه لكي نعتبر أن مترادفتين ترادفا تاما، يجب أن نتمكن من مبادلة إحداهما بالأخرى في جميع السياقات اللغوية. وقد تبين لهم بالدراسة التفصيلية بأن هذا غير ممكن. بينما يبدو أن اللغويين العرب يختلفون في هذا، فبعضهم يعتقد بوجود اختلاف في المعنى بين الكلمات المترادفة بينما يقول آخرون بعكس ذلك، ويؤيدهم في ذلك إبراهيم أنيس

من المحدثين فهو يقول: «أما الترادف فقد وقع بكثرة في ألفاظ القرآن رغم محاولة بعض المفسرين أن يلتمسوا فروقا خيالية لا وجود لها إلا في أذهانهم للتفرقة بين تلك الألفاظ القرآنية المترادفة»(15) ومهما يكن من أمر فان اختيار الكلمة المناسبة للسياق اللغوي أمر يصعب على المترجم، إنسانا كان أم آلة، وذلك في اللغة الواحدة، فما بالك بنقل ذلك إلى لغة أخرى؟

علاوة على ذلك فان ارتباط مفردات اللغة بحضارة الأمة التي تتكلم تلك اللغة أي بطريقة حياة المجتمع يجعل من تلك المفردات أشياء تكاد تكون عضوية تلتصق بأفراد ذلك المجتمع التصاقا شديدا بحيث يشعر تجاه كل منها شعورا خاصا يشبه ما نشعر به تجاه أفراد المجتمع الآخرين، وبعض هذا الشعور عاطفي، وبعضه الآخر ديني، وبعضه خلقي الخ.

وارتباط المفردات بمجتمع معين بهذا الشكل يجعل تلك المفردات أشياء شديدة الالتصاق بتلك اللغة، تحمل عادات ذلك المجتمع ومشاعره وأنماط سلوكه وأخلاقه ومثله من ناحية، كما يجعل منها أشياء شخصية بالنسبة لأفراد المجتمع يشعر كل منهم تجاه بعضها بشعور يختلف عن الآخر. وهي لذلك صعبة النقل إلى لغة مجتمع آخر وبخاصة إذا كانت حضارة هذا المجتمع الآخر وطريقة حياته مختلفة اختلافا كبيرا عن حضارة المجتمع الأول وطرق حياته. وهذه الصعوبة أيضا ليست مقصورة على الآلة (التي يتعذر عليها حلها) بل تمتد لتشمل الإنسان الذي يقوم بالترجمة أيضا.

بالإضافة إلى هذا فان من الطبيعي أن تكون إحدى اللغات غنية جدا بمفردات تشير إلى أشياء أو ظواهر معينة هامة جدا لأفراد المجتمع الذي يتكلم تلك اللغة كالمفردات الكثيرة التي تشير إلى أنواع الثلج المختلفة في لغة الإسكيمو وتلك التي تشير إلى الجمل والسيف في اللغة العربية، وتلك التي تشير إلى المظاهر الصناعية والتقنية في لغة البلدان المتطورة صناعيا وهكذا، وليس من الضروري طبعا أن يكون لكل من هذه مرادف في كل لغة أخرى.

وربما كان من أصعب الأمور على الترجمة بوجه عام والترجمة الآلية بوجه خاص تلك المفردات التي تدل على الأشياء المجردة أو العواطف والمشاعر والمعتقدات المختلفة كالديمقراطية والحرية والاشتراكية والحكومة، والحب والأمل والغضب والقلق.. الخ. فان مفاهيم هذه الكلمات أو التفاعل

مع معانيها تختلف لا من مجتمع إلى آخر فحسب بل ومن فرد إلى آخر أيضا.

لا داعي لان نطيل هنا، فقد ذكرنا ما فيه الكفاية لإظهار بعض صعوبات الترجمة عموما والترجمة الآلية بوجه خاص في حقل المفردات ومعانيها، وذلك بالإضافة لما سنذكره في ذلك الجزء الخاص بعلم المعاني أو الدلالة في الفصل الخامس من هذا الكتاب.

فإذا انتقلنا إلى الصعوبات المتعلقة بقواعد اللغة الصرفية والنحوية وجدنا أنها ربما كانت العقبة الرئيسية في طريق تطوير الترجمة الآلية، إذ لا بد لكي تنجح هذه العملية أن تكون هنالك نظرية لغوية متكاملة تستطيع أن تفسر به كل كامل جميع التراكيب والمعاني في كل من اللغتين اللتين نرغب في الترجمة من إحداهما إلى الأخرى.

سنرى في فصول لاحقة كيف طلع علينا أصحاب المدرسة الوصفية التشكيلية بنظريتهم اللغوية التي تعتبر «الجملة» مجموعة من الكلمات المصفوفة واحدة تلو الأخرى بموجب نظام معين[11]، والتي تقول بأن العلاقات بين المفردات علاقات أفقية، أي أن هنالك طبقة واحدة للكلام يمكن تحليل الجمل وفهمها وتركيبا على أساسها. وقد بدأت أولى التجارب على الترجمة الآلية بالاعتماد على هذه النظرية، والتي ثبت فيما بعد أنها نظرية ساذجة لا تستطيع أن تتناول اللغة تناولا شاملا، ولذلك فقد أتت نتيجة تلك التجارب مخيبة للآمال.

إلا أن لدى علماء اللغة الآن نظريات لغوية أفضل كنظرية القواعد التحويلية التي تستطيع أن تعالج اللغات بشكل أفضل بكثير من النظرية السابقة والتي أخذ المهتمون بموضوع الترجمة الآلية يعتمدون عليها لتغذية الكمبيوتر بقواعد اللغة وبمفرداتها، وبخطة العمل التي يمكنه بموجبها تحليل اللغة الأولى إلى طبقاتها المختلفة ثم إلى عناصرها الأولية وتحديد العلاقات بين تلك العناصر ثم تحويلها بوساطة برنامج خاص إلى اللغة الأخرى، والنتائج التي تم الحصول عليها حتى الآن من مراكز البحث والتجربة المختلفة مشجعة جدا.

خلاصة القول أننا يجب إلا نأمل أن تقوم الآلة مقام الإنسان في عملية الترجمة، فهي لا تستطيع أن تفعل الكثير بالنسبة لبعض أشكال التعبير

اللغوي المرتبطة ارتباطا وثيقا بحضارة المجتمع كالأدب والدين، ولكنها تؤدي مهمة كبيرة فعلا في مجال ترجمة الموضوعات العلمية أو الإخبارية أو الموضوعية، وهذه مجالات واسعة وهامة للغاية. وعلى الرغم من أن نتائج الترجمات الآلية الحالية لا زالت تراجع على يدي الإنسان المتخصص، إلا أن الأمل كبير بأن يزيد مستوى الإتقان والكفاءة لدرجة تجعل من هذه العملية عملية مجدية حقا.

أما فائدة الدراسات اللغوية الحديثة في مجال الترجمة بوجه عام، فلن يتسع هذا الموضع لبيانها بالطريقة السليمة، ولكنها فائدة كبيرة بالفعل. فقد انعكست آثار الدراسات التي سنذكر بعضها في الفصل الخامس من هذا الكتاب بأنواعها المختلفة على عملية الترجمة، بحيث أصبحت الترجمة تعتبر علما بالإضافة إلى كونها فنا، بدلا من النظر إليها على أنها مهارة وتدرب وحس فني فحسب. وقد كان من أكثر المهتمين بتطبيق النظريات اللغوية الحديثة في مجال الترجمة تلك الجمعيات التي تخصصت بترجمة الكتاب المقدس من اللغات القديمة إلى اللغات الحديثة، وبخاصة إلى اللغة الأمريكية الحديثة. ومن أشهر العاملين مع هذه الجمعيات اللغوي الشهير يوجين نايدا (Eugene Nida) الاسم الذي شارك ويشارك في ترجمات الكتاب المقدس كما أنه قد ألف ثلاثة كتب في نظرية الترجمة بين فيها بالأمثلة التفصيلية العديدة كيف يجب أن نعالج المفردات ومعانيها من نواحيها المختلفة، مع الاهتمام بالخلفية الحضارية وبالنواحي الشعورية. كما بين كيف ينبغي أن نحلل الجمل التي نرغب في ترجمتها بالطريقة التي يوصى بها أصحاب مدرسة القواعد التحويلية إلى أن نصل إلى العلاقات المعنوية المباشرة القائمة بين العناصر الأولية التي تتألف منها الجملة ومن ثم نستطيع أن نعيد تركيبها بالشكل أن الأشكال المسموح بها في اللغة الأخرى، بحيث نحافظ على دقة المعنى من جهة، وعلى الخلفية الحضارية للغة، وعلى أسلوب الكلام الأصلي من جهة أخرى.[12]

كلمة أخيرة هنا. لقد عددنا بعض الفوائد التي نجنيها حاليا والتي أن نجنيها مستقبلا من الدراسات اللغوية المعاصرة ولكنا لم نحصرها جميعا، لان المجال لا يتسع لذلك كله. فهنالك فوائد تتعلق بدور علم اللغة في الدراسات الأدبية وفوائد تتعلق بصنع المعاجم، وأخرى تتعلق بتحسين النطق

أو الكلام وتقويم ما اعوج من اللفظ، كما أن هنالك ما يتعلق منها بالكلام المصطنع (artificial speech)، ومنها ما يتعلق بتحسين التفاهم بين البشر إجمالا، وبين أصحاب العمل والعمال في المصانع بوجه خاص. كما أن منها ما يتعلق بطرق الخطاب المختلفة وبأصول النقاش في المجموعات الصغيرة والكبيرة وغيرها كثير كثير، بعضها أصبح واضحا تماما، وبعضها الآخر مرتجى، وقد حال ضيق المقام هنا دون التعرض لها. ولكنا اكتفينا ببعض أمثلة على تلك الفوائد لئلا يقول أحدنا: وما فائدة هذه الدراسات؟

الهوامش

(1) Eric Lenneberg: “Biological Aspects of Language,” in, G. Miller (ed.): Psychology and Communication . Voice of America (, 1974, pp66-55.

(2) انظر الصفحة 174 وما يليها.

(3) أنظر الصفحة 174 وما يليها.

(4) Norman Geschwind, “The Brain and Language”, in G. Miller Op. cit. pp. 69 ff

(5) .63- 62. Lenneberg: op. cit. pp62-63.

(6) Brendan Maher: “Language and Psychopathology”, in G. Miller, op. cit. pp289-300.

وللمزيد من التفاصيل، راجع الكتاب التالي:, (B.Maher: Principles of Psychopathology,) McGraw-Hill

1966.

(7) نفس المصدر السابق ص 293.

(8) انظر تفصيلات أكثر عن نظرية الاتصال في المرجعين التاليين:

1- H.A.Gleason: An Introductionto descriptive Linguistics. Holt, Rinehart & Winson (1966, pp, 373-390.

(2) J. Lyons: Introduction to Theoretical Linguistics)(C.U.P) 1968, pp84-98

(9) M.West: General Service List (Longmans, several Impressions)

(10) إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ (مكتبة الانجلو المصرية) الطبعة الثانية 1963 ص 215.

(11) أنظر الفصل الخامس أدناه.

(12) See: Eugene Nida: The Theory and Practic of Translation?.1974, (Leiden: Brill

2 الاهتمامات اللغوية الحديثة

1 - أهمية اللغة:

ما أن يبرز الطفل الوليد إلى حيز الوجود ويرى النور لأول مرة حتى تنطلق منه الصرخة الأولى التي تدل على الحياة. ويأخذ هذا الصراخ بالتردد على فترات كلما احتاج ذلك الطفل إلى الرضاعة أو تضايق من ملابسه المبللة أو وخزه دبوس اللفافات التي تحيطه الأم بها. وما أن تمضي أسابيع قليلة حتى يشرع هذا الطفل بالمناغاة فيأخذ بإصدار أصوات متعددة مختلفة ليس من الضروري أن يكون قد سمعها ممن حوله وكأنه يقوم بتدريب أوتاره الصوتية على إصدار الأصوات المختلفة التي يختفي بعضها كلية حالما يبدأ بالكلام. وفي نفس الوقت يبدأ بالتعرف على أصوات أولئك الذين يحيطون به بصفة متصلة، وتدريجيا يستطيع أن يميز بين أصوات الأشخاص المختلفين وبين الأصوات المختلفة للشخص الواحد كالأم مثلا، فيفرق بين الصوت الرؤوف الحنون والصوت الغاضب الحاد النبرات، ويستجيب لكل منهما استجابة مختلفة.

وقبيل انقضاء العام الأول في معظم الحالات تنطلق من هذا الطفل أولى الكلمات، وفي خلال العام الثاني من عمره يبدأ بإصدار أصوات هي

عبارة عن مفردات (أو ربما جمل؟) للدلالة على أشياء أو رغبات متنوعة، وبعض هذه المفردات يكون قد سمعها عمن حوله والبعض الآخر ربما لم يسمعها من أحد. وما أن ينقضي العام الثاني من عمره حتى يصبح بإمكانه أن ينطق بجمل تتألف عادة من كلمتين في البداية ثم يزداد عددها، ويبدأ بتسمية الأشياء بمسمياتها. وبتركيب الكلمات فيما يبدو أنها جمل مفيدة. ويستمر ذلك خلال العام الثالث، فتزداد مفردات الطفل وتطول جمله وتصبح أقرب إلى اللغة التي يسمعها من حوله. وما أن يبلغ الرابعة من عمره حتى يصبح بإمكانه أن يركب ما يشاء من الجمل لقضاء حاجاته أو التعبير عن رغباته. وفي الطفل السوي يمكن أن نقول أنه يكون قد امتلك ناصية اللغة منذ سن الرابعة ولم يبق عليه إلا أن يزيد من مفرداته ويتدرب على صياغة جمل أكثر تعقيدا من الجمل البسيطة التي كانت تفي بحاجاته في السابق، ومن ثم يصبح فتى فراشدا يساهم في الحياة العامة كغيره من الراشدين، وتلازمه اللغة طوال حياته.

ولان اللغة تلازمنا منذ ولادتنا ولان كل إنسان على وجه الأرض يكتسب لغة قومه من غير عناء كثير ومنذ طفولته المبكرة حتى ليتصور وكأنه قد ولد وهي جزء منه أو كأنها تطور بيولوجي طبيعي أشبه بالنوم والأكل والمشي والتبول، ولان الإنسان يستخدم اللغة في حياته اليومية دون أعمال كثير للفكر، يستعملها بيسر وسهولة ويرى الناس من حوله يستخدمونها بيسر وسهولة مثله، فانه قلما يفكر فيها أو يلتفت إلى أهميتها من ناحية والى مقدار تعقيدها من ناحية أخرى.

إلا أن وقفة قصيرة ونظرة إلى الحياة التي نحياها، تبين بوضوح أننا، أكثر من أي وقت مضى، نعيش عصر الكلمة، منطوقة كانت أو مكتوبة، وأننا باختصار لا نستطيع أن نعيش في المجتمعات التي نعيش فيها في عصرنا الحاضر بدون استعمال اللغة. فنحن نستخدم اللغة في جميع أوجه حياتنا، نستخدمها للتعبير عن مشاعرنا واحساساتنا سواء سمعها غيرنا أم لم يسمعها، نستخدمها لنقضي بها حاجاتنا أو لنتوسل قضاء تلك الحاجات، نستخدمها لنقل الخبر أو الاستعلام عن أمر، نستخدمها للنفي ونستخدمها للزجر والنهي، نستخدمها في المراسم الاجتماعية والشعائر الدينية ونستخدمها لتقوم مقام الحدث أو الفعل، دمها للتشجيع أو لتثبيط الهمم

ونستخدمها مها للإقناع، نستخدمها للإعلان والدعاية والتأثير في الناس، ونستخدمها في الأغاني والترانيم والشعر والخطابة. نستخدمها في تنظيم علاقاتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ونستخدمها للتعبير عن تراثنا الشعبي بأشكاله المختلفة كما نستخدمها في محاولة إصلاح المجتمع أو إفساده. وفوق ذلك كله فنحن نستخدم الشكل المكتوب منها لتدوين ما نريد تدوينه من صكوك ومعاهدات ووثائق أخرى ولتدوين تراثنا من أدب وعلم وفن ودين وقوانين ووجوه كثيرة أخرى من وجوه المعرفة، فنحفظ هذه الوثائق وذلك التراث للأجيال المقبلة ويضيفون هم عليها كما أضفنا نحن إلى من سبقنا فتتكون من حصيلة ذلك الحضارات المحلية والحضارات العالمية.

لقد كان للكلمة أهميتها وأثرها في كل زمان ومكان منذ أن وجد الإنسان على هذه الأرض، وتبارى الأقدمون في ابتكار الطرق المختلفة لحفظ وصيانة أهم ما يريدون الاحتفاظ به لهم أو للأجيال المقبلة أو للعالم الآخر. فاخترعوا الكتابة ثم أدواتها وموادها المختلفة واستعملوها للوصول إلى هدفهم، فوصل إلينا القليل من تراثهم. وكان أهم ما تم الحفاظ عليه شفويا ثم كتابيا هي تلك الدساتير الدائمة التي أتت بها الأديان المختلفة.

ولكن أهمية اللغة لم تبدأ بالظهور بشكل واضح إلا بعد اختراع الطباعة في أوروبا في القرن الخامس عشر-لما كان لذلك من أثر عميق جدا على انتشار اللغة المكتوبة. ويعتبر البعض اختراع الطباعة اكبر ثورة في عالم اللغة قبل القرن العشرين. وها نحن الآن نشهد ثورة علمية تقنية تفوق كل وصف وتجعل الإنجازات البشرية السابقة تبدو وكأنها نقطة في بحر. أن وسائل الاتصال الحديثة من الهاتف إلى اللاسلكي ووسائل الاتصال الجماهيري كالمذياع والتلفاز والسينما ثم الصحافة والكلمة المطبوعة على أوسع نطاق، بالإضافة إلى وسائل تخزين المعلومات كالحاسب الآلي، وأجهزة التصوير والنسخ الدقيقة السريعة المتعددة الأنواع والوظائف، كل هذه جعلت من الكلمة الوسيلة التي لا غنى عنها لأي إنسان يعيش في أي مجتمع متحضر في العالم وأصبح أثر تلك الكلمة لا يعادله في الأهمية أي أثر آخر، حتى لكأن أفكارنا ومعتقداتنا ومفاهيمنا أصبحت جميعها من نتاج تلك الوسائل. ويكفي أن ننظر إلى استعمالين اثنين فقد من استعمالات هذه الوسائل وهما: الإعلان والدعاية لكي ندرك كم هي قوية ومؤثرة. لقد

دخل المذياع المتنقل إلى معظم بيوت العالم بحيث نقل العالم الخارجي إلى سكان تلك البيوت من غير أن يتكبدوا هم مشقة الانتقال، ثم تبعه جهاز التلفزة فنقل الصورة أيضا إلى الإنسان في أطراف الأرض، وذلك كله بغض النظر عما إذا كان المستمع أو المشاهد أميا أم متعلما.

لقد عشنا جميعا عصر هبوط الإنسان على سطح القمر وشاهدنا الخطوات الأولى التي خطاها الرواد الأوائل وسمعنا أصواتهم يصفون ما يرون. كما نقلت الأجهزة نقلا موضوعيا جميع الظواهر والظروف السائدة على سطح ذلك الكوكب وفي الطريق إليه والعودة منه. ولازلنا نتلقى تلك المعلومات عن كواكب أخرى تبعد عنا مسافات سحيقة عن طريق الأجهزة المختلفة ثم تتحول تلك المعلومات إلى لفة بحضها يفهمه الإنسان العادي وبعضها لا يفهمه إلا العالم المتخصص.

لم يعد بلد من البلدان، أو شعب من الشعوب يستطيع أن يعيش العصر الحاضر بمعزل عن بقية أنحاء العالم. فالمصالح متشابكة ووسائل الانتقال سريعة للغاية، فما يكاد يحدث حدث هام في أي جزء من العالم حتى ينتقل خبره إلى جميع أنحاء العالم الأخرى، وربما اهتزت له حكومات وسقطت أخرى، وربما نشبت الحروب وقتل الألوف أو الملايين وربما كان رد الفعل إيجابيا فهبت الدول والشعوب تمد يد المساعدة لبلد حلت به كارثة وتشاركه الشعور بالأسى على تلك المصيبة، وكم من خبر هز الأوساط العلمية أو الرياضية أو السياسية أو الاقتصادية بشكل أو بآخر فأتى بردود فعل تختلف باختلاف الخبر وأهميته ونوعه.

لقد أصبحت التوترات والاجتماعات المحلية والقطرية والعالمية، والمنظمات الدولية ظاهرة بارزة من ظواهر هذا القرن، وعلى قمتها حاليا مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة، واصبح تفاهم الشعوب والحكومات أمرا لا غنى عنه، ويتم هذا التفاهم بشكل رئيسي عن طريق الكلمة.

لا نجد مبررا للمضي في بيان أهمية اللغة في حياة الشعب الواحد أو الشعوب المختلفة، لأننا نعتقد أن ذلك اصبح واضحا الآن، ولكننا نختم كلامنا بما رواه أحد الباحثين من أن سوء تفاهم لغوي هو الذي تسبب في إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما في اليوم السادس من شهر أغسطس (آب) من عام 1945. فقد ذكر أن أمريكا وجهت الإنذار المعروف لليابان

تطلب منها فيه التوقف عن الحرب والاستسلام فأجابت اليابان بلغتها مستخدمة كلمة تفيد انهم يبحثون الإنذار، إلا أن المترجم نقل معنى آخر للكلمة-هو أحد المعاني المعجمية لها-يفيد أن اليابانيين يرفضون الإنذار. فكان ما كان، وذهب مئات الألوف، ضحايا سوء الفهم هدا. ومهما بلغت هذه الرواية من الصحة، فان المهم أنها ممكنة الحدوث حتى على هذا المستوى وهي تحدث على مستويات أقل في كل زمان ومكان.

2- اللغة نظام في غاية التعقيد:

فإذا انتقلنا الآن إلى النقطة الأخرى التي ذكرناها في مقدمة هذا الكلام وقلنا أن المتحدث بلغة ما لا يفطن لها، ألا وهي قضية مدى تعقيد اللغة، نقول أن الفرد الذي يتكلم لغة قومه (ولنسمها من الآن فصاعدا «لغة الأم» وهو الاسم الذي يطلق عليها عادة) يستخدمها في حياته العادية بيسر وطلاقة دون أن يفكر كثيرا فيما يقول، فكأن اللغة قد أصبحت عنده عادة كسياقة السيارة أو ركوب الدراجة، عادة يقوم بها بشكل آلي فتؤدي الغرض المطلوب منها بشكل طوعي وسريع.

هذا أمر يبدو طبيعيا لا يحتاج إلى وقفة طويلة، فهو أمر يمكن ملاحظته في كل مجتمع مهما بلغ رقيه أو تخلفه، نلحظه بين أفراد الهنود الحمر في مستوطناتهم المعزولة في غابات الأمازون، كما هي طوع بنان العالم في معمله ورجل الأعمال في مؤسسته وأستاذ الجامعة في قاعة محاضراته. وهي وسيلة التفاهم السهلة عند الطفل في الرابعة من عمره كما هي عند الكهل حتى لو أصابه الخرف والراشد حتى لو كان ضعيف العقل. كل هذا يبدو طبيعيا للغاية بالنسبة للإنسان العادي، ولكن ما أن يبدأ عالم اللغة أو المتخصص في أي نوع من فروعها بدراسة تلك الظاهرة حتى يصيبه الذهول. أن السهولة والطلاقة التي يستخدم بها الناس، جميع الناس، لغتهم الأصلية تعطي انطباعا خاطئا جدا، هو أن اللغة بسيطة للغاية. ويؤيد هذا الانطباع ما نلاحظه من أن الطفل الذي لم يتجاوز الرابعة من عمره يكون قد ملك زمام اللغة في مدة قصيرة للغاية لا تتعدى السنتين أو الثلاث، على الرغم من أن عقله لا زال في طور النمو المبكر. فإذا بدأ عالم اللغة بوصف اللغة من حيث تركيبها الداخلي وطريقة تعبيرها عن المعاني، وجد أمامه مشكلة

عويصة للغاية، بدا العلماء في محاولة حلها منذ آلاف السنين ولم يتوصلوا إلى نتيجة مرضية لتلك حتى اليوم، لأنه يجد أمامه نظاما في غاية التعقيد يتألف بطرق معينة من أنظمة أخرى كل منها لا يقل تعقيدا عن الآخر. فإذا بدأ في محاولة وصف كل من تلك الأنظمة وجد نفسه بحاجة إلى عون كثير أو قليل من علماء آخرين يعمل في المخابر الخاصة بتحليل الأصوات البشرية، بينما يختص آخرون بعلم النفس، وغيرهم بعلم الاجتماع أو علم الأجناس أو بنظرية المعلومات وطرق الاتصال، أو بهندسة الصوت منذ انتقاله في الهواء.

فإذا ما اطلع عالم النفس بشكل خاص على ذلك التعقيد الذي تتميز به اللغة، سارع إلى إعادة النظر في الفرضيات أو النظريات السابقة عن كيفية اكتساب الطفل للغة الأم، وبدأ بالبحث من جديد محاولا أن يسبر غور النفس البشرية بطريقة علمية تجريبية لعله يتوصل إلى حل هذا اللغز العجيب، يشد من أزره في هذا الاتجاه ما يلاحظه من فشل معظم الراشدين في تعلم وإتقان لغة أجنبية كما يتقنها ابن الرابعة على الرغم من مثابرتهم وقوة الحافز لديهم وقضائهم السنوات الطوال وهم في قمة نضوجهم العقلي في محاولة الوصول إلى ذلك.

ربما كان ما ذكرناه حتى الآن عن مدى تعقيد اللغة كلاما غير واضح تماما لأنه كلام عام. ولذلك سنحاول الآن أن نعطي فكرة أكثر وضوحا عما نعنيه، وذلك بتحليل ما يجري عندما يقول إنسان كلاما مفيدا ويسمعه إنسان آخر. أي أننا سنحاول أن نصف ما يسمى حدثا لغويا.

أن اللغة في ظاهرها أصوات وهذه الأصوات تعبر عن معان. ويبدو هذا أمرا بديهيا يعرفه الجميع، ولكن ما هو بحاجة إلى دراسة وتحليل هو تلك العلاقة التي تقوم بين هذين العنصرين لان جوهر اللغة في الواقع هو هذه العلاقة. فإذا استطعنا أن نفسر كيف يكوّن الإنسان الرسالة التي يريد نقلها إلى الآخرين وكيف يطلقها أصواتا في الهواء، ثم كيف تنتقل هذه الرسالة في الهواء حتى تصل إلى أذن السامع ثم كيف يحلل هذا رموزها ويفهم معناها، إذا استطعنا أن نفعل ذلك فقد ألقينا بعض الضوء على عملية التكلم أو على ما ندعوه بالحدث اللغوي.

أولا، لا بد لمن يرغب في الكلام أن يتأثر بمؤثر يدفعه إلى ذلك، وآلا لزم

الصمت. وهذا المؤثر يمكن أن يأتي من الخارج عن طريق إحدى الحواس كأن يرى إنسان صديقا له فيشعر بأن عليه أن يبادره بالتحية ويسأله عن حاله، أو يرى بائعا متجولا يبيع الفاكهة فيناديه ليشتري بعض، ما عنده أو يسمع دوي انفجار فيتساءل عن طبيعته أو مصدره أو سببه أو لم عطرا جميلا فيبدي إعجابه به، أو يلمس إناء حارا فتكاد أصابعه تحترق فيعبر عن سخطه لعدم انتباهه. وربما اشتركت اكثر من حاسة واحدة في تلقي المؤثر الخارجي-وهذا هو الغالب-ولكن يمكن أن يكون المؤثر داخليا كأن يشعر الإنسان بالجوع أو العطش أو الضيق أو المرض أو الراحة أو الفرح فيعبر عن أي من تلك الأحاسيس بطرق مختلفة منها اللغوي ومنها غير اللغوي.

خلاصة الأمر أن إنسانا يشعر بحاجة إلى التعبير عن شعور أو حاجة أو فكرة عن طريق الكلام، وهو بالطبع يتقن لغته الأصلية كما أنه قادر على النطق. أننا من هذه اللحظة حتى تلك التي تصل فيها الرسالة إلى المستمع ويفهمها نستطيع أن نميز مراحل ثلاثا رئيسية تنقسم كل منها إلى عدة عمليات فرعية.

أما المرحلة الرئيسية الأولى فهي مرحلة تكوين الرسالة وإطلاقها أصواتا وهذه تخص المتكلم. والمرحلة الثانية هي تلك التي تنتقل فيها الأمواج الصوتية عبر الهواء إلى أن تدق طبلة الأذن عند المستمع ثم تنتقل إلى دماغه. أما المرحلة الأخيرة فتتعلق بالمستمع وكيف يعيد تركيب الرسالة من الأصوات التي تصله إلى المعنى الذي تحمله.

ولنأخذ حدثا لغويا بسيطا مادة لهذا التحليل كأن يمر رجل في الطريق فيرى بيتا يحترق فيسارع إلى أقرب هاتف ويتصل بالشرطة أو فرقة الإطفاء ليبلغهم ما شاهده بقوله «البيت يحترق».

أن أول ما يفعله المتكلم في المرحلة الأولى-أي مرحلة تركيب الرسالة وإطلاقها هي مهمة اختيار المعاني ووضعها في القوالب الجاهزة لذلك والمتوافرة في لغته. ولن نتطرق هنا إلى الجدل الذي ما زال قائما عبر القرون عما إذا كانت الأفكار يمكن أن تتكون بدون القوالب اللغوية أو أن تلك الأفكار والقوالب شيء واحد أو أن القوالب اللغوية هي التي تحدد الأفكار، فربما أشرنا إلى ذلك في موضع آخر، إلا أننا سنفترض هنا أن

الفكرة لا بد لها في الغالب من قالب لغوي للتعبير عنها. ولتبسيط الأمر نقول أن بعض القوالب اللغوية الخاصة بالمعنى هي تلك المفاهيم التي تعبر عنها الكلمات المجردة التي نجدها في المعجم. فإذا عدنا إلى الجملة التي قالها المتكلم وهي «البيت يحترق». نجد أن مفهوم المكان قد اختار له المتكلم باللغة العربية قالب أو كلمة «بيت» للدلالة عليه، كما أن مفهوم الحدث «الذي رآه وهو الحريق قد اختار له قالب أو كلمة «حرق» وبهذا يكون قد اختار للحدث الذي رآه وحدتين من تلك الوحدات أو قالبين من تلك القوالب التي تدل على المعاني في لغته.

ومن الملاحظ أننا قد أكدنا في أكثر من موضع على لغة معينة هي اللغة العربية في حالتنا هذه لان متكلما بلغة أخرى يمكن أن يختار وحدات أو قوالب معنوية أخرى متوفرة في لغة غير تلك التي اختارها المتكلم باللغة العربية. ويكفي مثل واحد لبيان ذلك. فالناطق باللغة الإنكليزية كلغة الأم مثلا يمكن أن يركب الرسالة على الشكل التالي A house is on fire ويكون بهذا قد اختار وحدة معنى أو قالبا للدلالة على مفهوم المكان شبيها بما اختاره الناطق باللغة العربية-رغم اختلاف أصواته تماما-بينما اختار للدلالة على الحديث وحدة مغايرة هي fire أو «نار» بدلا من الوحدة «حرق» التي اختارها الناطق باللغة العربية. ومن الممكن إيراد أمثلة أخرى من لغات أخرى نرى فيها تشابها أو اختلافا في القوالب الدالة على المعنى التي تعبر فيها كل من تلك اللغات عن المعنى الواحد.

أما وقد اختار المتكلم العربي وحدتي المعنى المذكورتين فان الخطوة التالية هي أن يقوم باختيار الوحدات اللغوية (أو وحدات القواعد) المناسبة، وينظمها معا بالشكل المتعارف عليه في لغته. وهنالك، كما هو معروف، طرق كثيرة لتنظيم وحدتي المعنى المذكورتين سابقا بموجب قواعد اللغة التي يستعملها المتكلم. ففي اللغة العربية مثلا يمكنه أن يربط بين الوحدتين المذكورتين على الصور التالية:

احترق البيت

حرق البيت (بضم الحاء)

البيت يحترق في البيت حريق

هنالك حريق في البيت

البيت محترق

البيت محروق

إنّ في البيت حريقا

وصور غيرها. وليست معاني جميع هذه الجمل متشابهة تماما، واختلاف المعنى هنا ليس ناتجا عن وحدات المعنى التي اختارها المتكلم، بل عن الطريقة اللغوية-الصرفية والنحوية-التي تتغير وتنتظم فيها تلك الوحدات. أي أن القواعد اللغوية هنا تفرض على المتكلم ظلالا من المعاني عليه أن يختار منها ما يناسب المقام. فإذا قرر أن يختار الصورة التي ذكرناها وهي جملة «البيت يحترق» المؤلفة من مبتدأ خبره جملة فعلية، فان قواعد لغته تفرض عليه الأمور التالية:

- أولا، أما أن يحدد البيت ويعرفه فيستعمل أداة التعريف أن يتركه نكرة بدون تلك الأداة.

- ثم تفرض عليه أن يبدأ بكلمة «بيت» ويرفع آخرها، للدلالة على أنها المبتدأ، أو الشيء الذي سيتركز عليه الكلام.

- ثم توجب تلك القواعد أن يحدد المتكلم صيغة الفعل الذي قرر استعماله من حيث زمن وقوعه من جهة، واستمرار الحدث أو انتهاؤه من جهة أخرى.

- ثم تضطره قواعد لغته أن يطابق بين المبتدأ والخبر من حيث التذكير والتأنيث والأفراد والتثنية والجمع الخ. وما دام قد اختار أن يكون البيت مفردا فان على الفعل أن يتخذ شكلا معينا هو ما نراه أعلاه. وما دام الفعل مذكرا فهو لا يستطيع أن يستعمل الصورة «تحترق» بدلا من «يحترق».

وهكذا نجد أن قواعد اللغة قد فرضت على المتكلم أن يستخدم بعض وحداتها مثل: أل التعريف، الضمة في آخر المبتدأ وعلى آخر الفعل المضارع والشكل «يحترق» للدلالة على الزمن الحاضر وعلى استمرار الحدث، بدلا من «حرق» أو «محروق» إلى غير ذلك مما ذكرناه. وهذه جميعا يعتبرها اللغوي من وحدات القواعد التي تساعد على إبراز تلك المعاني التي لا تستطيع وحدات أو قوالب المعنى أن تؤديها منفردة، والتي على المتكلم بهذه اللغة أن يلتزم بها لكي يستطيع أن يركب الرسالة التي يرغب في بثها. وهذه أيضا يتشابه بعضها ويختلف بعضها الآخر من لغة إلى أخرى.

لقد قام المتكلم حتى الآن بعمليتين فقط من عمليات المرحلة الأولى

وكلتاهما جرتا في داخله (وليست طريقة عرضنا للطريقة التي تتمان بها هي الطريقة الوحيدة التي يقول بها جميع اللغويين). أما العملية الثالثة فهي عملية اختيار الأصوات المناسبة لبث الرسالة، أي تلك الأصوات المتعارف عليها في المجتمع اللغوي الذي يعيش فيه الفرد. لقد أصبحت لديه سلسلة من وحدات المعنى، متصلة ومرتبطة ببعضها بوحدات أخرى تفرضها قواعد اللغة (ويسمي اللغويون كلا من تلك الوحدات جميعا بالمورفيمات[1]، كما سيرد تفصيله في موضع آخر). والمطلوب الآن من المتكلم أن ينظر في الأصوات المتوفرة في لغته فيختار منها أصغر وحدات للصوت (وهي ما يسميها اللغويون بالفونيمات) ويركب من كل مجموعة منها الشكل المناسب للتعبير عن المورفيمات التي أصبحت متوفرة لديه. وهنا تتكشف لنا خاصية لغوية مذهلة. ففي كل لغة عدد محدود جدا من الفونيمات (أو الأصوات المفردة المميزة)[2]، لا معنى لأي منها بحد ذاتها، إذ لو كانت كل منها تدل على معنى مورفيم معين، لاحتجنا إلى استعمال عدد من الأصوات المفردة بعدد المورفيمات أو المفردات التي نحتاجها في حياتنا وهي تعد بالآلاف إذا حصرنا كلامنا بلغة الحديث العادية فقط، وهذا أمر يكاد يكون متعذرا ويجعل من اللغة نظاما يبلغ تعقيده درجة تقف حائلا دون إتقانه. لقد تحايلت اللغات البشرية على هذه الصعوبة الضخمة بأن اختارت كل منها (أو اختار أصحابها) عددا محدودا من تلك الأصوات المفردة المتميزة، إلا أنها تركت لأهل اللغة حرية تركيب تلك الأصوات على شكل مفردات متميزة تعد بمئات الألوف في كل لغة.

لا داعي لان نتابع بحث هذه الخاصية هنا، فلذلك موضع آخر، ولنعد إلى صاحبنا الذي ما زال يجاهد لتأليف رسالته البسيطة.

لقد قلنا أن عليه أن يختار القوالب الصوتية المتعارف عليها في مجتمعة ليصب فيها وحدات المعنى والقواعد المختلفة التي توصل إليها. انه يقوم باختيار الصوتين المنفردين: صوت «الهمزة» وصوت «اللام» وينظمهما معا بحيث تسبق أولاهما الثانية وتكون الأولى مفتوحة بينما تكون الثانية ساكنة وذلك للدلالة على معنى التعريف أو المعرفة، وهو يفعل مثل ذلك عندما يختار أصوات الباء والياء والتاء بحيث يكون الصوت الأول متبوعا بصوت آخر (تعارفنا على تسميته بالفتحة) والثاني ساكنا والثالث متبوعا بما نشير

إليه بالضمة، وهو لا يستطيع أن يرتب هذه الأصوات الثلاثة بحيث تصبح «يبت» أو «تبي» أو «تيب» مثلا لان أيا من هذه السلاسل من الأصوات لا تؤدي الدلالة المطلوبة ثم يتابع عمله بنفس الطريقة فيما تبقى من الجملة.

لقد أصبحت الرسالة جاهزة لدى المتكلم الآن وبقى عليه إصدارها. والخطوة التالية هي أن يقوم الدماغ بإصدار أوامره إلى أجهزة النطق المختلفة لكي تؤدي الحركات المعينة اللازمة لنطق هذه الجملة. أما الخطوة الأخيرة من هذه المرحلة الأولى فهي أن تقوم أجهزة النطق بالفعل بإصدار الأصوات المطلوبة وهنا يكون دور المتكلم قد انتهى.

وما أن تصدر تلك الأصوات عن أجهزة النطق حتى تحدث اهتزازات في الهواء تتولد عنها موجات صوتية تنتشر في كل مكان يحيط بالمتكلم. وتمتد إلى مسافات محددة، ثم تبدأ بالضعف تدريجيا إلى أن تصبح الأذن البشرية غير قادرة على التقاطها واضحة وفهم معناها، وربما انتقلت هذه الموجات عبر الهاتف كما في الحالة التي نتكلم عنها فتمتد مسافة وصولها إلى أذن السامع إلى أبعاد اكبر. فإذا ما استعمل اللاسلكي ووسائل التقوية الصوتية الحديثة، وصلت تلك الموجات الصوتية جلية واضحة إلى أقاصي الأرض، بل والى الفضاء الخارجي أيضا.

المهم أننا سنفترض أن ظروفا مواتية قد صاحبت تلك الأمواج الصوتية إلى أن تطرق أذن السامع فتدق طبلتها وتحدث اهتزازات في أذنه الوسطى والداخلية تنتقل عبر الأعصاب إلى الدماغ. وهذه هي المرحلة الثانية التي يمكن وصفها وصفا علميا دقيقا عن طريق علم الطبيعة وعلم وظائف الأعضاء.

أما المرحلة الثالثة وهي التي يقوم بها السامع بحل رموز تلك الرسالة الصوتية والتوصل الأعصاب تركيبها الصوتي والصرفي والنحوي ويستخلص منها المعنى الذي يقصده المتكلم، فهي كالمرحلة الأولى، من أعصى المراحل على التحليل والوصف لأنها تتم كلها داخل الدماغ.

أن المنطق يوحي بأن حل تلك الرموز يتم بطريقة معاكسة للطريقة التي ركبت فيها، ولكن نتائج التجارب الحديثة لا تؤيد هذه الفرضية، (وسنأتي على تفصيل بعض من ذلك في الفصل الثالث). والسبب الأساسي لذلك هو أن العلاقة بين الصوت والمعنى، ليست علاقة مباشرة، بل تخضع لقواعد

اللغة، وقواعد اللغة من التعقيد بحيث لا تجعل أمر استخلاص المعنى من الصوت أمرا سهلا، مع أنها في نفس الوقت عامل مساعد رئيسي في الوصول الأعصاب ذلك. النقطة الواضحة الأكيدة هنا هي انه ليس باستطاعة السامع أن يفهم رسالة المتكلم إلا إذا كان ينتمي الأعصاب نفس المجتمع اللغوي ويشترك معه في استعمال تلك اللغة في ذلك المجتمع.- وهذا لا يعني بالطبع الأولى كل مستمع يفهم ما يرمي إليه كل متكلم من كلامه، بل الأولى كثيرا من سوء الفهم حاصل في كل لحظة.

أن عملية الاستماع والفهم لربما كانت أشق بمراحل من عملية النطق بالكلام. ولهذا أسباب كثيرة بعضها يتعلق بطبيعة الصوت أو على الأصح بالموجات الصوتية. فلهذه صفات مختلفة بعضها يساعد على سماع الصوت بوضوح وسهولة وبعضها يعطل ذلك. وتختلف هذه الصفات باختلاف الإنسان الذي يصدر الأصوات من جهة: أهو رجل أو امرأة؟ أهو فتى أم فتاة؟ أهو بالغ راشد أم طفل؟ وهي تختلف أيضا بالنسبة للغة نفسها التي يتكلمها مجتمع معين ونوعية الأصوات التي اختارها المجتمع لاستخدامها في التحية. كما تختلف باختلاف الحالة النفسية أو الانفعالية للمتكلم من السرور الأعصاب الغضب الأعصاب الحزن الخ. كما الأولى صفات تلك الموجات الصوتية تتأثر بالوسط الذي تنطلق وتمر فيه وبمدى السكون أو الضجة الموجودة فيه في ذلك الوقت. ثم أنها تختلف أيضا بالنسبة لوضع المتكلم والسامع من بعضهما: أقريبان هما أم بعيدان بعضهما عن بعض؟ وهل السامع ينتظر صدور الصوت من المتكلم فهو لذلك متنبه متيقظ، أم انه يسمع الأصوات عرضا؟ وهل المستمع مهتم بموضوع الحديث أم لاه منه يفكر بأشياء أخرى؟ وهل أعضاء السمع عند المستمع في حالة ممتازة أم سيئة أم بين بين؟

هذه أمثلة فقط من العوامل المتعددة جدا التي تؤثر في عملية السمع والفهم، بعضها طبيعي (فيزيائي) وبعضها الآخر فسيولوجي، بعضها نفسي وبعضها الآخر عصبي أو اجتماعي الأعصاب آخره. وهي تجعل من عملية الاستماع والفهم عملية معقدة للغاية.

إلا أننا سنفترض ثانية الأولى جميع الظروف كانت مواتية وان الرسالة قد وصلت فعلا الأعصاب أذن السامع واستطاع فهم معناها الذي قصده

المتكلم، فما هو رد الفعل الذي سيصدر عنها؟ وهل نستطيع أن نتنبأ برد الفعل هذا بغض النظر عن المجتمع الذي يعيش فيه الفرد الذي صاح قائلا «البيت يحترق»؟ الأولى هذين السؤالين يعودان بنا الأعصاب الوراء، أي الأعصاب ما قبل صدور رد الفعل اللفظي على رؤية الرجل لبيت يحترق، ويدفعاننا الأعصاب سؤال آخر هو: كيف تنبأنا بأن رد فعل صاحبنا عندما رأى بيتا يحترق سيكون أن يهرع إلى الهاتف ويتصل برجال الشرطة أو الإطفاء ليخبرهم أن البيت يحترق؟ والجواب على ذلك أننا افترضنا مجتمعا معينا هو مجتمع مدينة حديثة تتوافر فيها أجهزة الاتصال الحديثة كالهاتف، كما تتوفر فيها الفرق الخاصة بإطفاء الحرائق وهي التي تقع على عاتقها هذه المسؤولية. كما افترضنا حسا اجتماعيا معينا لدى صاحبنا وخوفه من أن ينال بعض إخوانه المواطنين سوء من جراء الحريق ومن أن تمتد السنة اللهب إلى البنايات المجاورة فينتج عن ذلك كارثة اجتماعية واقتصادية للأفراد وللمجتمع وربما لجهاز الحكم أيضا. وقد تصورنا أن يكون رد فعل هذا الرجل هذا التصرف الطبيعي المتعارف عليه في مثل هذا المجتمع.

ولكن لو افترضنا مجتمعا آخر، ولنقل انه قرية صغيرة نائية، طرق المواصلات المؤدية إليها سيئة، ولا يتوفر فيها هاتف أو آلات حديثة لإطفاء الحرائق. فهل يكون سلوك الفرد الذي رأى الحريق مشابها لسلوك صاحبنا الساكن في مدينة عصرية؟ الجواب: لا، بالطبع. أن رد فعل هذا الفرد سيكون مطابقا لما هو متعارف عليه في مثل هذه الحالات في مجتمعه الصغير المنعزل. فهو في الغالب سيبدأ بالصراخ والانتقال من مكان إلى آخر في القرية وربما في الحقول أيضا ليعلم الفلاحين بأمر الحريق، كما أن رد فعل الفلاحين سيكون في الغالب عملا تعاونيا يعمل على إطفاء الحريق باستعمال الدلاء وأقرب مصدر للمياه.

ولنتصور الآن مجتمعا آخر كإحدى القبائل البدائية في مجاهل إحدى القارات، لا زالت تؤمن مثلا بأن الحريق عقاب من الإله ينزله بمن لا يؤدي له الواجبات المفروضة عليه. فماذا يكون رد فمل الفرد الذي يشاهد الحريق من أبناء تلك القبيلة، وماذا يكون رد فعل الجماعة التي تحلم بذلك من هذا الفرد؟ من الصعب التنبؤ بذلك إلا إذا استأنسنا بدراسات علماء الأجناس عن نماذج السلوك المختلفة في مثل ذلك المجتمع. فربما كان رد فعل المشاهد

هو الرهبة الشديدة والركوع أمام الحريق والترتيل ببعض الأدعية والترانيم الدينية لعل الإله يرضى عن المذنب فيخفف من غضبه وسخطه عليه، وربما كان رد فعل بقية أفراد المجتمع الذين يرون المنظر أو يسمعون الخبر مشابها لذلك الفرد أيضا أو مغايرا له في كثير أو قليل. إذ ربما أتت النار على جميع أكواخ تلك القبيلة، ولكن نظرا إلى أنها قد بدأت في كوخ معين فان صاحب ذلك الكوخ يستحق العقاب من الجماعة لأنه أغضب الآلهة، وهو لذلك يقدم للمحاكمة في مجلس القبيلة وينزل به ما يقرره ذلك المجلس من عقاب.

لعل بعض ما ذكرنا من أنماط السلوك المختلفة تجاه الحدث الواحد يبدو غريبا أو مستهجنا، ولكن الواقع أن أنماط السلوك تختلف اختلافا كبيرا جدا لدى المجتمعات المختلفة، ويعبر عنها بأساليب لغوية متباينة بمقدار تباين تلك المجتمعات في الأسس الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تقوم عليها.

وأخيرا هنالك ناحية هامة لم نشر إليها حتى الآن. وهي أن الجملة التي ذكرناها وهي «البيت يحترق» تعتبر من حيث التركيب جملة إخبارية فلماذا استعمل صاحبنا هذا الشكل من الجملة بينما هو في واقع الأمر يجب من الآخرين أن يقوموا بعمل ما؟ الواقع انه لم يكن ليفعل ذلك لولا أنه يعلم بالسليقة أن الوظيفة الحقيقية لهذه الجملة في ذلك المقام هي الطلب وليس الإخبار. وإذا كان هذا صحيحا فان وظائف اللغة ربما اتفقت مع شكلها الخارجي أحيانا، واختلفت عنه اختلافا قليلا أو كثيرا في أحيان أخرى. أن سامع هذه الجملة فهم أيضا وظيفتها الحقيقية وتصرف على أساسها. وهذا يبين أن هذه الوظائف اللغوية أمور مفهومة ومتعارف عليها أيضا بين أفراد المجتمع الواحد.

أرأيت معي كم بذل صاحبنا من الجهد والعناء إلى أن تمكن من أن يبعث برسالة كلامية مؤلفة من جملة واحدة في غاية السهولة والإيجاز؟ وكم لاقى صاحبنا الآخر، المستمع، من العنت لكي يحل رموز تلك الرسالة ويفهمها ويسلك السلوك الملائم لها؟

ولكن هل الواقع أن صاحبينا هما اللذان اجهدا نفسيهما كل هذا الجهد بإصدار الرسالة واستقبالها، أم أننا نحن الذين لاقينا مشقة كبيرة بمحاولتنا

تحليل ما حصل ووصفه وشرح جوانبه المختلفة؟ الواقع أن المتكلم لم يجد صعوبة تذكر في بث رسالته، فقد استجاب للمؤثر الطبيعي بالطريقة المتعارف عليها في مجتمعه، كما أطلق الرسالة اللغوية بالطريقة المقبولة أيضا في ذلك المجتمع. صحيح أن بعض الخيارات كانت مفتوحة أمامه طوال الوقت فاختار منها ما يعتقد أنه الأنسب، فقد كان بإمكانه مثلا أن يمر بالمشهد مرور الكرام، أو أن يقف ليتفرج عليه، أو أن يستقل سيارته لينقل الخبر إلى الجهات المسؤولة، إلى غير ذلك من أنواع السلوك الممكنة في ذلك المجتمع، إلا انه اختار إحداها وتصرف على هذا الأساس، وتصرف بسرعة وعفوية، أو ربما بعد قليل من التفكير.

أما المستمع أو المستمعون من الناحية الأخرى فربما وجدوا بعض المشقة في سماع الخبر وفهمه وربما لم يجدوا شيئا من ذلك على الإطلاق. أما تصرفهم فقد أملته عليهم الأعراف السائدة في مجتمعهم بالذات.

إن اللغة، كما ذكرنا في بداية هذا الحديث، عنصر هام للغاية بل هي أهم العناصر التي يتكون منها دستور مجتمع معين، والتي تتحكم في سلوك أفراده اللغوي منها وغير اللغوي إلى حد بعيد. وهي بالنسبة للفرد جزء لا يتجزأ من كيانه، اكتسبها منذ طفولته المبكرة جدا وأصبح يستخدمها كما يستخدم الهواء الذي يتنفسه والطعام الذي يتناوله، دون كبير مشقة، وحتى دون شعور بأهميتها وبمبلغ تعقيدها. وهدا ينطبق عليه صامتا كان أم متكلما أم مستمعا ولكن ها نحن قد أمضينا وقتا ليس بالقصر نحاول جاهدين أن نفسر تلك الظاهرة، أو ذلك الحدث اللغوي البسيط للغاية والذي لم يستغرق سوى ثانية أو أقل من ذلك قليلا. وقد كنا نحاول أن نلم بجوانبه المختلفة. وأغلب الظن أننا قد أوجزنا كثيرا فقصرنا تقصيرا كبيرا، ولذلك فإنا نعدك بشرح مزيد من تفاصيل تلك العملية فيما تبقى من هذا الكتاب. ولكن لعلنا استطعنا أن نعطي ولو فكرة أولية مبسطة للغاية عن مدى التعقيد في ذلك النظام الذي نسميه اللغة لنثير الاهتمام فيما سيأتي من كلام فيه تفصيل أكثر وإيضاح أكبر.

إن اللغة لغز كبير حار العلماء في حله منذ آلاف السنين، وأغلب الظن أنهم ما ظفروا من ذلك إلا بالقليل القليل حتى اليوم.

إن اللغة بحق سر الله في خلقه من بني البشر.

3- اللغة محور الدراسات الإنسانية:

في أثناء وصفنا لحدث لغوي واحد بسيط وجدنا أن العمليات التي يمر بها الحدث من البداية إلى النهاية عمليات مختلفة بعضها يخص اللغوي وحده ولكن أكثرها لا يخصه وحده، بل أن بعضهما لا يستطيع اللغوي أن يفعل شيئا إزاءه، بل ينتظر المعونة والفرج من غيره.

وكنا قد بينا قبل ذلك مدى أهمية اللغة بالنسبة للمجتمعات البشرية بحيث لا نستطيع أن نتصور عالما بشريا بدون وجود اللغة. أن اللغة بالنسبة للمجتمع هي بمكانة القلب من الجسم البشري، كما أنها المحور الذي تدور حوله جميع الدراسات الإنسانية، وبعض الدراسات الطبيعية والتطبيقية أيضا.

إن النظر في طبيعة اللغة مثلا يمكن أن يتم من زوايا متعددة. فمن الناحية الصوتية الصرفة يشترك ثلاثة أنواع من العلماء والباحثين في دراستها ووصفها. فهنالك أجهزة النطق التي تتحرك بطرق مختلفة لإصدار الأصوات المتباينة. فهي، من ناحية، موضوع بحث عالم وظائف الأعضاء، ومن ناحية أخرى موضوع دراسة عالم الصوتيات. أما الصوت بعد انطلاقه في الهواء، فهو من اختصاص عالم الطبيعة والمهندس الكهربائي المختص بوسائل الاتصال والذي يعني بشكل خاص بتحويل الأمواج الصوتية إلى أمواج كهرومغناطيسية للاستفادة منها في مجال الاتصالات البعيدة المدى. بالإضافة إلى أن الصوت يطرق الأذن وهي عضو من أعضاء الجسم، فهي من اختصاص عالم وظائف الأعضاء أيضا.

أما علاقة الدماغ باللغة والنطق فيشترك في دراستها اللغوي وعالم النفس والطبيب المختص بالجهاز العصبي، وذلك في محاولة لتفسير تلك العلاقة والاستفادة منها في علاج بعض الاضطرابات والأمراض اللغوية من ناحية، وفي الاهتداء إلى أسرار بعض أوجه اللغة من ناحية أخرى.

إن اهتمام علم النفس يتطرق إلى معظم نواحي اللغة تقريبا وبخاصة ما له علاقة بالعقل والنفس البشرية-وقد وردت الإشارة إليه في غير موضع في أثناء شرحنا للحدث اللغوي في الصفحات السابقة. ومما يشغل بال علماء علم النفس اللغوي مثلا طرق تكون العادات اللفظية وأثرها والفروق الفردية في اكتساب اللغة وسيكولوجية القراءة وعلاقة اللغة بالشخصية،

وعيوب الكلام.. الخ ومن أهم ما يشغل بالهم حاليا الأمور التالية (التي سنتعرض لها بشيء من التفصيل في الفصل القادم):

الأمر الأول: النظرية الحديثة في القدرة اللغوية الفطرية، التي أتى بها تشومسكي، ومدى صحتها، وماهية تلك القدرة التي تولد مع الطفل، ودور النشأة في بيئة معينة، والاكتساب من تلك البيئة.

والأمر الثاني: هو العلاقة بين القدرة اللغوية التي يتمتع بها الإنسان والاستعمال الفعلي للغة.

أما الأمر الثالث: فهو كيفية تركيب الفرد للرسالة الكلامية التي يصدرها ثم كيفية فكه لرموزها-وهو ما وصفناه بشكل عام غير دقيق كل الدقة في الصفحات السابقة.

إن نتيجة البحث الثاني في هذه الأمور الثلاثة تتعلق مباشرة بالطريقة التي يكتسب بها الطفل لغة الأم من ناحية، وكيف يختلف ذلك عن طريقة تعلم الراشد أو الطفل للغة أجنبية من ناحية أخرى، وهذا ينعكس بالطبع على مناهج تدريس اللغات، قومية وأجنبية، وطرق تدريسها والمواد التعليمية المناسبة لها، إلى غير ذلك من الأمور التطبيقية. ويشارك في هذا الاهتمام هنا المربي وبخاصة مؤلف الكتب اللغوية التعليمية، ومعلم اللغة قومية أو أجنبية.

وقد زاد اهتمام علماء الرياضيات باللغة في العصر الحاضر على أساس أنها أهم وسائل الاتصال، وأن التقنية الحديثة أسبغت عليها صفة عملية بالغة الأهمية فأخذوا يدرسون اللغة من حيث الطريقة الرياضية التي تتحكم في صياغة الرسالة ثم في فك رموزها، ومن حيث الكيفية التي يمكن الاستفادة بها عمليا من تلك الدراسات، من تخزين المعلومات إلى الحاسب الآلي إلى الترجمة الآلية إلى وسائل الاتصال المتعددة وغيرها. حتى لقد اصبح لعلم اللغة فرع خاص يسمى «علم اللغة الرياضي» يدرس في كثير من الجامعات حاليا.

وعلى أساس أن اللغة من أهم مقومات المجتمع فإن اهتمام علماء الاجتماع، والمتخصصين في علم اللغة الاجتماعي، اهتمام كبير للغاية، يشاركهم فيه ويزودهم بكثير من الملحوظات ونتائج دراسات المجتمعات البشرية المتنوعة، علماء الأجناس البشرية (الانثروبولوجيا). وموضوعات

اهتمام هؤلاء جميعا كثيرة ومتشعبة ولكنها في خلاصتها تتركز في علاقة اللغة بالمجتمع. وقد نتجت عن هذا الاهتمام مؤخرا أبحاث ودراسات في غاية الأهمية تركت أثرها في الاتجاهات الحديثة لعلماء اللغة المتخصصين في قواعد اللغة. ووجهتها وجهة مخالفة لما كانت عليه قبل سنوات قلائل- مما سيرد ذكره فيما بقي من هذا الفصل.

أما الأدب، فقد بدأ علم اللغة يرفده بنتاج دراساته الخاصة بالدلالة وبالأسلوب وبدأ اثر ذلك يظهر في النقد الأدبي وأخذ الأديب وعالم اللغة يعملان معا في تحليل وفهم أعمق للنماذج الأدبية المختلفة.

أن مجالات الجدل القديمة في اللغة، رغم انطفاء شعلتها ردحا من الزمن، قد عادت فبرزت من جديد في ضوء بعض الأبحاث الحديثة في قواعد اللغة وفي الدلالة وعلاقتها بالقواعد بالذات، وفيما إذا كانت للغات جميعا أسس مشتركة أهم واعم من تلك القواعد الظاهرية التي نعرفها جميعا، ونفي علاقة اللغة بالواقع والحقيقة. وقد شارك في هذا الجدل وفي الدراسات المتعلقة به، الفلاسفة وعلماء المنطق وعلماء اللغة وعلماء النفس وعلماء الأجناس وغيرهم، ولا زالوا يشاركون فيه حتى اليوم.

ولقد اثر هذا الجدل القديم الحديث في بعض العلوم، إذ شعر أهل الرياضيات من القديم وعلماء المنطق مؤخرا بأن اللغة ليست افضل رديف للفكر المجرد، أن وجد، بل ربما تدخلت فأفسدته. أو قصرت عن أداء عملياته المعقدة، فنزعوا إلى الاستغناء عن اللغة كلية واستبدلوا بها رموزا بعضها مستعار من اللغة وبعضها الآخر لا علاقة له بها.

وتعتبر الدراسات المتعلقة بالمعاني الملتقى الذي يجتمع فيه سائر أنواع العلماء الذين ذكرناهم من رياضيين وفلاسفة وأصحاب منطق وعلماء نفس وعلماء اجتماع وعلماء أجناس ورجال تعليم وتربية، وذلك لان للمعنى أو الدلالة اللغوية اوجها عديدة منها ما له علاقة مباشرة بالتركيب اللغوي أو المفردات اللغوية ومنها ما له علاقة بالعقل ومنها ما له علاقة بحقيقة الوجود ومنها ما له علاقة بالصواب والخطأ والحق والباطل ومنها ما له علاقة بمقدار المعلومات التي تنقلها الرسالة اللغوية ومنها ما له علاقة بالمقام أو المناسبات التي يتم فيها الحديث وعلاقة المتحدثين ببعضهم، ومنها ما له علاقة بالحضارة التي تمثل اللغة أهم مظاهرها ومنها ما له

علاقة بالحقيقة أو المجاز ومنها ما له علاقة بالنواحي الجمالية، الخ.. الخ. أن دراسة هذا المظهر من مظاهر اللغة رغم تاريخه القديم قد اكتسب وزنا خاصا في الآونة الأخيرة بتأثير النظريات التي أتى بها بعض علماء اللغة في القرن الحالي.

وقد كانت إحدى الطرق العملية للاستفادة من هذه الدراسات ولا زالت هي كتابة المعاجم اللغوية. ولكن بينما كان أصحاب المعاجم يركزون في السابق على النواحي التاريخية، وعلى الاشتقاق اللغوي ويجهزون المعاجم الخاصة بلغة واحدة معينة، أصبح التركيز حاليا على اللفظ والمعاني المتعددة للمفردات في السياقات المختلفة وامتلأت المكتبات بالمعاجم التي تتناول لغتين أو أكثر.

ومن العلماء والمربين من أولى ولا زال يولي اهتماما خاصا بإيجاد وسائل اتصال أخرى غير اللغة المنطوقة وذلك لمساعدة الصم والبكم على تعلم اللغة، وإيجاد طريقة اللمس لتعليم القراءة والكتابة للمكفوفين، وطرائق أخرى لتعليم اللغة للمتخلفين عقليا أو لأولئك الذين لديهم عيوب لغوية مختلفة.

وأخيرا وليس آخرا، هنالك المظهر المكتوب من اللغة. وأهمية هذا المظهر أنه أصبح هو الملامة المميزة للمتعلم من الأمي وللأمم المتحضرة من الأمم المتخلفة. كما أن اللغة المكتوبة هي التي تحفظ العلم والأدب ووجوه الحضارة الأخرى من الفناء وتضعها بين أيدي الدارسين من طلاب وباحثين. ومع تفجر المعرفة في القرن الحالي، اخذ العلماء يفكرون بإيجاد طرق أخرى غير الطرق التقليدية لحفظ المعلومات بحيث لا تشغل حيزا كبيرا ويمكن استعادتها بسهولة، ويلعب الكمبيوتر في السنوات الأخيرة دورا كبيرا في هذا المجال.

وبالنظر لتشعب الدراسات اللغوية إلى الحد الذي ذكرناه،-وقد أغفلنا كثيرا منها-والى السيل العارم من الأبحاث والتجارب الحديثة في كل عن تلك الفروع، التي لا يمكن أن نعطي حتى بعضها حقه الكامل في حيز محدود كهذا الكتاب، فليس أمامنا سوى أن نختار عددا محدودا جدا من ذلك الموضوعات تكون هي الأهم والأحدث بالنسبة لوقتنا هذا ونعالجها بشيء من التفصيل والوضوح.

لذلك فسننتقل الآن إلى المبحث التالي في هذا الفصل والذي سنحاول فيه أن نعطي صورة سريعة للغاية عن التطور التاريخي للدراسات اللغوية لأننا لن نتمكن بدون هذا من أن نرى كيف كانت الدراسات الحديثة في الغالب إما ردود فعل للدراسات القديمة أو تحديثا وتطويرا لها.

4- نبذة تاريخية عن الدراسات اللغوية القديمة.

إن معظم موضوعات البحث اللغوي التي ذكرناها حتى الآن هي مواضيع الاهتمامات المعاصرة، بل أنها تكاد تنحصر في النصف الثاني من القرن الحالي ولكن هل يعني هذا أن اللغة لم تثر انتباه أسلافنا فتركوها دون بحث أو نظر أو دراسة حتى عصرنا هذا، مع أن اللغة والعنصر البشري مرتبطان ارتباطا شديدا بحيث لا يمكن تصور وجود أحدهما بدون الآخر؟.

واقع الأمر أن اهتمام القدماء باللغة لم ينقطع أبدا، وبخاصة في تلك المجتمعات التي كان للغتها علاقة مباشرة بالدين، كما كان الحال بالنسبة للغة السنسكريتية في الهند واليونانية واللاتينية في أوروبا، والعربية في البلاد العربية. إلا أن الفرق بين الدراسات القديمة والحديثة هو فرق في المدخل أو في أسلوب معالجة اللغة. وهذا لا يعني بأي حال. من الأحوال أن جميع تلك الدراسات القديمة عديمة القيمة بل أن الواقع أن لبعضها قيمة كبيرة للغاية لا زلنا نفيد منها ونعتمد عليها حتى الآن.

بطبيعة الحال ليس لدينا دليل على اهتمام القدماء باللغة قبل أن تخترع الكتابة وتستخدم لتدوين حصيلة تلك الاهتمامات. هنالك إشارات في النقوش الهيروغلوفية والسومرية والآشورية تدل على وجود المعاجم والمترجمين، كما أن قصة برج بابل في سفر التكوين من التوراة، تشير إلى إدراك لأهمية اللغة الواحدة كوسيلة لوحدة المجتمع. ولكن ليس لدينا نتاج لغوي هام قبل القرن الرابع الميلادي فقد اكشف العلماء الأوروبيون في القرن التاسع عشر كتابا لقواعد اللغة السنسكريتية، ألفه بانيني (Panini) في الهند في القرن الرابع بهدف ديني واضح، ووصف فيه النظام الصوتي لتلك اللغة وتركيبها الصرفي والنحوي وصفا دقيقا للغاية، وساعد هذا الاكتشاف على معرفة علاقة اللغة السنسكريتية باللغات الهندوأوروبية الأخرى وأعطى دفعة قوية للدراسات المقارنة التي ميزت القرن التاسع

عشر والتي كان الهدف منها تقسيم اللغات العالمية إلى سر يعود كل منهما إلى اصل واحد.

فعلى الرغم من اهتمام الإغريق والرومان بالأبحاث اللغوية المختلفة، إلا أننا لا نجد لديهم دراسة وصفية واحدة من نوع كتاب بانيني ومستواه، ويعود ذلك إلى اهتمام الإغريق القدماء بالفلسفة بوجه خاص، والى أن أوائل من نظروا في اللغة منهم كانوا من الفلاسفة، ولذلك فقد اتجهت دراساتهم نحو البحث في مسائل عامة اتسمت بكثير من التجريد، وقد اثروا بعملهم هذا في الدراسات التالية التي قام بها الرومان ثم العرب فأوروبيو القرون الوسطى حتى ما بعد عصر النهضة من العصور الحديثة.

لقد كانت المسألة الهامة التي أثارها الإغريق والتي تركت بصماتها على الدراسات اللغوية اللاحقة حتى عصرنا الحاضر، تتعلق بطبيعة اللغة ونشأتها. فقد رأى بعضهم ومنهم أفلاطون أن اللغة ظاهرة طبيعية، وأن الكلمات وأصواتها جزء لا يتجزأ من المعنى، بينما رأى الفريق الآخر ومنهم أرسطو أن اللغة ظاهرة اجتماعية وأن أصواتها رموز اصطلاحية لا علاقة طبيعية أو مباشرة لها بالمعاني: وقد نشأت عن هدا الاختلاف النظريتان المعروفتان، الأولى المسماة بالنظرية التوفيقية والأخرى المعروفة باسم النظرية الاصطلاحية (أو التواضعية) واللتان امتد الجدل فيهما حتى العصر الحاضر.

وقد نشأ عن النظرية الأولى نظريات متعددة عن أصل اللغات جميعا منها: أن اللغة توقيف ووحي من الله، ومنها أن أصل اللغات جميعا يرجع إلى محاكاة أصوات الطبيعة أو أصوات الحيوانات إلى آخره، ووصل الأمر بالبعض إلى أن يقول أن للصوت بحد ذاته قيمة تعبيرية.

أما فيما يتعلق بوضع القواعد التفصيلية للغة اليونانية القديمة فقد تأخر الإغريق تأخرا يدعو للدهشة، وعندما بدءوا يفعلون ذلك خلال العصر السكندري، في القرن الثاني قبل الميلاد وما بعده، وتبعهم الرومان في ذلك، وضعوا لكل من اللغتين قواعد تتميز بخاصيتين كان لهما أثر كبير على من تبعهما من الأمم المختلفة وبخاصة في أوروبا.

أما الخاصية الأولى فهي أن كلا من الشعبين وضع قواعد لما يمكن أن ندعوها اللغة الفصحى، وهي اللغة التي لم تكن هي المستعملة فعلا في

الوقت الذي وضعت فيه تلك القواعد. بتعبير آخر، فانهم لم يصفوا قواعد اللغة التي كان يستعملها الناس في عصرهم، بل وضعوا قواعد أو معايير لما يجب أن تكون عليه اللغة، وهذه هي ما تسمى «بالقواعد المعيارية» التي لم تتغير بتعاقب القرون بحيث أصبحت في النهاية تشير إلى لغة غير موجودة ولا مستعملة إطلاقا.

أما الخاصية الثانية فهي أن الإغريق، والرومان من بعدهم، لم يهتموا بلغة غير لغتهم، واستنادا إلى الآثار التي ترتبت على القواعد التي وضعوها، يمكن القول أنهم كانوا يعتقدون بأن تلك القواعد منطقية وتبعا لذلك فهي عامة يمكن أن تطبق على أية لغة أخرى وهذا ما حصل بالفعل في أوروبا بالنسبة للغات الحديثة حتى سنوات قليلة خلت، فقد طبقت عليها جميعا قواعد اللغتين اليونانية واللاتينية بغض النظر عن الاختلافات الواضحة بين تلك اللغات الحديثة وهاتين اللغتين.

لقد أولى العرب اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن أكبر قسط من العناية والاهتمام، وازدهرت العلوم اللغوية عندهم ازدهارا كبيرا ووصلنا الكثير من تلك الدراسات عن طريق المخطوطات التي قيض لها البقاء سليمة حتى العصر الحاضر.

وقد تأثر العرب بمنطق أرسطو من ناحية وبالمدرسة اللغوية السكندرية من ناحية أخرى، فلما شاركوا في الجدل الذي كان قائما حول طبيعة اللغة ونشأتها. فاتخذ بعضهم مثل ابن فارس (في القرن الرابع الهجري) موقف المدافع عن النظرية التوقيفية مستشهدا على ذلك بظاهر معنى الآية الكريمة «وعلّم آدم الأسماء كلها»، أما الموقف المعارض فقد حمل لواءه ابن جنى الذي كان يؤمن بأن اللغة اصطلاحية فيقول «إن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح، لا وحي وتوقيف» وهو يؤول الآية الكريمة بأن المقصود بكلمة «علّم» هو «أقدر» أي أن الله سبحانه وتعالى أعطى آدم القدرة على الكلام والتسمية وترك له الوضع والاصطلاح بالنسبة للتفاصيل(3) وعلى الرغم من موقف ابن جنى هذا فقد كان يقول هو وعدد من اللغويين الآخرين بالظاهرة التي تسمى باللغة الإنكليزية (Sound Symbolism) والتي لا زال البعض يجرى الأبحاث والدراسات عليها، وخلاصتها أن الصوت في اللغة له قيمة تعبيرية أو معنوية خاصة به، وقد

بحث ابن جني ذلك في باب كامل بعنوان «باب في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني» وذلك في كتابه الشهير «الخصائص»(4).

هذا من ناحية الأبحاث العامة، أما ما يتعلق بقواعد اللغة، فقد قدم سيبويه (القرن الثاني الهجري أي الثامن الميلادي) خدمة كبيرة للغاية في كتابه المعروف بحساب والذي أصبح المرجع لمن أتى بعده من اللغويين. وعلى الرغم من أن المنهج الذي اتخذه سيبويه في دراسته للغة العربية منهج وصفي في معظمه شبيه بمنهج بانيني المشار إليه سابقا، إلا أن أثر منطق أرسطو والدراسات اللغوية الإغريقية السابقة واضح في استعمال سيبويه لطريقتي القياس والتعليل في وصفه لقواعد اللغة العربية. كما أنه وقع في نفس الأخطاء المنهجية التي وقع فيها النحويون الإغريق والرومان من قبل، فهو أولا شمل بدراسته مراحل مختلفة مع اللغة العربية تقدر بثلاثة قرون رغم ما طرأ على اللغة من تغيير خلال تلك الحقبة كما انه حاول أن يصف عدة لهجات عربية ويجد لها قواعد مشتركة(5).

لقد قلنا أن منهج سيبويه في كتابه كان منهجا وصفيا بكل عام، إلا أن من تبعه من اللغويين توقفوا عن الاستشهاد باللغة المستخدمة في زمانهم وجمدوها على ما استشهد به سيبويه، فاستعملوا قواعده كقواعد معيارية وحاولوا أن يخضعوا لها كل ما يقال ويكتب في العصور المختلفة، ولا زال هذا حالنا إلى حد كبير بالنسبة لقواعد لغتنا حتى العصر الحاضر.

أما في أوروبا العصور الوسطى فقد تجمدت الدراسات اللغوية أو كادت، إذ كانت اللغة اللاتينية هي اللغة المسيطرة، تستعمل في العبادة واوجه الثقافة الأخرى، رغم أن أحدا لم يكن يتحدث بها في حياته اليومية، بما في ذلك رجال الدين الذين كانوا يستخدمونها فقط في الصلوات والشعائر الدينية الأخرى.

وما أن بزغ عصر النهضة الأوروبية حتى بدأ اهتمام الشعوب المختلفة بلغاتها الخاصة، حتى تلك التي كانت مجرد لهجات متفرعة عن اللغة اللاتينية، يزداد بشكل واضح، ولكنهم، كما ذكرنا، وضعوا للغاتهم الجديدة قواعد مشابهة لقواعد اللغة اللاتينية رغم ابتعاد تلك اللغات الجديدة عن اللغة الأم ابتعادا قليلا أو كثيرا. كما عاد الاهتمام من جديد بالدراسات اللغوية العامة المتعلقة بطبيعة اللغة. ففي القرن الثامن عشر تبنى روسو

وكوندياك الفرنسيان وهردر الألماني نظرية الاصطلاحية في نشأة اللغة ودافعوا عنها دفاعا حارا. ثم بدأ الاهتمام أيضا بالدراسات المقارنة والتاريخية واشترك فيها عدد من مشاهير العلماء من أمثال راسك وجريم وفرنر. وامتد هذا النشاط واتسع مداه في القرن التاسع عشر الذي شهد دراسات أدت إلى الوصول إلى ما يمكن اعتباره اللغة الأم بالنسبة للغات الهندوأوروبية وذلك عن طريق دراسة التغيرات الصوتية واستنباط القوانين العامة التي تتحكم فيها.

فإذا هل القرن العشرون برز عالم كبير جدا من أعلام اللغة هو العالم السويسري فرديناند دي سوسير (Ferdinand de Saussure) الذي يعد بحق رائد طرق البحث الحديثة في علم اللغة. فمنذ ظهور كتابه «مساق في علم اللغة» بعد وفاته عام 1916 بدأ علماء اللغة يبتعدون عن الدراسات التاريخية والمقارنة ويركزون على الدراسات الوصفية ويهتمون بأصوات اللغة وقواعدها ومفرداتها في زمن معين بالذات، وهذا هو الطابع المميز للقرن العشرين. وقد لمعت أسماء كثيرة فيه سنشير إليها في المواضع المناسبة كما سنعرض أهم النظريات الحديثة التي ساهموا بها في الدراسات الحديثة.

هذا عرض سريع للغاية للدراسات اللغوية القديمة التي تغص بها رفوف المكتبات والتي لا نستطيع أن نخوض في تفاصيلها هنا[6].

5- الاتجاهات اللغوية المعاصرة:

أ- النصف الأول من القرن العشرين

لقد تميز القرن التاسع عشر إذا بالدراسات اللغوية التاريخية والمقارنة وكان الهدف الأساسي منها هو معرفة صلات القرابة بين اللغات المختلفة وبخاصة الأوروبية منها وتصنيف تلك اللغات بموجب تلك الصلات واستنباط بعض القواعد الصوتية والصرفية والنحوية التي اتبعتها تلك اللغات في الابتعاد عن اللغة الأم بحيث أمكن للعلماء تصور شكل تلك اللغة الأصلية التي انبثقت عنها جميع اللغات الهندوأوروبية. كما استطاع علماء ذلك العصر التوصل إلى تقسيم اللغات العالمية إلى اسر كبيرة يندرج تحت كل منها عدد من اللغات الحديثة كالأسرة الهندوأوروبية والأسرة السامية الحامية والأسرة الصينية التبتية والأسرة القوقازية وهكذا. لقد كانت تلك

الدراسات بوجه خاص هي أهم ما قدمه علماء اللغة إلى البشرية في القرن التاسع عشر.

أما القرن الحالي الذي يعتبر المنهج العلمي في البحث هو الطابع المميز له بالنسبة لفروع المعرفة المختلفة، فقد شهدت الدراسات اللغوية خلاله ثلاثة اتجاهات متعاقبة، يعتبرها الكثيرون ثورات فعلية، لان كلا منها قد طبع جميع الأبحاث التي تمت في حقبة معينة من الزمن بطابع موحد إلى حد كبير ومتميز عما سبقه ولحقه من الأبحاث. وقد ظهر في كل فترة من هذا القرن علم عملاق من أعلام اللغة كان رائد البحث فيها، ولذلك لا بد لمن يرغب في الاطلاع على الاتجاهات المعاصرة في الدراسات اللغوية أن يتعرف على تلك الاتجاهات الثلاثة وعلى رائد أو رواد كل منها.

لقد شهد الربع الأول من القرن الحالي حركات مشابهة إلى حد كبير في كل من أوروبا وأمريكا. إلا أن العلم الذي يعتبر بحق رائد البحث اللغوي الحديث هو العالم السويسري سوسير، فقد نشر له عام 1916 أي بعد وفاته بثلاث سنوات الكتاب الشهير «مساق في علم اللغة العام» (Cours de Linguistique Generale)[7] جمعت فيه محاضراته في ذلك العلم كما سجلها طلابه. لقد جسد سوسير في كتابه بعض الأفكار والاتجاهات في البحث اللغوي التي طبعت النصف الأول من القرن الحالي بطابعها. ولم يضاهه في الأثر أي كتاب آخر إلا بعد مرور اكثر من أربعين عاما، كما سنذكر بعد قليل.

فما الذي جعل من كتاب سوسير علامة بارزة على مفترق الطرق وما الذي جعل من صاحب الكتاب رائدا للمدرسة اللغوية الحديثة؟

لكي نستطيع الإجابة عن هذا السؤال لا بد لنا من أن نلقي نظرة سريعة على كتب قواعد اللغات الأوروبية التي كانت منتشرة في أوروبا حتى مطلع القرن الحالي والتي يطلق عليها الآن اسم القواعد التقليدية، وذلك لان معظم النظريات الحديثة وبخاصة في النصف الأول من القرن الحالي كانت ردود فعل لتلك القواعد. فما هي تلك القواعد وما هي مميزاتها؟

وقبل أن نبدأ الإجابة عن هذا السؤال علينا أن نفهم أن عبارة القواعد التقليدية التي يستعملها علماء اللغة الغربيون لا تعبر في الواقع عن منهج موحد استعمل في جميع العصور السابقة للقرن العشرين. بل ربما تدل

بشكل أصح على ذهنية معينة. فالقواعد التقليدية مزيج من المبادئ والأساليب التي ظهرت بأشكال مختلفة في عصور مختلفة واستخدمتها مدارس لغوية متعددة. ففي القواعد التقليدية مثلا آراء في تركيب الجملة ترجع إلى أفلاطون وارسطو وفيها نظريات عن أجزاء الكلام تعود إلى الرواقيين وفيها أفكار عن طبيعة المعنى انتشرت في بعض فترات القرون الوسطى، وفيها فرضيات عن علاقة اللغة بالعقل كانت شائعة بين فلاسفة القرن الرابع عشر وفيها آراء عن اللغة الصحيحة أو الفصحى منحدرة من قواعد وضعت في القرن الثامن عشر في إنكلترا وفيها دراسات عن تاريخ اللغة تعود إلى القرن التاسع عشر. فهي إذن خليط عجيب من الآراء والأفكار والنظريات المتحدرة من مدارس لغوية مختلفة عبر القرون في أوروبا[8].

وقد وجد فيها اللغويون المحدثون عيوبا كثيرا تسببت في رد الفعل العنيف الذي ظهر في النصف الأول من القرن الحالي بشكل خاص. فما الذي يميز تلك القواعد؟

يمكن إيجاز ذلك في أمرين: الأمر الأول يتعلق بمحتوى تلك القواعد والثاني يتعلق بطريقة العرض[9].

أما من ناحية المحتوى، فقد تميزت تلك القواعد بالصفات التالية:

- لقد كانت تلك القواعد مبنية على دراسة اللغة المكتوبة وبخاصة لغة كبار الأدباء، والقدماء منهم بالذات. وهذا يعني أولا إن تلك القواعد لم تكن تهتم باللغة المنطوقة التي كانت مستخدمة عند وضع القواعد والتي كانت تعتبر مسخا للغة الصحيحة، وبذلك تكون تحليلا للغة لا يستعملها عامة الناس ولا حتى المثقفون منهم. وثانيا، إن معايير الصحة والخطأ معايير مفروضة على الناس الذين يستعملون اللغة فعلا وليست نابعة من استعمالهم الفعلي لها. كما يعنى ذلك أيضا عدم العناية بالجوانب الصوتية للغة وهي التي تؤلف جزءا هاما جدا من نظامها العام والتي لا تستطيع أية لغة مكتوبة أن تعبر عنها تعبيرا كاملا. فلم يكن النظام الصوتي للغة يكوّن جزءا من كتب القواعد التقليدية، بينما هو الآن جزء أساسي منها.

- ثم أن تلك القواعد كانت تركز كثيرا على بعض النواحي اللغوية غير الهامة بينما تهمل جوانب أخرى أكثر أهمية، وكانت تعطى الوزن الأكبر للصرف وتهمل النحو إلى حد كبير، بالإضافة إلى إهمالها الكلي تقريبا

لنظام المعاني في اللغات، بالنسبة للمفردات والجمل على السواء.

أما من ناحية العرض، فان أهم ما يعيب تلك القواعد الأمور التالية:

- أنها لم تتخذ معايير معينة تبقى ثابتة عند بحث جميع الجوانب اللغوية، ولذلك فأنها، على الرغم من أنها تشبه احدث المدارس اللغوية المعاصرة من أنها تصور اللغة كمجموعة من القوانين أو القواعد، إلا أن طريقة الوصول إلى تلك القواعد لم تكن تعتمد على معايير واحدة دائما، ولذلك فان كثيرا من تلك القواعد ليست من النوع الذي يمكن الوثوق به والاعتماد عليه في جميع الحالات. وربما كان من أوضح الأمثلة على تلك معالجة القواعد التقليدية لأجزاء الكلام، فقد وصلت إلينا مثلا التعريفات التالية لبعض الأجزاء التي قسم الكلام إليها:

«الاسم هو ما دل على إنسان أو حيوان أو جماد». والمعيار الواضح هنا المستخدم في التعريف هو المعنى أي علاقة اللفظة بالعالم الخارجي. كما أن هذا التعريف لا يساعد طلقا على معرفة طريقة استعمال الاسم في الجملة. أما حرف الجر مثلا فقد عُرّف بأنه «كلمة تأتي قبل الاسم والضمير لتحديد علاقته بالكلمات الواردة قبله». وهنا استعمل معياران لا علاقة لهما بالمعيار الذي استعمل في تعريف الاسم، بل هما معياران لغويان تماما. الأول يشير إلى موقع حرف الجر بالنسبة لباقي الكلمات في الجملة، والثاني يشير إلى وظيفته. أن استعمال معايير مختلفة غير ثابتة من هذا النوع لا يساعد على تحليل أو وصف دقيق لأية لغة. فالمفروض هنا أن تستعمل معايير واحدة في تقسيم الكلام إلى أجزائه وأن تستعمل نفسها في تعريف جميع تلك الأجزاء.

- لقد اتخذت القواعد التقليدية للغات الحديثة قواعد اللغتين اليونانية واللاتينية نماذج لها، على الرغم من أن هاتين اللغتين لغتان إعرابيتان بينما معظم اللغات الحديثة ليست كذلك. فشكل الاسم في اللغة الإنكليزية مثلا لا يتغير إلا في حالة الإضافة فقط كما في The boy‘s hat بينما للاسم في اللغة اللاتينية ست حالات إعرابية مختلفة يتغير شكله في كل حالة منها. ومع ذلك فقد كانت كتب قواعد اللغة الإنكليزية التقليدية تعتمد تلك الحالات الست جميعا.

- كما أن تلك القواعد التقليدية كانت تعرض اللغة، لا كوحدة متكاملة

مترابطة، بل كأجزاء مبعثرة، وكان الاهتمام مركزا فيها على تلك القوانين أو القواعد التي تجنب الإنسان الخطأ، لا تلك التي تعطيه صورة متكاملة عن اللغة. بعبارة أخرى، لم تقدم تلك القواعد صورة وصفية متكاملة للغة، ولا نظرية مترابطة لها، بل قدمت بضع قوائم لتصريف الأسماء والأفعال وبضع إشارات مبعثرة لا تعين كثيرا على فهم النظام الذي تحمل تلك اللغة بموجبه.

- بالإضافة إلى ذلك، فقد كان أحد المعايير التي استخدمت في وضع القواعد التقليدية هو المعنى، وقد عانهم على ذلك عدد من المدارس اللغوية الحديثة وان كانت أحدث هذه المدارس قد عادت لاستخدامه، كما سنرى فيما بعد. إلا أن الطريقة التي استعملت فيها القواعد التقليدية هذا المعيار لم تكن طريقة منتظمة أو ثابتة ولذلك فقد كانت غير مجدية.

خلاصة القول هنا أن القواعد التقليدية كانت موضوعة للغات لم تكن مستعملة فعلا عند وضع تلك القواعد، ولذلك فقد كانت معيارية لا وصفية، واتخذت لغة الكتابة المتوفرة في الكتب الأدبية والدينية مثلا أعلى يقاس به الصواب والخطأ وأهملت الجانب الصوتي الهام من جوانب اللغة، ولم تقدم نظرية متكاملة للغة.

ولذلك فقد كان من الطبيعي أن يحين الوقت الذي يظهر فيه علماء لا يرضون عن هذا الوضع الذي استمر قرونا طويلة وكان سوسير أحد هؤلاء، ولذلك نعود إليه الآن لنرى ما قدم لنا، في ضوء هذه الصورة السريعة للقواعد التقليدية التي كانت سائرة حتى أيامه.

لقد ابتعد سوسير عن النظر في اللغات من وجهة النظر التاريخية أو المقارنة وأكد أن افضل منهج لدراسة اللغة هو أن نحاول وصفها كما هي في فترة زمنية محددة و أن نصل من هذا الوصف إلى القواعد أو القوانين العامة التي تحكمها أو نتوصل على الأقل إلى معرفة البنية أو التركيب الهيكلي لها. فابتعد بذلك عن المنهج السابق في تقعيد تلك القوانين بمحاولة إخضاع اللغات الحديثة لقواعد اللغتين اليونانية واللاتينية، كما بينا قبل قليل. وفي ضوء الصورة التي رسمناها للقواعد التقليدية، يمكن أن نفهم كيف أن نظرية سوسير كانت ثورة حقيقية على المفاهيم السائدة حتى عصره في أوروبا، وبالتبعية، في أمريكا أيضا.

وقد صادف أن كان في أمريكا في أوائل هذا القرن أيضا علماء مهتمون بعلم الأجناس (الانثروبولوجيا) من أمثال بوس (Boas) وسابير (Sapir) وبلومفيلد (Bloomfield) يقومون بدراسة لغات الهنود الحمر غير المكتوبة ويحاولون أن يكتفوا قواعدها. وقد وجد هؤلاء أيضا في المنهج الوصفي الطريقة الوحيدة للقيام، بعملهم، فأضافوا زخما قويا لما نادى به سوسير، وأصبح المنهج الوصفي هو طريقهم الوحيد في البحث اللغوي في تلك اللغات الجديدة عليهم. ثم قام بلومفيلد واتباعه بتطبيق ذلك المنهج على اللغة الإنكليزية وقام غيرهم بتطبيقه على اللغات الأوروبية الحديثة أيضا.

وقبل أن نستطرد فنقوم بشرح ما نعنيه بالمنهج الوصفي، نتابع أولا الكلام عن النواحي الفريدة الأخرى التي تميزت بها آراء سوسير.

لقد أكد سوسير على مظهرين لغويين آخرين هما: أولا البنية اللغوية أي التركيب الداخلي (من صرفي ونحوي) للغة على اعتبار أنه أهم مميزاتها، وأن التوصل إلى القواعد التي تتحكم فيه أهم بمراحل من أية دراسة لغوية أخرى. ثم أنه أكد أيضا على أهمية اللغة المنطوقة أو لغة الحديث على اعتبار أنها المظهر الأولى والأساسي للغة، وأن اللغة المكتوبة مظهر ثانوي، وأنفه على الرغم من أهمية المظهر الثاني، إلا أنه ليس اللغة الفعلية التي يتعامل بها الناس فيما بينهم، كما أن اللغة المكتوبة تختلف اختلافا كبيرا ومن جوانب عديدة عن لغة الحديث. فإذا تذكرنا ما أشرنا إليه قبل قليل من أن جميع كتب القواعد التقليدية في أوروبا كانت تتخذ اللغة المكتوبة معيارا للصحة والسلامة وتبني قواعدها على أساسها (وهذا ينطبق إلى حد كبير جدا على قواعد اللغة العربية حتى عصرنا هذا) استطعنا مرة أخرى أن نرى كم كانت نظريات سوسير ثورية في الوقت الذي ظهرت فيه.

لقد أكد سوسير أيضا، كما أكد سابير في أمريكا أن اللغة ظاهرة اجتماعية وأنها ينبغي أن تدرس على هذا الأساس. وأن الرموز الصوتية (أو الكتابية-أي الحروف) لا معنى لها بحد ذاتها، وان العلاقة بين الرموز والمعاني، على الرغم من أنها عشوائية، إلا أنها اصطلاحية اتفاقية ثابتة بالنسبة للغة الواحدة والمجتمع الواحد. لقد قال أن العلاقة قوية جدا بين لغة مجتمع ما وما يدور في خلد المتحدثين بتلك اللغة، أي انه قال بالعلاقة الوثيقة بين اللغة والفكر. وهو بهذا قد اخذ بمذهب النظرية الاصطلاحية

التي سيطرت على الدراسات اللغوية في القرن الحالي ولا زالت. فلما أنه بعث من جديد الجدار القديم بالنسبة لعلاقة اللغة بالفكر وهو الجدل الذي حمل لواءه من جديد أحد أعلام الفكر اللغوي في أمريكا هو بنيامين لي وورف (Benjamin Lee Whorf) في نفس الوقت تقريبا، وخرج على العالم بالفرضية المعروفة باسمه (The Whorfian Hypothesis) والتي تقول بأن اللغة تتحكم بالفكر وتوجهه وجهة معينة ليس بسبب من مفرداتها فحسب بل وبسبب شكل البنية الداخلية أيضا.

أما النظرية الهامة الأخرى التي طلع بها سوسير على العالم والتي كان لها أثر كبير في اتجاهات علماء اللغة في النصف الثاني من القرن الحالي في تمييزه بين مفهومين أو مظهرين للغة، دعا أحدهما (Langue) وهو ما يمكن أن نترجمه بتعبير اللغة أو اللسان باللغة العربية، ودعا الآخر (Parole) وهو ما يمكن أن نسميه الكلام أو الحديث.

أما الكلام فهو تلك اللغة التي يستعملها الناس في المجتمع الواحد. وهذا يختلف طبعا من شخص إلى آخر ومن فئة إلى أخرى اختلافا قليلا أو كثيرا، ولكن يربط بينها جميعا قواعد لغوية وسلوكية عامة تجعل منها لغة واحدة مفهومة في المجتمع الواحد.

أما اللغة فهي الظاهرة الاجتماعية الموحدة لمجتمع معين والتي يمكن عن طريق دراسة النماذج الكلامية الصادرة عن أفراد ذلك المجتمع الاهتداء إلى القواعد أو العوامل المشتركة التي تجعل منها لغة مشتركة بين جميع أفراد المجتمع المذكور. فهي بهذا المفهوم النموذج المثالي الذي يوجه كلام الأفراد والذي يحاول هؤلاء أن يظلوا ضمن ضوابطه اللغوية أو السلوكية لكي يكونوا مفهومين من سواهم.

وسنرى بعد قليل، كيف أخذ أحد مشاهير علماء اللغة في السنوات الأخيرة هذين المفهومين وطورهما ووجههما وجهة خاصة أثارت العشرات من التساؤلات ودفعت بالبحث اللغوي إلى آفاق جديدة.

أما آخر منجزات سوسير الهامة التي سنكتفي بالإشارة إلينا هنا، فهي عودته إلى مفهوم القواعد العامة لجميع اللغات (Universal Grammar) ذلك المفهوم الذي رأينا أنه يعزى إلى قدماء الإغريق والذي عاد إلى الحياة مرة أخرى في الآونة الأخيرة ودفع العلماء المعاصرين إلى مزيد من البحث

لإثباته أو دحضه، كما سنبين في فقرات لاحقة أن شاء الله.

في الولايات المتحدة أولا، ثم في العالم أجمع تقريبا، تميز النصف الأول من القرن الحالي بما يسمى بالمنهج اللغوي الوصفي التشكيلي (Descriptive Structural Approach) وكان لكتاب بلومفيلد «اللغة»[10] أكبر الأثر في الترويج لهذا الاتجاه في أمريكا. وقد شهدت تلك الفترة، وبخاصة بتأثير الحرب العالمية الثانية، زخما هائلا في الدراسات اللغوية اتصفت بعدة صفات مميزة يمكن إيجازها فيما يلي:

أولا: كان الاهتمام مركزا على التركيب الشكلي أو البنية الظاهرية للغة. وقد تم إنجاز كبير في وصف النظام الصوتي لعدد من اللغات الحديثة، واستعملت لذلك الأجهزة الحديثة التي أصبحت متوافرة في هذا القرن. كما وُصف النظامان الصرفي (أي التركيب الداخلي للمفردات) والنحوي (أي التركيب الداخلي للجمل) للعديد من اللغات وصفا تفصيليا في عددا من المؤلفات. وبعبارة أخرى يمكن القول أنه قد تم اكتشاف قواعد جديدة لكل لغة من اللغات الأوروبية الحديثة على وجه الخصوص، استنادا إلى الدراسات التي أجريت على عينة كبيرة من كلام الناس بتلك اللغة. فاختفت، أو كادت، تلك التسميات وحتى التقسيمات القديمة لأجزاء الكلام مثلا كما اختفى كثير من المفاهيم اللغوية التقليدية الأخرى واستبدل بتعابير ومفاهيم جديدة نابعة عن علاقة المفردات بعضها ببعض داخل الجمل، بغض النظر عن العالم الخارجي الذي تشير إليه المفردات والجمل.

ولذلك فقد أصبحت القواعد الجديدة لتلك اللغات قواعد وصفية لا معيارية فكل ما يقوله أغلبية الناس ويقبلون به كلام سليم بغض النظر عن اللغة المكتوبة التي تستعمل في الأدب وخلافه. فلم يعد هنالك معيار للصواب والخطأ مفروض عنى أفراد المجتمع، بل أصبح كل ما يقوله مجتمع معين يعتبر لغة سليمة لا غبار عليها وتستحق التسجيل في كتب القواعد. ولم يستبعدوا من ذلك إلا كلام السوقة، وأولئك الذين يتكلمون لهجات محلية خاصة بأفراد جماعة معينة أو حي معين أو مهنة معينة. (وحتى هذه أوجدت لها الدراسات الخاصة بها).

ثانيا: تأثر علماء اللغة في هذه الحقبة بالمذهب السلوكي في علم النفوس الذي كان سائدا في أوروبا وأمريكا، والذي كان يهتم بدراسة ظاهر السلوك

فقد على أساس أنه مكون من عادات مختلفة، تتكون عن طريق المؤثر والاستجابة والثواب وتتكرر حتى يثبت الصحيح أو المتعارف عليه منها فيتخذه الإنسان في حياته. وقد أجرى كثير من هؤلاء العلماء مثل ثورندايك في أمريكا وبافلوف في روسيا التجارب العديدة على الحيوانات لإثبات نظرياتهم.

وقد ظهر تأثر علماء اللغة بهذا المذهب بأنهم أخذوا ينظرون إلى اللغة على أنها مجموعة من العادات كغيرها من العادات السلوكية الأخرى وبناء على ذلك فان من الممكن دراسة تركيبها من ناحية وتعليمها من ناحية أخرى على هذا الأساس. وكان من أشهر من قال بذلك العالم الشهير سكينر (Skinner) الذي كان يحمل في جامعة هارفارد حتى توفى قبل سنوات قلائل، وهو صاحب الكتاب الشهير «السلوك اللغوي»[11]. وقد كان لهذا الأثر بمذهب علم النفس السلوكي نتيجتان:

أولاهما: النظر إلى ظاهر اللغة ودراسة ذلك الظاهر فقط مثلها في ذلك مثل أية عادة سلوكية أخرى.

وثانيتهما: إهمال دراسة المعنى، على اعتبار أنه ليس مظهرا خارجيا يمكن النظر فيه بالمنهج العلمي الموضوعي المستخدم في العلوم الطبيعية. لقد أهمل اللغويون هذا الجانب الأساسي من جوانب اللغة وبذلك جردوها من أهم مظهر من مظاهرها وأهم هدف من أهدافها.

ثالثا: ركز اللغويون في هذه الفترة كل اهتمامهم على اللغة المنطوقة وأهملوا اللغة المكتوبة إهمالا كبيرا. لقد اعتبروا اللغة نظاما صوتيا بالدرجة الأولى وصبوا كل اهتمامهم على هذا النظام، على اعتبار أنه المظهر الأول والأساسي للغة.

رابعا: ونظرا للتركيز على ظاهر اللغات، فقد قامت دراسات مقارنة من نوع جديد من حيث المنهج والهدف، تختلف تماما عما كان يجرى في القرن الماضي. فقد كان منهج البحث هو مقارنة ظاهر لغتين معينتين لإيجاد أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بينهما من النواحي الصوتية والصرفية والنحوية. وكان الهدف منها هو التوصل إلى أفضل الطرق لتعليم اللغات الأجنبية وكانت النظرية السائدة أن نقاط الاختلاف بين اللغة الأصلية واللغة الأجنبية التي يرغب الطالب في تعلمهما، هي التي تشكل العقبة الرئيسية في سبيل

إتقانها، ولذلك فهي التي ينبغي على الدارس والمدرس إبلاؤها أكبر قسط من العناية والاهتمام. لقد ظهرت في هذه الفترة دراسات مقارنة عديدة لظاهر اللغات الأوروبية الحديثة وبعض اللغات الحية الأخرى، بما في ذلك اللغة العربية، لها قيمة بحد ذاتها، بغض النظر عن الهدف الذي ترمي إليه.

خامسا: على الرغم من النزعة العقلانية، التي سنتكلم عنهما بعد قليل والتي سيطرت على النصف الثاني، أو على الأصح، على الربع الثالث من القرن الحالي، فان طابع الدراسات اللغوية في هذا القرن كان وما زال هو المنهج العلمي التجريبي الذي يشبه المنهج المستخدم في العلوم الطبيعية الأخرى-وهذا أيضا من تأثير التقدم العلمي الهائل في القرن الحالي-فلم يتقدم أحد بنظرية أو فرضية إلا خضعت للدراسة العلمية المنظمة وجرت عليها عشرات التجارب لإثبات صحتها أو لدحضها.

سادسا: للمرة الأولى في تاريخ الدراسات اللغوية ينصبّ علماء اللغة من أنفسهم حكاما لأراد لكلمتهم في أمور تطبيقية تربوية تعليم اللغات الأجنبية. فهم لم يكتفوا بوصف اللغات من الناحية النظرية وبمقارنة اللغات بعضها ببعض، بل تدخلوا تدخلا مباشرا في تجهيز المواد التعليمية وتأليف الكتب الدراسية وفرض الطريقة التي يجب أن تدرس بها تلك اللغات، والوسائل المعينة التي يمكن استعمالها معها-وربما لم يكن هذا التطور من اختيارهم لان السلطات العسكرية الأمريكية هي التي طلبت منهم القيام بذلك في خلال الحرب العالمية الثانية، ولكن هذا هو ما حدث وما زال يحدث حتى يومنا هذا-. وسنرى في الفصل الأخير من هذا الكتاب أن ذلك التدخل في اختصاص التربويين لم يكن دائما في صالح تعليم اللغات.

هذه هي الاتجاهات التي ظلت سائدة خلال النصف الأول من القرن الحالي. وقد غطت على بعض المحاولات الأخرى التي اتخذت مسارات مغايرة، وخاصة في أوروبا، وتركت أثرها في كل مكان في العالمين المتطور والنامي وخاصة في مجال تعليم اللغات الأجنبية. وسنأتي على تفصيل أكثر لهذه النقطة فيما بعد.

ب- النصف الثاني من القرن الحالي:

أما النصف الثاني من القرن الحالي فقد بدأ بكتاب يعتبر رد فعل عنيف وثورة فعلية على المنهج والمفاهيم التي سادت النصف الأول من

القرن. الكتاب هو «التراكيب النحوية»[12]. وتاريخ صدوره هو عام 1957. أما مؤلفه فهو علم من أعلام الفكر في العصر الحديث يدعى نوم تشومسكي (Noam Chomsky) اعتبر واحدا من بين ألف عالم صنعوا حضارة القرن العشرين. فقد أتى تشومسكي بنظريات عن طبيعة اللغة ومنهج دراستها وطريقة اكتساب الطفل لها لا زالت حتى يومنا هذا مدار الدراسة والبحث والجدل والتجريب لدى معظم علماء اللغة في العالم الغربي بوجه خاص، وفي العالم بأسره بوجه عام.

يقول تشومسكي انه قد تأثر بآراء المدرسة الفلسفية العقلانية التي سادت القرن السابع عشر والتي كان الفيلسوف ديكارت من اشهر أعلامها. ولذلك فقد كانت 2 راؤه عن طبيعة اللغة عميقة للغاية ومناقضة تماما للسطحية التي تميزت بها آراء أسلافه المباشرين في النصف الأول من القرن الحالي، وأثارت ولا زالت تثير من الجدل ما لم يعرف له مثيل في التاريخ من قبل.

كان من أهم ما قام به تشومسكي في حياته العلمية المبكرة في علم اللغة هجومه الساحق المدمر على آراء سكينر التي عرضها في كتابه «السلوك اللغوي»[13]. ودحض جميع الأسس التي قامت عليها تلك الآراء والنظريات. فبينما كان سكينر، كما رأينا، يؤمن، بناء على التجارب المخبرية على الحيوانات، بأن اللغة لا تعدو أن تكون عادة اجتماعية مثلها في ذلك مثل سائر العادات الاجتماعية الأخرى، وأن اكتسابها يتم بنفس الطريقة أي عن طريق المحاولة والخطأ، أثبت تشومسكي في هجومه أمرين:

الأمر الأول: أن لا علاقة إطلاقا بين سلوك الفئران في صناديق التجارب في المختبرات وبين اللغة البشرية، والسبب بسيط وواضح جدا وهو أن اللغة من اختصاص البشر وان جميع وسائل الاتصال الأخرى التي تستعملها الحيوانات، والتي ندعوها تجاوزا بلغات الحيوان، وسائل قاصرة للغاية، ولا تتمتع بالعناصر الأساسية التي تكون لغة الإنسان (وقد ثبت ذلك من تجارب سابقة لآراء تشومسكي، ومن التجارب اللاحقة والتي أجريت ولا زالت تجرى حتى يومنا هذا).

أما الأمر الثاني: فهو أن فهم سكينر لطبيعة اللغة فهم خاطئ من أساسه. فبينما يعتبر سكينر اللغة مجموعة من العادات الظاهرية التي

تتكون لدى الإنسان نتيجة للاستجابات المتواصلة للمؤثرات الخارجية دونما حاجة إلى جهاز فطري أو عقلي خاص يعين على ذلك، ويعتقد بإمكانية التنبؤ بالسلوك اللغوي للفرد عن طريق دراسة المؤثرات الخارجية التي تحيط به، أوضح تشومسكي بأن سكينر ليس في موقف من يستطيع الحديث عن مسببات السلوك اللغوي ما دام لا يعرف طبيعة ذلك السلوك[14]. وفي رده على آراء سكينر بدأ تشومسكي يحاول الكشف عن طبيعة اللغة ومميزاتها، واتبع ذلك سلسلة من الأبحاث خرج منها بنتائج تفصيلية عن البنية الداخلية للغة ومدى تعقيدها لم يستطع أحد حتى الآن تفنيدها رغم العدد الكبير جدا من الدراسات والتجارب التي أجراها علماء اللغة وعلماء النفس ولا زالوا يجرونها في معظم بلدان العالم المتحضر، بل أن معظم هذه التجارب تؤيد حتى الآن تلك النتائج تأييدا كبيرا.

فما الذي أتى به تشومسكي إذا وكان له ذلك الأثر البالغ في الدراسات اللغوية المعاصرة؟ أن من الصعب جدا حصر ما ساهم به هذا العالم الفذ في صفحات معدودات، خاصة وان كثيرا من آرائه ذات طابع فلسفي وسيكولوجي بالإضافة إلى الطابع اللغوي، وانه استعمل للتعبير عن آرائه تعابير فنية خاصة جدا ليست مفهومة لدى غير المتخصص. ومع ذلك فسنحاول أن نعطي فكرة مبسطة للغاية هنا، على أمل أن نعود إلى شيء من التفصيل في موضع آخر من هذا الكتاب.

لقد أخذ تشومسكي بتقسيم سوسير للغة إلى لغة وكلام[15] وأطلق على الظاهرة الأولى تعبير (competence) وعلى الثانية تعبير (performance) اللذين سنستعمل لهما نفس المرادفين العربيين المذكورين سابقا. و قد قصد بالتعبير الأول أي اللغة تلك القدرة التي تتكون لدى كل فرد من أفراد مجتمع معين والتي تمكنه من التعبير عما يريد بجمل جديدة ربما لم يسمعها من قبل، أي التي تمكنه من تكوين ما يريد من الجمل الجديدة في المناسبات المختلفة رغم أنه ربما لم يسمع تلك الجمل في حياته قط. ويسمي تشومسكي هذه القدرة «المعرفة اللغوية» ويعتقد بان أهم مقومات هذه القدرة هي معرفة الفرد بالقواعد الصرفية النحوية التي تربط المفردات بعضها ببعض في الجملة، بالإضافة إلى معرفة مجموعة أخرى من القواعد، أطلق عليها اسم القواعد التحويلية (Transformational Rules) تعمل على البنية الباطنية العميقة

للجملة-وهي البنية التي تحمل المعاني-فتحولها إلى الشكل الخارجي الذي يعبر عنه بالأصوات. أما التعبير الثاني أي الكلام فيقصد به تلك الأصوات اللغوية التي ينطقها الفرد بالفعل والتي قد لا تكون صورة صحيحة للغة لان فيهما الكثير من التردد والتكرار والتوقف ومخالفة القواعد اللغوية والجمل المبعثرة الخ-بحكم الظروف التي تحكم الكلام الفعلي.

وبتعبير آخر، فان الفرق بين اللغة والكلام هو أن «الكلام عمل، واللغة حدود هذا العمل، والكلام سلوك واللغة معايير هذا السلوك، والكلام نشاط واللغة قواعد هذا النشاط، والكلام حركة واللغة نظام هذه الحركة، والكلام يحس بالسمع نطقا وبالبصر كتابة، واللغة تفهم بالتأمل في الكلام. فالذي نقوله أو نكتبه كلام والذي نحس به هو اللغة، فالكلام هو المنطوق وهو المكتوب واللغة هي الموصوفة في كتب القواعد وفقه اللغة والمعجم ونحوها، والكلام قد يحدث أن يكون عملا فرديا ولكن اللغة لا تكون إلا اجتماعية»[16].

وخلافا لما نادى به أنصار المدرسة الوصفية التشكيلية السابقون من أن مهمتهم تنحصر في النظر إلى ظاهر اللغة، أي إلى الكلام الذي يقوله الأفراد، ووصف ذلك الكلام، فقد رأى تشومسكي بأن هذه ليست مهمة عالم اللغة، بل أن عليه أن يعمل على استنباط القواعد التي تكون أساس اللغة والتي ليس من الضروري ولا من الواقع الفعلي أن يتقيد الفرد بها دائما في كلامه. وانه إذا أريد لتلك القواعد أن تكون ذات قيمة فعلية، فينبغي أولا أن تغطي اللغة بأكملها، كما ينبغي أن تتمكن هذه القواعد من توليد أو خلق جميع الجمل الصحيحة في لغة معينة بلا استثناء، وإلا تسمح بخلق غير تلك الجمل، أي أنها يجب أن تمنع تكوين جمل غير صحيحة لغويا أو غير مقبولة من الناطقين الأصليين بتلك اللغة. (وهؤلاء هم الذين يعتبرهم تشومسكي الفيصل في الحكم على تلك الجمل من حيث كونها مقبولة أم غير مقبولة).

وقد دفع تشومسكي إلى معارضة الاقتصار على بحث ظاهر اللغة فقط، بالإضافة إلى ما ذكرناه، أن ظاهر اللغة يمكن أن يكون خداعا إذا نظرنا إلى المعنى الذي يؤديه. فمن الممكن جدا أن تتشابه جملتان تشابها تاما من حيث المظهر أو التركيب الخارجي بينما تختلفان جذريا في المعنى، كما في الجملتين التاليتين مثلا:

- صراخ المجرم لم يؤثر في الناس
- عقاب المجرم لم يؤثر في الناس

فالجملتان من حيث الشكل الخارجي متشابهتان تماما، ونحن نعربهما فعلا بنفس الطريقة تماما، ففي الجملة الأولى «صراخ المجرم» مضاف ومضاف إليه، والمضاف مبتدأ: كما هي الحال في «عقاب المجرم» في الجملة الثانية، وخبر كل منهما الجملة الفعلية «لم يؤثر في الناس». ففي الجملتين علاقة المفردات بعضها ببعض متشابهة، وكذلك علاقة الجزأين الرئيسيين أي المبتدأ والخبر. ومع ذلك فالمعنيان يختلفان اختلافا جذريا. فإذا نظرنا إلى معنى الجملة الأولى فهمنا أن المجرم هو الذي صرخ أي هو الفاعل الحقيقي لفعل الصراخ، أما في الجملة الثانية فان المجرم هو المفعول به الحقيقي لفعل العقاب لان العقاب نزل به.

لقد وجد تشومسكي أيضا أن هنالك كثيرا من الجمل التي تحتمل معنيين-مختلفين لا يميز الشكل الخارجي بينهما فالجملة التالية مثلا:

كان عقاب عليّ صارما

غير واضحة خارج السياق، فلسنا ندري أن كان علي هو الذي عاقب إنسانا آخر أم أن إنسانا آخر هو الذي عاقب عليا.

لقد دعت هذه الجمل وأمثالها تشومسكي لان يقول بأن لكل مبنى ظاهري أو خارجي (surface structure) وهو الذي يقال فعلا، مبنى باطنيا عميقا (Deep structure) هو الذي تكون العلاقات المعنوية فيه واضب تماما. ففي الجملتين السابقتين مثلا، يختلف المبنى الباطني العميق لكل منهما عن الآخر، ويمكن القول بأن الجملة الأولى تتألف من المبنيين العميقين التاليين:

- المجرم صرخ

الصراخ لم يؤثر في الناس

بينما المبنيان العميقان للجملة الثانية يمكن أن يكونا:

- بعضهم عاقب المجرم

العقاب لم يؤثر في الناس

وهكذا تساعد الأبنية العميقة على توضيح علاقات المعاني بين مكونات الجملة.

أما الذي ينظم العلاقة بين المبنى العميق والمبنى الخارجي الظاهر فهو تلك القواعد التي تطبق على الأولى فتحولها إلى الثانية. وقد أطلق على هذه القواعد اسم القواعد التحويلية (Transformational Rules) وأصبحت مجموعة القواعد الصرفية النحوية الصوتية المعنوية التي طلع بها تشومسكي تسمى «القواعد التحويلية» (Transformational Grammar)[17]. أن عودة تشومسكي إلى اللغويين التقليديين الذين أهملهم أسلافه المباشرون، وإدخاله لعنصر المعنى في استنباط القواعد اللغوية مناقض تماما لما فعله أنصار المدرسة الوصفية التشكيلية التي سبقته والتي استبعدت المعنى استبعادا كاملا على أساس أنه ليس من اختصاص أهل اللغة.

أما نظرية الخلق أو الابتكار التي قال تشومسكي أنها متوفرة عند من يتكلم لغة معينة فهي أيضا ثورة كاملة على أنصار تلك المدرسة الذين كانوا ينادون بأن دارس اللغة طفلا كان أم راشدا يبدأ بتعلم تلك اللغة وذهنه صفحة بيضاء ينقش عليها النماذج اللغوية التي يتعلمها، وعند الحاجة يلجأ إلى ذلك المخزون ويختار النماذج التي تناسب المقام. ولم يكتف تشومسكي بدحض تلك المزاعم واثبات نظريته القائلة أن الطفل يكتسب لغة الأم عن وعي وإدراك حتى في سنه المبكرة جدا، وانه حالما يستوعب القواعد المختلفة التي تعتمد عليها اللغة، تتكون عنده القدرة على الخلق، أي على تركيب الجمل المختلفة التي يريدها في الوقت والظرف المناسبين دون أن يكون بالضرورة قد سمع تلك الجمل وحفظها ممن حوله، بل لقد ذهب تشومسكي إلى أبعد من ذلك فقال بأن الطفل لا يولد وذهنه صفحة بيضاء بل يولد ولديه قدرة فطرية على تعلم أية لغة من لغات العالم. وقد شرح تلك القدرة الفطرية بأنها بالنسبة للطفل الوليد، تتألف من معرفة مسبقة لتلك القواعد العامة التي تقوم على أساسها جميع لغات العالم، وان ذلك الطفل لا يكتسب اللغة عن طريق السماع والمحاكاة والحفظ فحسب، بل انه يحاول أن يضع ما يسمعه من كلام اللغة التي يعيش بين أهلها، في القوالب العامة لجميع اللغات التي ولد بها، فالطفل لا يكون عنصرا سلبيا، بل عنصرا إيجابيا جدا يستعمل محاكمات عقلية في أثناء اكتسابه اللغة.

وهكذا يكون تشومسكي قد عمل على إحياء نظرية القواعد العامة أو الواحدة لجميع اللغات، تلك النظرية التي نادى بها الإغريق القدماء من

قبل، كما نادى بها سوسير، كما أشرنا سابقا. إلا أن تشومسكي لم يترك هذه المسألة مجرد نظرية هائمة، كما أنه لم يلجأ إلى المنطق كما فعل القدماء، بل حاول أن يتوصل إلى تلك القواعد اللغوية العامة التي تحكم اللغات جميعا، واهتدى بالفعل إلى بعضها واعترف جميع علماء اللغة له بذلك، كما قام بعض أنصاره بإتمام ما بدأه في هذا المجال.

هذا بعض من فيض ما قدمه تشومسكي لا لعلم اللغة فحسب بل ولعلوم أخرى كثيرة كعلم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة وعلم الأجناس أيضا. ومن يطالع ما قدمه علماء اللغة والمختصون في علم النفس اللغوي بوجه خاص في ربع القرن الماضي وحتى الآن يجد أن جميع أبحاثهم تقريبا تدور في فلك ما قدمه تشومسكي، بين من يحاول إثبات نظرياته وتطويرها-وهم الأغلبية-ومن يحاول دحضها من الناحية الأخرى. كما يلاحظ أن جميع تلك المحاولات تقريبا قد اتخذت التجريب لا الجدل النظري منهجا لها.

جـ- الدراسات اللغوية الاجتماعية:

لقد رأينا أن أولى المدارس اللغوية الهامة في القرن الحالي هي المدرسة الوصفية التشكيلية، وقد اعتبرت هذه المدرسة الوحدة الصوتية اصغر وحدة لغوية ومنها انطلقت إلى الكلمات التي تتألف من تلك الأصوات، ومن ثم وصلت إلى الوحدة الأكبر التي تتألف من هذه الكلمات وهي الجملة، وتوقفت في بحثها عندها.

أما تشومسكي فقد بدأ بالجملة باعتبارها أهم وحدة لغوية وانطلق منها إلى المعاني من جهة والى الأصوات من جهة أخرى، واعتبر هذا الشكل الأخير، أي أصوات الجملة الفعلية، آخر مظهر من مظاهر اللغة لأنه الشكل الخارجي الظاهر المستعمل فعلا في عملية الكلام، على أساس أنه الناتج النهائي لعمليات كثيرة أخرى.

ولكن في نفس الوقت الذي أطلق فيه تشومسكي نظرياته كانت هنالك مدرسة أخرى أخذت الجانب الاجتماعي من اللغة وأولته عناية خاصة. وهذا هو أحد الجوانب الهامة التي ركز عليها رواد هذا القرن من اللغويين من أمثال سوسير والتي أهملها أنصار بلومفيلد والمدرسة الوصفية التشكيلية كما أهملها تشومسكي وأنصاره على أساس أنها ناحية تتعلق بالكلام الفعلي لا باللغة التي كانوا يعملون على استنباط قواعدها.

أن أنصار هذه المدرسة التي يمكن أن نطلق عليها اسم المدرسة اللغوية الاجتماعية (والتي يشارك في أبحاثها عالم اللغة كما يشارك فيها عالم الاجتماع وعلماء الأجناس والمتخصصون بعلم النفس الاجتماعي)[18] لا ينتقصون من قدر ما قامت به المدارس اللغوية السابقة من محاولة استنباط القواعد التي تحكم تكوين الجمل، ولا يهملون هذه الناحية اللغوية الصرفة، بل هم يستفيدون منها فعلا، إلا انهم يعتقدون بأن أصحاب هاتين المدرستين الرئيسيتين اهتموا بالتركيب الداخلي للغة أكثر مما ينبغي وانهم في نفس الوقت قد أهملوا جانب الاستعمال الفعلي للغة في إطار المجتمع، وما يمكن أن يفرضه ذلك المجتمع من الضوابط والقيود على مستعملي تلك اللغة. وبما أن المعنى بأبعاده المختلفة هو ما يهدف المتكلم إلى إيصاله إلى أفراد المجتمع الآخرين، فقد ركز بعض أنصار هذه المدرسة أيضا على المعنى، وبدءوا بتحليل المفاهيم العامة والخاصة التي يرغب كل إنسان أينما كان في هذا العالم في التعبير عنها عن طريق اللغة. ثم أخذوا يدرسون الوظائف العامة والخاصة التي يؤديها كل تركيب لغوي ومن ثم انطلقوا إلى إيجاد الصيغ والتراكيب اللغوية التي يمكن أن تعبر عن تلك الوظائف، ضمن إطار كل من المفاهيم أو المعاني العامة. وهم يفعلون ذلك باستعمال نفس المنهج العلمي الذي يميز جميع الدراسات في القرن الحالي، ولذلك فهم يحاولون أن يتوصلوا إلى القواعد أو الضوابط التي تحكم الاستعمال الفعلي للغة في المجتمع، ومعرفة ما هو عام منها ينطبق على المجتمعات المختلفة وما هو خاص بمجتمع معين مع اختلاف طفيف أو كبير عنه في المجتمعات الأخرى.

ولكي لا يكون كلامنا ضربا من المعميات، فسنقوم بتوضيحه بشكل مبدئي جدا هنا، فنقول إن اللغة لا تستعمل في فراغ. بل هنالك أمران يحكمان الاستعمال اللغوي، أولهما السياق اللغوي نفسه الذي لا تأخذ المفردات معانيها بمعزل عنه. فأنت إذا بدأت جملة بقولك:

أكل علي....

وقبل أن تتم الجملة، فان السامع يتوقع في الحال أن تتم جملتك باسم يدل على نوع من الطعام، ولكن المعنى الحقيقي لما تم النطق به من الكلام لا يتأتى إلا بإتمام الجملة، فإذا كنت تتكلم باللهجة المصرية مثلا وأتممت الجملة بقولك:

أكل علي علقة

فقد خاب ظن السامع، وتغير فهمه لمعنى كلمة «أكل» تغييرا كبيرا، فقد اصبح معناها «أصاب أو نزل (بعلي) سوء» ولننظر إلى الجمل التالية- بعضها بالعربية الفصحى وبعضها بالعامية-لنرى كيف يكتسب الفعل «أكل» معاني مختلفة لوقوعه في سياقات لغوية مختلفة:

أكل علي طعامه

أكل علي مال اليتيم

أكل علي أصابعه ندما

أكل علي ضربة على رأسه

أكلني جلدي أن رأسي

أكلت السكين اللحم

علي يأكل عمره

علي يأكل لحوم الناس

أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا (قرآن كريم)

أكل علي علقة

أكل علي هوا

(وباستطاعة القارئ أن يضيف الكثير إلى هذه الجمل).

هنالك إذن السيد اللغوي (Verbal Context) الذي يحدد معاني المفردات والذي بدونه لا يتم ذلك. ولكن هنالك أيضا قرينة اخرى هي الموقف أن المناسبة التي يقال فيها الكلام والتي أطلق عليها اللغويون العرب عبارة المقام فقالوا «لكل مقام مقال»، وهذا بالطبع يؤثر في معنى الجملة كلها تأثيرا كبيرا.

وعناصر هذا المقام عديدة أولها المتكلم نفسه: هل هو ذكر أم أنثى؟ صغير السن أم كبير؟ واحد أم اثنان أم جماعة أم جمهور؟ وما هو جنسه ودينه وشكله الخارجي ونبرة صوته ومكانه الاجتماعي إلى أخر هذه الصفات التي تميزه عن غيره. وهذا ينطبق على المستمع وأيضا ويشمل إضافة إلى ذلك علاقته بالمتكلم من حيث القرابة أن الصداقة أو المعرفة السطحية أو عدم المعرفة أو اللامبالاة أن العداوة، أو المركز الاجتماعي أو المالي أو السياسي الخ. ومن عناصر المقام أيضا موضوع الكلام، وفي أي جو يقال

وفي أي مكان وأي زمانا؟ وكيف يقال، وما الداعي لقوله، وغير ذلك من العناصر الكثيرة جدا التي يؤثر كل منها تأثيرا مباشرا على كيفية قول الكلام وعلى تركيبه وعلى معانيه وعلى الغرض من قوله.

هذه هي أحدث مدرسة لغوية، أو لنقل لغوية اجتماعية، وهي تعمل بنشاط ودأب للإجابة على السؤال الهام «كيف تعمل اللغة في المجتمعات المختلفة؟» وهي المدرسة التي يبدو أن أبحاثها ودراستها ستكون هي السائدة فيما تبقى من القرن الحالي. وبما أنها لا زالت في الطور الذي تحاول أن تبلور فيه أفكارها فلن نتعرض لها بتفصيل اكثر في هذا الكتاب.

لقد استعرضنا في هذا الفصل نوعية الدراسات وأهم الاتجاهات في الأبحاث اللغوية التي سيطرت ولا زالت تسيطر على الجو العام في القرن الحالي كما بينا المنهج العام للبحث الذي اتخذته تلك الدراسات كما أعطينا فكرة سريعة عن مدى الاتساع والتشعب الذي وصلت إليه الأبحاث اللغوية.

وقبل أن ننتقل إلى الفصل التالي، الذي سنبحث فيه طبيعة اللغة، نرى واجبا علينا أن نوضح ما عنينا بقولنا أن منهج البحث في القرن الحالي كان منهجا علميا، وذلك بالنظر إلى النزعة العقلانية التي ذكرنا أنها ظهرت في الربع الثالث من هذا القرن، لنرى أن كان كلامنا عن المنهج العلمي يشملها أيضا، وإذا لم يكن الأمر كذلك فهل يجب علينا أن نعدل في المقومات التي تحدد المنهج بحيث تشمل تلك النزعة الحديثة؟ هذا ما تحاول القيام به في الصفحات الباقية من هذا الفصل.

6-المنهج العلمي ومدى انطباقه على الدراسات اللغوية الحديثة:

لقد رأينا كيف بدأت المدرسة اللغوية الوصفية التشكيلية بمحاولة تمثل روح العصر واقتباس الأساليب العلمية في البحث والدراسة، لاستخدامها في وصف اللغات، كما رأينا كيف أنها نجحت في استخدام المنهج العلمي في دراسة ظاهر اللغة، وكيف أدى بها ذلك إلى الاستغناء عن الجوهر وهو المعنى والى فقدانها الكثير من أصالة الدراسة اللغوية المجدية التي يمكن أن تؤدي للوصول إلى صياغة نظرية متكاملة مترابطة لطريقة عمل وتداخل الأنظمة اللغوية المختلفة.

ثم رأينا بعد ذلك كيف أتت مدرسة القواعد التحويلية فأدخلت عنصر

المعنى ونظام المعاني كأحد الأسس التي يجب أن تدخل في نطاق أية دراسة لغوية، واعتمدت على قدرة أصحاب اللغة الأصليين على تمييز الخطأ من الصواب وعلى معرفة مواطن اللبس في بعض الجمل والتراكيب عن طريق حسهم الداخلي الذي يسمونه بالإنكليزية (intuition) والذي لا يعتبره العلماء الطبيعيون عنصرا موضوعيا يمكن الاعتماد عليه في البحث العلمي. أن استعمال المعنى واستخدام الحس الداخلي للفرد في نظرية أصحاب هذه المدرسة واتخاذهم الاتجاه العقلاني في أبحاثهم يجعلنا مضطرين لدراسة مقومات ما يسمى بالمنهج العلمي لنرى كيف وهل يمكن التوفيق بينه وبين منهجهم هذا. فما هي مقومات المنهج العلمي؟

دافيد كريستال، أستاذ علم اللغة في جامعة ردنج بإنكلترا يلخص مقومات المنهج العلمي بثلاث هي الوضوح التام (explicitness) والانتظام مع الثبات (systematicness) والموضوعية (objectivity)[19] فماذا تعني كل من هذه الصفات؟

أما الوضوح فيعتمد على عدة أمور تشترك فيها الدراسات العلمية جميعا كوضوح الفرضيات التي يعتمد عليها البحث، ووضوح الخطوات المتوسطة وخاصة إذا كانت فرضيات أخرى تعتمد عليها، ووضوح المصطلحات أو التعابير الفنية واستعمال كل منها بمعنى واحد طيلة فترة البحث. ومع أن البحث اللغوي يشترك مع العلوم الأخرى في هذه الخاصية ومكوناتها المختلفة إلا أن هنالك أمورا خاصة به على الباحث أن يكون على بينة منها لكي لا يضل الطريق فيجد نفسه يتعامل مع معميات غير واضحة. ولنأخذ بعض الأمثلة على ذلك.

فهنالك مشكلة المصطلحات أو التعابير الفنية التي تتألف عادة من مفردات أو عبارات خاصة جدا ينبغي أن تحدد معانيها بشكل دقيق وواضح للغاية حتى لا تلتبس مع ما يمكن أن يفهم منها عند استعمالها استعمالا عاديا بين عامة الناس-إذا حصل ذلك بالنسبة لبعضها-. ومعظم هذه المصطلحات تداولها لغويون ينتمون إلى مدارس مختلفة، وعرفوا معانيها بأشكال وطرق شتى، ولذلك فان من الضروري أن يوضح الباحث اللغوي توضيحا لا لبس فيه على الإطلاق ما يعنيه بكل من تلك المصطلحات التي يستخدمها. فماذا يعني المصطلح «كلمة» أو «جملة» أو «ظرف» أو «اسم» أو

«حرف علة» الخ؟ لقد انحدر إلينا في بعض الأحيان أكثر من مائتي تعريف مختلف لمصطلح واحد من العصور التاريخية المختلفة، كما هو الحال مع مصطلح «الجملة» مثلا. وكذلك تعريف مصطلح «الكلمة» فقد اعجز الباحثين حتى الآن، مما حدا ببعضهم أخيرا إلى استعمال المصطلحين بالمعاني الشائعة لهما بين عامة الناس، ومما حدا ببعضهم الآخر إلى الاستغناء عن عبارة «كلمة» مثلا واستبدالها بعبارة «المورفيم» التي وردت الإشارة السريعة إليها سابقا.

وتحديد معاني هذه المصطلحات الفنية يفترض أننا نتمسك بأمرين: أولهما هو الثبات على المصطلح المعين بنفس المعنى خلال البحث اللغوي بأكمله وثانيهما، يتعلق بالمعايير التي يجري تحديد معنى المصطلح بموجبها. ومن الأمثلة التي تعطى عادة على معايير غير دقيقة أو غير علمية لأنها تعتمد على مفاهيم غامضة ذلك التعريف التقليدي للجملة بأنها «مجموعة من الكلمات تتألف من مبتدأ وخبر وتؤدي معنى تاما». فهذا التعريف يعتمد أولا على مفاهيم يجب أن تكون محددة سلفا مثل مفاهيم «الكلمة-المبتدأ-الخبر-المعنى التام» وهي من المفاهيم التي يعسر تحديدها، ولكن لا يجوز أن تؤخذ كمسلمات يعتمد عليها أي تعريف يقصد به التحديد والتوضيح. أما الأمر الآخر في هذا التعريف فهو انه يعتمد على نوعين من المعايير: المعيار الأول لغوي، أي أن له علاقة مباشرة باللغة أو يعتمد على اللغة نفسها لكل رئيسي، والمفاهيم الثلاثة الأولى المذكورة أعلاه تنتمي إلى هذا النوع. أما المعيار الآخر وهو «المعنى» فيعتمد على العالم الخارجي، أي الخارج عن نطاق اللغة نفسها، لان المعنى بالمفهوم العام هو العلاقة بين اللغة والعالم الخارجي. بالإضافة إلى ذلك فان التعريف يدور حول نفسه، أي أننا إذا سألنا أنفسنا السؤال التالي: إذا كانت الجملة تؤدي معنى تاما، فما هو هذا المعنى التام؟ وستكون إجابتنا في الغالب: المعنى التام هو ذلك المعنى الذي تؤديه الجملة. وهكذا نجد أنفسنا ندور في حلقة مفرغة.

ومن أمثلة استعمال المعايير المختلفة لتعريف نفس المصطلح على أيدي مدارس لغوية عربية مختلفة، تعريف أجزاء الكلام. فهم جميعا متفقون على تقسيم الكلام إلى ثلاثة أجزاء: الاسم أو الفعل والحرف. إلا أن المعايير التي وضعها اللغويون القدماء لتحديد كل جزء من هذه الأجزاء الثلاثة

تختلف من مدرسة إلى أخرى. فنجد مثلا أن ابن مالك يميزها في ألفيته المشهورة باستعمال معايير لغوية شكلية، أي لا علاقة لها بالمعنى فيعرف الاسم بأنه: تلك الكلمة التي تجر بحرف الجر، وتنون، وتسبقها أل التعريف وتقيم مسندا إليه كما تقع منادى في الجملة[20]. وجميع هذه المعايير صرفية نحوية أي لغوية تتعلق بشكل الكلمة وما يمكن أن يطرأ عليها من تغييرات، كما تتملق بالوظيفة التي يمكن أن تؤديها الكلمة في الجملة. كما عرّف ابن مالك الفعل بالطريقة نفسها واعتبر الحرف ما عدا ذلك. وهذه المعايير شبيهة جدا بتلك التي استخدمها أنصار المدرسة الوصفية التشكيلية الحديثة في أمريكا وأوروبا والتي أشرنا إليها في الصفحات السابقة. ولكن نحويين آخرين من العرب اتخذوا المعنى معيارا لتعاريفهم فقالوا أن «الاسم هو ما دل على مسمى، والفعل ما دل على حدث وزمن والحرف ما ليس كذلك».

ولسنا هنا في مجال المفاضلة بين هذين النوعين من المعايير فلذلك موضع آخر، إنما قصدنا فقط إلى إعطاء مثال على تعدد المعايير التي يمكن أن تستعمل في الأبحاث اللغوية. وهنالك من اللغويين المحدثين من استعمل كلا النوعين معا في تحديد أجزاء الكلام في اللغة العربية وحالفه الكثير من النجاح فتوصل إلى تحديد سبعة أجزاء من الكلام بدلا من الأجزاء الثلاثة التقليدية المعروفة[21].

وهذا لا يعني بالطبع أننا يجب أن نعرف كل مصطلح، أساسيا كان أم غير أساسي للبحث الذي نقوم به، بمنتهى الدقة. وذلك لان ميدان تحديد معاني بعض المصطلحات ربما كان غير الميدان الذي يجري فيه البحث الذي نقوم به في وقت من الأوقات. مثلا، إذا كنا نقوم بدراسة نحوية أو صرفية لها علاقة بعلم الأصوات واستعملنا التعبيرين: الصوت المهموس والصوت المجهور فلا داعي لتعريف هذين التعبيرين أثناء بحثنا الحالي، بل يمكن أن نعتمد على هذين المفهومين كما عرفهما علماء الأموات إذا كانت دقائق معانيهما لا تؤثر تأثيرا مباشرا في بحثنا الصرفي والنحوي الحالي. وخلاصة القول هنا أننا يجب أن نقف موقفا حذرا جدا من المصطلحات الفنية بحيث-لا يؤثر غموض بعضها في دراستنا اللغوية فيقودنا إلى نتائج غير مضمونة أو موثوق بها.

ثم أن هنالك أمرا آخر في غاية الأهمية، يتطلب الوضوح التام أثناء

معالجته. فإذا كنا نحاول أن نصف لغة حديثة بالذات، علينا أن ننتبه إلى جميع العوامل التي تؤثر في استعمال الناس لها، وذلك لكي نستطيع التوصل إلى تكوين نظرية شاملة تعتمد على المبادئ العامة التي تحكمها-وربما تحكم غيرها من لغات العالم أيضا-فعلينا أن نختار عينة من الناس تمثل جميع فئاتهم، كما أن علينا أن ننتبه إلى المقامات المختلفة التي يجرى فيها تلك الاستعمال. فإذا أردنا مثلا أن نجد المبادئ التي تحكم استعمال الناس في عصرنا هذا للغة المكتوبة، وجب علينا ألا نقصر بحثنا على الأدباء واللغة التي يستعملونها، أو على فئة معينة منهم، بل يجب أن تشمل العينة جميع الفئات التي تستعمل اللغة في كتابتها، من الفرد المثقف العادي إلى الأدباء والشعراء والأنواع الأخرى من الفنانين، كما يجب أن تشمل الفلاسفة وعلماء الطبيعة وعلماء النفس وكذلك الكتابات التجارية والاقتصادية والسياسية.. الخ أي أن العينة يجب أن تشمل جميع الفئات التي تستعمل لغة معينة وذلك لكي تكون دراستنا شاملة وينتج عنها مبادئ عامة تستخدمها جميع الفئات.

أما الركيزة الثانية للمنهج العلمي والتي سميناها الانتظام والثبات فهي متصلة بالركيزة الأولى، ولكنها تؤكد على تنظيم العمل بشكل معين والثبات على الأسس التي يعتمد عليها، وتطبيقها بشكل منظم، ليس على مظهر جانبي أو على نقطة واحدة أو نقطتين لغويتين بل على الدراسة بأسرها، بحيث تمثل النتائج التي يمكن الحصول عليها رؤية شاملة غير مبتورة.

وفي موضوع بالغ التعقيد كاللغة، لا بد للباحث أن يختار، ولكل اعتباطي، نقطة البداية، ثم ينطلق من هناك إلى الظواهر اللغوية الأخرى. وقد ركز اللغويون المحدثون في الغرب على هذه النقطة بالذات، ولذلك فمن الممكن إعطاء الأمثلة على ما فعلوا. فهنالك مدرسة مثلا بدأت من الأصوات اللغوية كمنطلق للدراسة، ثم ارتفعت إلى الصرف فالنحو، وكان من المفروض أن تصل إلى دراسة المعاني، ولكنها وقفت هناك عاجزة عن متابعة البحث. وهنالك مدرسة أخرى بدأت بالجملة-وهي وحدة نحوية-ومنها انطلقت باتجاهين، أحدهما يؤدي إلى المعاني والآخر يؤدي إلى الأصوات. بينما قامت مدرسة ثالثة بالبدء بالمعاني، ثم انطلقت منها إلى التراكيب النحوية والصرفية، منتهية بالأصوات اللغوية.

ومرة أخرى نقول أننا لسنا في مجال المفاضلة بين هذه الأساليب في

تنظيم العمل ولكن المهم هنا أن نذكر أننا عندما نختار أسلوبا معينا، فان علينا أن نرسم خطواته بكل وضوح ونحددها تحديدا شديدا ونلزم أنفسنا بها في دراستنا التزاما كاملا. ومما يؤكد أهمية هذا الكلام أننا بالفعل لا نستطيع أن نبدأ في دراساتنا اللغوية، وذلك بحكم طبيعة اللغة وعلاقتنا بها، من النقطة الصفر. فلكل منا فرضياته المسبقة عن اللغة ولا بد لنا أن نبدأ ببعض تلك الفرضيات، كافتراضنا جميعا مثلا أن الجملة تتألف من مبتدأ وخبر (أو فعل وفاعل). فنحن نعرف مسبقا ما نريد أن نبحثه، ومن المهم هنا هو أن نحدد الإطار الدقيق الذي سنحمل من خلاله، وان نلتزم بذلك الإطار التزاما تاما، وذلك لكي نصل إلى تحديد أدق لتلك المفاهيم المفترضة مقدما، ونستبدل الغموض بالوضوح والدقة التامين.

كما أن من المهم جدا أن نحاول فحص أو اختبار كل فرضية سواء كانت خاصة بلغة معينة أو عامة بين جميع لغات العالم، بجميع الطرق العلمية الممكنة، سواء استدعى ذلك تجارب علمية أم مقارنات لغوية أم غيرها. أن المتغيرات، أي الظروف التي يمكن أن تتغير في أثناء القيام بتجربة علمية على اللغة، اكثر بمراحل من تلك التي تحيط بتجارب العلوم الطبيعية، كما أن السيطرة على تلك المتغيرات أشق بكثير. ولكننا، حتى نستطيع المقارنة بين ظاهرتين، علينا أن نحاول السيطرة على جميع المتغيرات الأخرى، لنلاحظ الترابط أو المعاقة بين هاتين الظاهرتين وكيف تتغير إحداهما بالنسبة للأخرى. أن البحث اللغوي يعتمد في معظمه على المقارنة أو المقابلة، وعلينا عندما نقوم بذلك أن نسأل الأسئلة الصحيحة، وألا نترك مجالا واحدا للمقارنة لا نعقدها فيه. ومثال ذلك: أن عند كل منا انطباعا مسبقا عن علاقة تقوم بين الفعل والزمن. وقد سبق أن رأينا كيف عرف بعض النحويين العرب-130- الفعل بأنه ما دل على حدث وزمن. وأشباه هذا التعريف موجودة ومتداولة في قواعد كثير من اللغات. وفي مثل هذه الحالة يمكن أن نرضى بهذه الفرضية التقليدية المتعارف عليها بحيث أصبحت تبدو وكأنها حقيقة مسلم بها. ولكنا يجب ألا نفعل ذلك، بل علينا أن نحاول تأكيد تلك الفرضية أو تعديلها أو رفضها كلية وذلك بوضعها تحت المجهر، أي بصياغة الأسئلة المناسبة التي يمكن أن تظهر حقيقتها. فيمكن أن نسأل الأسئلة التالية على سبيل المثال: هل هنالك علاقة مباشرة بين صيغة الفعل

والزمن، بأن تدل صيغة الماضي على الزمن الماضي وصيغة المضارع على الزمن الحاضر (أو المستقبل)؟ وهل هذه الدلالة الصرفية ثابتة في السياقات النحوية المختلفة، أي في الجمل المختلفة؟ وهل هنالك طرق لغوية اخرى غير الفعل للدلالة على الزمن؟

إن الإجابة على أسئلة من هذا النوع تبين لنا بوضوح تام أن فرضيتنا السابقة لا يمكن قبولها على إطلاقها. بل علينا أن نعد لها بحيث تتمشى مع الواقع اللغوي، بدلا من أن نتشبث بها ونحاول تبرير التغييرات التي تطرأ على العلاقة بين صيغة الفعل والزمن، كما فعل بعض النحاة العرب مثلا عندما حاولوا تبرير إشارة الفعل المضارع المنفي بالحرف «لم» مثل «لم يذهب» إلى الزمن الماضي، بأن الحرف «لم» حرف قلب، أي أنه يقلب الحاضر إلى الماضي. بينما كان الأحرى بهم أن يرصدوا السياقات المختلفة التي تقع فيها كل صيغة من صيغ الفعل، ثم يثيرون إلى دلالاتها الزمنية في تلك السياقات، بأن يقولوا مثلا أن صيغة المضارع بعد حرف النفي «لم» تشير إلى الماضي وهكذا. أي أن تعريف أو تحديد الدلالة أو العلاقة اللغوية التي تشير إليها صيغة من الصيغ يجب أن تكون نتيجة للدراسات لا سابقة لها.

وفي واقع الآمر فان الدراسة الوصفية لعلاقة صيغة الفعل بالزمن في اللغة العربية (وفي كثير من لغات العالم الأخرى، بل ربما فيها جميعا) تشير بوضوح إلى عدم وجود ثبات في تلك العلاقة، بل أن السياقات اللغوية هي التي تتحكم فيها، بالإضافة إلى «الظروف» والكلمات الأخرى المستعملة في الجملة. فإذا نظرنا إلى الجمل التالية مثلا:

- بعتك الدار بألف دينار
- غفر الله لك
- إذا زرتني أزورك
- وحياتك لأنكثت عهدك ما دمت حيا

نجد أن الفعل الماضي في الجملة الأولى يدل على الزمن الحاضر، أما الأفعال الماضية في الجمل الأخرى فتدل جميعها على الزمن المستقبل.

كما أن صيغة المضارع تدل على الزمن الحاضر في مواضع معينة وعلى الزمن المستقبل في مواضع معينة أخرى، بل أنها تدل على الزمن الماضي

في مواضع أخرى كالجمل التالية:
- زرتك ولم تكن في البيت
- قطفت الثمرة ولما تنضج
- لو ينتبهون إلى الشرح لاستفادوا[22]

علاوة على ذلك، فان دراسة تحليلية من هذا النوع تظهر لنا أن هنالك معاني أخرى يدل عليها الفعل بالإضافة إلى الحدث والزمن، فهي تبين لنا إشارة فعلية إلى علاقات زمنية مختلفة كالعلاقات التالية:

صيغة كان فعل تشير إلى الحدث البعيد التام أو المنقطع
صيغة كان قد فعل تشير إلى الحدث القريب التام أو المنقطع
صيغة ما زال يفعل تشير إلى اتصال زمن الحدث الماضي بالحاضر[23].

وعلاقات أخرى غيرها. وهذه الأمثلة جميعها تدل على ضرورة فحص أي من المسلمات أو الفرضيات التي يحملها الباحث عن لغته مهما بدت مقنعة بناء على دراسات قديمة. كما نختم كلامنا عن هذه الركيزة الثابتة من ركائز المنهج العلمي في البحث بتأكيد ضرورة وضوح الإطار الذي يعمل اللغوي فيه، والأسس التي يعتمد عليها والخطوات التفصيلية التي يتبعها في البحث، والثبات عليها جميعا طيلة المدة التي يجري فيه البحث أو الدراسة.

أما الركيزة الثالثة الأساسية التي يعتمد عليها منهج البحث العلمي فلربما كانت أهم الركائز جميعا وأكثرها إثارة للجدل الآن في ضوء بعض النظريات اللغوية الحديثة. هذه الركيزة هي الموضوعية.

لقد أشرنا إشارات سريعة في الصفحات السابقة، ستوضح فيما بعد، إلى أن إحدى المدارس اللغوية الرائدة في الغرب في القرن الحالي وهي المدرسة الوصفية التشكيلية، قد تأثرت بالمنهج العلمي في البحث إلى درجة كبيرة جدا، واستخدمت هذا المنهج استخداما حرفيا، بمقوماته المختلفة بما في ذلك صفة الموضوعية، في وصف اللغات، ولكنها اصطدمت بحقبة رئيسية هي صعوبة تطبيق هذا المنهج على دراسة المعاني التي تكون جزءا لا يتجزأ من اللغة، بل ربما كانت أهم جزء منها على الإطلاق، ولذلك فقد وقفوا دراساتهم على الشكل الخارجي للغة من أصوات ومفردات وجمل وأهملوا عالم المعاني بأسره، فجاءت دراساتهم سطحية وقاصرة جدا.

والسبب الأساسي في ذلك أن طبيعة اللغة تختلف اختلافا جذريا عن طبيعة المواد الكيماوية والظواهر الطبيعية.. الخ التي يستخدم المنهج العلمي في دراستها.

وعندما اكتشف علماء اللغة هذا القصور في البحث اللغوي، أدخلوا عنصر المعاني فيه، ولكنهم وجدوا أنهم بذلك يبتعدون عن إحدى الركائز الأساسية لمنهج البحث العلمي. ولم يؤثر ذلك في عملهم لان هدفهم كان مخالفا لهدف من سبقهم. فقد فرق تشومسكي وزملاؤه وتلامذته منذ عام 1957 حتى الآن، بين القدرة اللغوية التي يشترك فيها جميع أفراد مجتمع معين وبين الكلام الفعلي الذي يصدر عنهم-وهو الكلام الذي كانت الدراسات العلمية السابقة تبنى على عينة منه-وقالوا أن هدفهم هو استنباط القواعد التي تتألف منها تلك القدرة اللغوية الذهنية، لا وصف الكلام الفعلي الذي لا يحتل إلا جزءا ضئيلا من تلك القدرة، بل ويمثلها بكل ممسوخ في كثير من الأحيان. فقواعد اللغة بحسب رأي هؤلاء يجب ألا تسمح بتوليد الجمل الخاطئة أو الناقصة المبتورة الخ، إلا أن هذا هو بالفعل السمة الغالبة على الكلام الفعلي.

والمشكلة هنا هي أن هذه المدرسة اللغوية تعتمد على الحدس. الفردي أو الحس الخاص للفرد (intuition) كجزء من المادة (data) التي يعمل بها اللغوي، وهذا أمر غير مقبول من علماء الطبيعة وزملائهم. ولكن وجهة نظر اللغويين المحدثين جميعا هو أن اللغة ظاهرة ذات طبيعة فذة تختلف عن طبيعة أية ظاهرة أخرى من ظواهر هذا العالم، ولذلك فان المنهج العلمي الذي يجب أن يطبق على دراساتها يجب أن يعدل بالشكل الذي يتلاءم مع هذه الطبيعة الخاصة للغة.

ولا نريد هنا أن نسترسل في وجوه الخلاف بين المنهجين وأصحابهما، ولكننا يجب أن نعترف بأن ما قدمته هذه المدرسة اللغوية من خدمات وما طلعت به علينا من نظرات عميقة جدا للنظام اللغوي الكامل، قد فاقا كل ما قدم في التاريخ حتى الآن، وهذا ما يعترف به جميع علماء اللغة المعاصرين مهما اختلفت اتجاهاتهم كما يعترف به علماء آخرون كثيرون من ذوي الاهتمامات المختلفة، كما أن أبحاث هذه المدرسة لم تنقطع أبدا ويساهم فيها معظم اللغويين المعاصرين. ولذلك فإنا نعتقد بأن الهوة الظاهرة الآن

بين موضوعية المنهج العلمي الذي يعتمد على التجريب المتجرد، وبين ما يبدو مخالفا لذلك في منهج هذه المدرسة، لا بد أن يتم ردمه بطريقة أو بأخرى في السنوات القليلة القادمة.

وهنا نجد أن علينا أن نختم هذا الفصل الذي اتسم بالعموميات في مجمله لننتقل إلى النظر في بعض الدراسات التفصيلية المعاصرة وسنبدأ في الفصل القادم البحث في طبيعة اللغة.

الهوامش

(1) يمكن تعريف «المورفيم» لكل عام بأنه اصغر وحدة لغوية ذات معنى، فالمفردات المبردة مورفيمات، وكذلك «أل التعريف» وكل من التغييرات الصرفية التي تطرأ على المفردات.

(2) هذه الأصوات هي ما قصد من حروف الأبجدية أن تدل عليها، ولكن الواقع أنها اكثر عددا من تلك الحروف، كما سيرد فيما بعد.

(3) حنفي بن عيسى: محاضرات في علم النفس اللغوي (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع) ص 25.

(4) نفس المصدر السابق، ص 59. انظر أيضا: ابن جنى: الخصائص، الجزء الثاني.

(5) تمام حسان: اللغة بين المعيارية والوصفية (مكتبة الانجلو المصرية) 1958، ص 23- 25.

(6) نورد في هذه الحاشية بعض المراجع العربية والأجنبية التي يستطيع أن يطلع عليها القارئ المهتم بالموضوع لأخذ صورة أوفى عما أوجزناه: مراجع بالعربية: 1- جورج مونين: تاريخ علم اللغة، ترجمة د. بدر الدين قاسم (مطبعة جامعة دمشق) 1972.

2- ماريو باي لغات البشر، ترجمة د. صلاح العربي (قسم النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة) 1970. مراجع أجنبية: , (R.H.Robins: A Short History of Linguistics) Longman1967.

(7) الترجمة الإنكليزية منشورة تحت عنوان: Saussure: Course in General Linguistics (N.Y. Philosophical Library),1959.

(8)See: D. Crystal: Linguistics, (Penguin), 1971, p40.

(9) See: Eddy Roulet: Linguistic Theory, Linguistic Description And Language Teaching (Longman), 1973, pp5-17.

(10) L. Bloomfield: Language (Allen & Unwin), several Impressions.

(11)B.F. Skinner: Verbal Behavior (N.Y. Appleton . 1957, (Century Crofts

(12) Noam Chomsky: Syntactic Structures (The Hague Mouton),1957.

(13) راجع صفحة 105بأعلاه.

(14) لمزيد من التفاصيل انظر المقالة « A.Revision of B.F. Skinner's Verbal Behavior» المنشورة في مجلة Language المجلد 35، العدد 1 لعام 1959، صفحات 26-58.

والمعاد نشرها في الكتاب التالي: ,Fodor and Katz)eds(: The Structure of (Language Prentice-Hall) 1964, pp.547-578.

(15) انظر صفحة 152 بأعلاه.

(16) انظر: تمام حسان: اللغة العربية مبناها ومعناها (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب) 1973، ص 32.

(17) كلمة grammar التي استعملت كلمة «قواعد» مرادفا لها تشمل جميع تلك الضوابط التي تحكم الأنظمة اللغوية المختلفة، بينما «القواعد التحويلية» هي ما ذكرناه بأعلاه.

(18) من أهم أعلام هذه المدرسة: Firth من القدامى واتباعه في إنكلترا مثل C.Candlin, Wilkins وكذلك Hymes في أمريكا.

(19) D.Crystal: op. Cit. pp. 78. ff

(20) النص الأعلى كما ورد في البيت الثالث من ألفية ابن مالك:

بالجر، والتنوين والندا وأل ومسند للاسم تمييز حصل

(21) انظر تمام حسان: اللغة العربية... ص 86-132

(22) رشيد الشرتوني: مبادئ العربية ج 4 (المطبعة الكاثوليكية ببيروت) الطبعة العاشرة ص 10-11.

(23) تمام حسان: المصدر السابق، ص 245.

3 طبيعة اللغة

١ - النظريات الحديثة في طبيعة اللغة البشرية:

لقد أصبحت كلمة «لغة» تستعمل في الصحف والمجلات غير العلمية وعلى ألسنة الناس على نطاق واسع للإشارة إلى عدد كبير من وسائل الاتصال المختلفة. فنحن نسمع بلغة النمل ولغة النحل ولغة الطيور ولغة الحيوان ولغة الأسماك ولغة الإشارة ولغة الكمبيوتر وحتى لغة العيون التي يتغنى بها الشعراء. نسمع ذلك وكأن وسائل الاتصال هذه التي يشار إليها بنفس الكلمة لغات حقيقية لا تختلف عن لغة الإنسان. ولكن هل هذه هي الحقيقة؟ وإذا كانت لغة البشر تختلف عن وسائل الاتصال المذكورة فهل الاختلاف سطحي أم جذري؟ هل هو اختلاف في النوع أو في الكم؟ وإذا كان اختلافا جذريا فما الذي يميز لغة الإنسان عن غيرها من وسائل الاتصال المذكورة في مطلع هذا الكلام؟ وبكلمات أخرى هل لغة الإنسان ظاهرة خاصة بالإنسان أم تشاركه فيها بعض الكائنات الحية الأخرى؟ وإذا كانت خاصة بالإنسان فهل هي ظاهرة طبيعية فطرية أم تعليمية مكتسبة؟ وهل الإنسان هو الوحيد القادر على اكتساب أو تعلم اللغة أم يمكن أن تتعلمها

بعض الحيوانات الراقية مثلا؟ وإذا كانت بعض هذه المخلوقات يمكنها أن تتعلم لغة الإنسان ولو بشكل بدائي فماذا يعني ذلك بالنسبة لنشأة اللغة وتطورها؟

هذه الأسئلة وعشرات غيرها شغلت بال المفكرين من فلاسفة وعلماء نفس وعلماء لغة ورجال دين وعلماء اجتماع وسواهم منذ آلاف السنين. فلقد رأينا في أحد أجزاء الفصل الثاني بعض مظاهر الاهتمام في العصور القديمة عند الإغريق وفي العصور الوسطى عند العرب بوجه خاص. ولكن هذا الاهتمام خبا نوره مدة طويلة إلى أن تجدد على يد فلاسفة القرن التاسع عشر بشكل خاص ثم امتد حتى شمل القرن العشرين بأكمله وهو في أوج نشاطه في الوقت الحاضر. ونظرا لأهمية ما يجري الآن في هذا المجال وللصبغة العلمية التجريبية التي تضطر على الأبحاث المتعلقة به فسنقصر كلامنا على القرن الحالي ونركز على السنوات القليلة الماضية لنعطي القارئ فكرة موجزة عن الاتجاهات المعاصرة في هذه الدراسة.

لقد أشرنا سابقا إلى أثر المدرسة السلوكية في علم النفس على الدراسات اللغوية حتى الخمسينات من القرن الحالي وذكرنا كيف أن سكينر (Skinner) عالم النفس الأمريكي نظر إلى اللغة على أنها عادة مكتسبة مثلها في ذلك مثل العادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان أثناء نموه من الطفولة إلى الرجولة وقال أن الطفل يولد وذهنه صفحة بيضاء خالية من اللغة تماما. كما عزا نجاح الطفل في اكتساب عادة اللغة المعقدة إلى التدريب المتواصل المتحكم فيه الذي مكنه من تعليم عادات معقدة للحيوانات من الفئران وغيرها التي كان يجري عليها التجارب في مختبره. هذا في أمريكا أما في الاتحاد السوفيتي فقد كان لمدرسة بافلوف السلوكية أيضا نفس الأثر على علماء النفس المتأخرين من أمثال فيجوتسكي (Vygotsky) ولوريا (Luria) الذين كانوا يتفقون في الرأي مع ما نادى به سكينر وأتباعه في الولايات المتحدة الأمريكية. ويمكن تلخيص أراء هذه المدرسة بالنسبة للغة بأن اللغة تتألف من ردود فعل أو استجابات لمؤثرات خارجية يصبح الشكل المقبول اجتماعيا منها عادة لدى الفرد عن طريق الثواب الذي يقدمه له المجتمع سواء اقتصر هذا المجتمع على الوالدين في بادئ الأمر أو امتد إلى أبعد من ذلك فيما بعد. فعندما يتعلم الطفل اللغة بهذه الطريقة يتوصل في

النهاية إلى حفظ واختزان عدد محدود من نماذج الجمل التي يمكن مدها وتوسيعها أفقيا بطرق مختلفة مع الإبقاء على أساس كل نموذج منها على ما هو عليه. وعندما يتأثر الفرد بمؤثر خارجي يستجيب له بأحد هذه النماذج المخزونة عنده.

وقد ذكرنا قبل قليل كلمة أفقيا ونقصد بها أن العلاقات النحوية والصرفية بين مفردات الجملة تعتبر في نظر هؤلاء علاقات أفقية أي أن الجملة تتألف من شريط أو مسلسل من الكلمات المصفوفة بعضها بجانب بعض وأن معنى تلك الجملة يتألف من معاني المفردات بالإضافة إلى العلاقات الأفقية الظاهرة بينها والتي تنظمها قواعد اللغة. وكما سنذكر بشيء من التفصيل بعد قليل، فان أنصار هذه المدرسة قد نظروا إلى طبيعة اللغة نظرة سطحية ظاهرية تمشيا مع مبادئ ومنهج علم النفس السلوكي الذي لم يكن يعنى إلا بظاهر الأشياء التي يمكن قياسها وإجراء التجارب عليها. وبهذا حولوا عملية الكلام واكتساب اللغة إلى عملية آلية لا كبير دخل للمحاكمات العقلية بها. ولا يعتبر بحثهم بالنسبة للغة بحثا في طبيعتها ما داموا قد اقتصروا على دراسة ظاهرها فحسب. وعندما طبق أتباع هذه المدرسة من علماء اللغة أمثال بلومفيلد هذه النظرة على اللغة استبعدوا المعنى من دراسات اللغة وحصروها بالأموات والتراكيب الصرفية والنحوية فقط. فقسموا الجملة إلى نماذج من حيث شكلها الخارجي والترتيب الأفقي التتابعي للمفردات فيها بغض النظر عن المعنى النهائي الذي ينتج عن ذلك. ولنعط هنا مثلا أو اثنين لتوضيح هذه النقطة. لقد كان أحد النماذج التي وضعوها يتألف من إطارين:

الفعل اللازم/ يتبعه الفاعل/ ويمكن أن يتبعه إطار شبه الجملة/ كالجار والمجرور/. ومثال ذلك:

ذهب/الرجل/إلى السوق.

وتحت هذا النموذج تدرج جميع الجمل المشابهة. فمثلا الجملتان:

سعى/الرجل/إلى رزقه

سعى/الرجل/إلى هلاكه

جملتان متشابهتان تماما وتتبعان نموذجا واحدا بالرغم من أن جملة الأولى تفيد أن الرجل هو الذي حصّل الرزق أما الثانية فأنها يد أن الرجل

هو الذي سيقع عليه أو يصيبه الهلاك أو الموت.

وإليكم مثلا أخر. أن أحد النماذج الأخرى التي قسموا اللغة إليها تتألف من ثلاثة إطارات:

الفعل المتعدى/الفاعل/المفعول به.

وعلى هذا فانهم ينظرون إلى الجمل الثلاث التالية على أنها تتبع نموذجا واحدا:

فتح/الرجل/الباب

فتح/الريح /الباب

فتح/المفتاح/الباب

مع أن المعنى يختلف من جملة إلى أخرى. ففي الجملة الأولى: الرجل هو الفاعل الحقيقي. أما في الثانية فان الريح هو السبب لمفتاح الباب. أما في الثالثة فان المفتاح هو الأداة التي فتح بها الباب.

هذه أمثلة سريعة تعطى فكرة عن النظرة الساذجة التي نظر علماء النفس السلوكيون وأتباعهم من اللغويين إلى اللغة الإنسانية.

أما المدرسة التي ثورت الأبحاث في طبيعة اللغة فهي مدرسة تشومسكي التي أشرنا إليها فيما سبق فقد نقض تشومسكي الفرضيات السلوكية الساذجة عن طبيعة اللغة، وأثبت أن اللغة عقلية معقدة، وأن العلاقات المعنوية في الجملة علاقات رأسية كما هي علاقات أفقية. كما قال بأن الإنسان يولد ولديه قدرة لغوية محددة تساعده على اكتساب أية لغة يعيش في مجتمعها.

كما أبرز صفة هامة للغاية من صفات اللغة هي قدرة المتكلم بها على تأليف وابتكار جمل وتعابير جديدة لم يقلها أحد من قبل، أو على الأقل لم يسمعها هو نفسه من قبل.

هذه النظريات أو الفرضيات غيرت مجرى الأبحاث المتعلقة بطبيعة اللغة ووجهتها وجهة مختلفة تماما. فقد بدأ العلماء يحاولون الإجابة على أسئلة من النوع التالي:

1- ما هي الصفات التي تميز لغة الإنسان عن وسائل الاتصال الأخرى؟

2- هل الإنسان هو الوحيد بين المخلوقات الذي يستخدم لغة حقيقية؟

3- هل اللغة طبع أم تطبع أم شيء من هذا وشيء من ذاك؟

4- هل يمكن تعليم الحيوانات لغة الإنسان أو أية لغة حقيقية أخرى؟

هذه الأسئلة يأخذها العلماء في الوقت الحاضر مأخذ الجد وتشغل بالهم إلى حد كبير لدرجة أن قسطا كبيرا من دراساتهم وأبحاثهم وتجاربهم ينصب عليها كما سنرى عندما نعرض إلى كل منها في الصفحات التالية. ولعل هذه الدراسات من أكثر الأبحاث اللغوية إمتاعا وأكثرها عمقا وإثارة للتفكير والتأمل في طبيعة هذا السر العظيم الذي اختص الله به الإنسان من بين سائر المخلوقات الأخرى.

2- لغة الحيوان:

لقد حاول الكثيرون تعريف اللغة فكانت تعاريفهم تصدر أما من وجهة نظر معينة كأن يكون المعرّف مهتما بمظهر معين من مظاهر اللغة كمظهر الاتصال أو التبليغ أو بالمظهر الاجتماعي أو بالمظهر الشكلي الظاهري، فأتت معظم تعاريفهم أما قاصرة لا تستغرق الجوانب المختلفة للغة، أو أنها تنطبق على وسائل الاتصال الأخرى التي تتعامل بها بعض المخلوقات الأخرى. ولذلك فقد أخذ العلماء يتجنبون هذه الطريقة في محاولتهم النفاذ إلى جوهر اللغة.

ولعل أفضل المحاولات للوصول إلى ذلك هي ما قام به العالم الأمريكي تشارلزهوكت (Charles Hocket) خلال عشر سنوات من البحث والدراسة. فقد عكف هذا العالم على محاولة التوصل إلى الخصائص أو الصفات التي تميز اللغة الإنسانية وقد توصل إلى حصر ست عشرة صفة مميزة[1] وأضاف علماء آخرون لها عددا أخر. ولكنا سنحصر بحثنا هنا في أهم تلك الصفات فقط. وسنعمل في أثناء ذكرها على تجنب التسميات العلمية الدقيقة لأنها لن تؤدي المعنى المطلوب منها عند محاولة إيجاد مرادفاتها باللغة العربية ولذلك سنحاول شرح كل منها شرحا يقربها إلى الأذهان. هذا من ناحية أما من الناحية الأخرى فأننا سنشير عند ذكر كل من هذه الخصائص فيما إذا كانت بالفعل علاقة فارقة بالنسبة للغة الإنسان أم أن التجارب الحديثة قد أثبتت أنها إحدى الظواهر المتوفرة في وسائل الاتصال التي تستخدمها مخلوقات أخرى وذلك لنعمل في النهاية على حصر ما هو خاص منها فعلا بلغة الإنسان فقط[2].

وسنبدأ ببحث أكثر هذه الصفات وضوحا للإنسان العادي إلا وهي أن الإنسان يستخدم الجهاز الصوتي للحديث باللغة والجهاز السمعي للاستماع إليها. وهذه صفة لا تستدعي الشرح ولكنها تستحق التعليق عليها. فهل يقتصر الإنسان على هذين الجهازين وعلى حاسة السمع فقط كوسائل للاتصال اللغوي؟ هذا سؤال. أما السؤال الآخر فهو: هل هذه الصفة صفة مميزة للغة الإنسان أم يشاركه فيها وفي استعمال الحواس الأخرى بعض المخلوقات الأخرى؟

أما جواب السؤال الأول فهو أن الإنسان يستعمل وسائل أخرى للتعبير عما يريد قوله وأكثر هذه الوسائل وضوحا هي الإشارات (gestures) التي تعتمد على حاسة البصر كحركة الجسم بأجمعه أو حركة اليدين أو القدمين أو تعبيرات الوجه ومكوناته المختلفة وخاصة العينين. وقد جعل لبعض هذه الإشارات نظام خاص يعوض تعويضا كاملا عن النظام اللغوي الصوتي كما هو حاصل في لغة الإشارة التي يستعملها الصم البكم في الولايات المتحدة ولغة الإشارة التي يستخدمها بعض الرهبان الممنوعين من الكلام بموجب مذهبهم الديني ناهيك عن لغة الأعلام (الرايات) التي يستعملها الكافة وغيرهم ولغة الإشارات الضوئية التي تستعمل بين المراكب.

كما يستعمل الإنسان حاسة اللمس لتكوين نظام لغوي كامل وذلك في الحالات التي يكون فيها أحد الأفراد محروما من نعمة البصر أو من نعم البصر والسمع والنطق جميعا كما كان الحال مع هيلين كيلر التي لا بد أن الجميع قد سمعوا بها.

ومن الناحية الأخرى فان كثيرا من الحيوانات البرية والبحرية والطيور، بالإضافة إلى استخدامها للحواس الأخرى كاللمس والشم والبصر والذوق للاتصال فيما بينها، تستخدم أيضا الجهازين الصوتي والسمعي اللذين يعتمد عليهما معظم البشر في الاتصال والتعبير. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل هنالك فرق بين استعمال الإنسان للتصويت وسيلة للتعبير اللغوي وبين استخدام باقي المخلوقات له؟ ولكي نستطيع الإجابة عن هذا السؤال نرى من الضروري أن نميز بين إلى استعمالين مختلفين للتصويت كوسيلة لغوية. فهنالك صوت يطلقه الإنسان كرد فعل مباشر لمؤثر ما كأن نطلق الصيحة «آه» أو «أخ» التي تدل دلالة مباشرة على الألم والتي تتشابه

إلى حد كبير في المجتمعات اللغوية المختلفة. فالصيحة هذه إشارة مباشرة بسيطة لان العلاقة بينها وبين ما تدل عليه وهو الألم علاقة مباشرة واضحة كل الوضوح. أما عندما تتحدث إلى صديقك أو طبيبك فتشكو له من ألم في رأسك مثلا فان كلمة ألم لا تدل دلالة مباشرة على ما تشعر به، بل هي رمز صوتي اصطلح عليه المجتمع العربي للدلالة على هذا النوع من الشعور. والرموز التي تدل على نفس المعنى في لغات المجتمعات الأخرى مختلفة تماما من الناحية الصوتية، كما أن في اللغة العربية نفسها مرادفات كثيرة لهذه الكلمة لا تتفق معها من ناحية الصوت بأي شكل من الأشكال. بالإضافة إلى هذا فان كلمة ألم تتألف من ثلاثة أصوات مفردة أو على الأصح من خمسة أصوات إذا احتسبنا الأصوات التي نعبر عنها بالحركات باللغة العربية كالفتحة في هذه الحالة. وكل من هذه الأصوات المفردة لا معنى له البتة بحد ذاته، ولكننا نركب من الأصوات المفردة التي يستخدمها مجتمع لغوي معين كلمات اصطلح ذلك المجتمع على دلالاتها.

والسؤال الآن هو: لأي نوع من الأصوات تنتمي أصوات الحيوانات والمخلوقات الأخرى؟ هل تنتمي لفصيلة الإشارة البسيطة المباشرة أم لفصيلة الرمز الصوتي المركب؟

لقد كان معظم العلماء يعتقدون حتى وقت قريب أن تصويت الحيوانات من النوع البسيط المباشر ولكن الدراسات الحديثة دحضت هذا الاعتقاد. فقد وجد أن بعض لغات[3] الحيوان والطيور تتألف من أصوات مفردة يزيد عدد بعضها عن تلك التي تستعملها بعض المجتمعات البشرية، فالمجتمعات البشرية المختلفة تستخدم ما بين أحد عشر وسبعا وستين صوتا مفردا. ففي اللغة الإنجليزية مثلا ما يقرب من 45 صوتا وفي اللغة الإيطالية 27 صوتا وفي اللغة العربية حوالي 40 صوتا بينما لا يوجد في لغة سكان جزر هاواي اكثر من 13 صوتا مفردا. أما لغات الحيوانات والطيور فان في لغة الطيور المختلفة ما بين 12 و 25 صوتا وفي لغة الحيوانات الثديية الدنيا ما بين 7 و 36 وفي لغة الدلفين ما بين 7 و 19 وفي لغة القرود المختلفة ما بين 10 و 37 صوتا مفردا. فالفرق إذا في عدد الأصوات المفردة بين الإنسان والحيوان ليس شاسعا، بل أن في لغات بعض الحيوانات عددا من تلك الأصوات المفردة يفوق ما هو متوفرة في لغات بعض المجتمعات البشرية

كما هو واضح في الإحصاءات المذكورة سابقا[4].

ولكن هذا الاكتشاف ليس هاما بحد ذاته. بل الأهم هو كيفية دلالة تلك الأصوات على المعاني، فهل هي دلالات مباشرة أم هي أشبه بالأصوات المفردة عند الإنسان التي ليس لها دلالة مباشرة؟ ثم هل يمكن للحيوان أن يركب من تلك الأصوات رموزا تدل دلالة غير مباشرة على المعنى المقصود؟

والجواب عن هذين السؤالين هو أن أصوات الحيوان تدل في معظم الحالات دلالات مباشرة بسيطة معظمها تتعلق بالمشاعر أو العواطف من خوف وألم وسرور وتودد وما إلى ذلك، من أن بعضها يدل أيضا-كما هو الحال في لغة البشر-على المحيط أو البيئة وما يتعلق منها بالحياة والمعيشة كالدلالة على اقتراب خطر أو توفر الغذاء وما إلى ذلك. إلا انه تبين أيضا أن عددا من الحيوانات والطيور والحشرات تستطيع أن تركب من هذه الأصوات المفردة أو منها ومن وسائل الإشارة الأخرى أو من وسائل الاتصال الأخرى غير الصوتية وحدها ما يمكن أن نسميها مفردات أو جملا للتعبير عن معنى مركب لا تستطيع الأصوات المنفردة أن تعبر عنه. وقد أثبت ذلك الأستاذ بطرس مارلر (Peter Marler) المتخصص بدراسة سلوك الحيوان بجامعة روكفلر-فيما يتعلق بالطيور، وبيّن الفرق في الدلالة بين ما اسماه بالصيحات المنفردة وبين الغناء المركب المؤلف من صيحات مختلفة[5]. كما لاحظ علماء آخرون أن أحد أنواع القرود يعبر عن التهديد بصوت معين مقرون بحركات جسمانية اخرى كهز الرأس ورفع الحاجين وإسدال الجفنين وفتح الفم بدون إظهار الأسنان. وبما أننا سنبحث هذه النقطة ثانية فسنقتصر هنا على القول أن استعمال التصويت أو الحواس الأخرى ليس صفة خاصة باللغة البشرية بل تشاركه فيها مخلوقات أخرى.

أما الصفة الثانية التي يعتقد أنها خاصة بلغة البشر فهي ما أشرنا إليها سابقا باسم الاصطلاحية أو التواضعية والمقصود بها هو ما ذكرناه قبل قليل من أن أصوات المفردات لا تدل على معانيها أي انه ليست هنالك صلة مباشرة بين كلمة رجل مثلا والمخلوق الذي تدل عليه الكلمة، وأن الكلمات التي تدل على نفس المخلوق في اللغات المختلفة يختلف بعضها عن بعض قليلا أو كثيرا بحسب العلاقات الأسرية بين اللغات..

وعلى الرغم من أن في كل لغة عددا محدودا من الكلمات التي يوحي

صوتها بمعناها، ومن أن الشعراء بشكل خاص يستفيدون من هذه الظاهرة فيحاولون أن يجعلوا أصوات المفردات والعبارات أصداء للمعاني التي تعبر عنها إلا أن من المسلم به بين علماء اللغة الآن أن لا علاقة بين الصوت والمعنى في الأغلبية العظمى من مفردات أية لغة من لغات الأرض.

أما في عالم الحيوان فان الملاحظ عموما بأن هنالك علاقة وثيقة بين الصوت أو الإشارة التي يستخدمها الحيوان والرسالة التي يريد بثها. ومع ذلك فقد لوحظ أن هنالك بعض الأصوات أو الإشارات الحيوانية التي لا علاقة لها بالرسالة المقصود إيصالها. فهنالك بعض الطيور المائية التي تتعرض للتهديد من جانب طيور مثلها وفي مثل هذه الحالة يتخذ الطير المهدّد وضع الاستعداد للقتال فيرفع جناحيه كما يرفع رأسه فيستقيم عنقه بينما يكون منقاره متجها إلى اسفل فيقابله الطير الآخر بوضع مشابه وربما يبدأ القتال فعلا أو ينسحب المعتدي. ولكن الطير المهدد ربما عبر عن استعداده للقتال بطريقة أخرى تماما، وذلك بأن يبدأ بنزع بعض الأعشاب القريبة منه وكأنه سيستعملها ليبني عشا له. وعلى الرغم من أن هذه الحركة لا تدل على الاستعداد للقتال فان الغريم عادة ما يفهم الرسالة وينسحب طالبا النجاة.

خلاصة القول إذا أن هذه الصفة الثانية التي تميز لغة البشر رغم قلة توفرها في لغات الحيوانات، لا تبدو صفة مميزة للغة الإنسان دون غيره من المخلوقات.

أما الصفة الثالثة فهي أن مفردات لغة الإنسان تستطيع أن تشير إلى أشياء محسوسة في عالم الواقع كما يمكنها أن تشير إلى الأفعال التي يؤديها الإنسان أو غيره من المخلوقات، وبإمكانها أيضا أن تعبر ع الأفكار الذهنية المجردة. بالإضافة إلى ذلك فان باستطاعة الإنسان أن يعمم الاسم مثلا على جميع الأشياء المتشابهة في الجوهر المختلفة في التفاصيل-فكلمة صندوق مثلا تشمل جميع أنواع الصناديق سواء كانت كبيرة أم صغيرة، مكعبة الشكل أم مخروطية، مصنوعة من الخشب أو الورق أو المعدن الخ وهذا ينطبق على الأفعال أيضا. فهل هذه صفة متوفرة في لغة الحيوان؟ أن صعوبة المقارنة هنا تكمن في عدم إمكاننا تفسير ما تقصده الحيوانات بأصواتها المختلفة، فهل يعني الصوت المعين الذي يطلقه القرد مثلا عندما

يرى ثعبانا، هل يعني «ثعبان» أو «خطر» أو «احذر الثعبان» أو أنه مجرد صيحة منبهة لخطر معين؟ هذا ما لم يهتد العلماء المختصون إلى تفسيره بعد، مع انهم استطاعوا أن يميزوا بين صيحات مختلفة كل منها تنذر بخطر يختلف عن الآخر. ولهذا فمن الصعب علينا أن نؤكد أو ننفي توفر هذه الصفة في لغة الحيوان. ثم هنالك صفة رابعه وهي أن اللغة البشرية المستخدمة في مجتمع معين يتوارثها الخلف عن السلف وانه حتى لو كان الاستعداد لاكتساب اللغة أمرا بيولوجيا فطريا إلا أنه لا بد للطفل من مجتمع يعيش فيه ليكتسب اللغة فعلا، فإذا عاش منفردا فلا لغة له على الإطلاق. أما بالنسبة للحيوانات فان الأمر يختلف من نوع إلى آخر وحتى من فصيلة إلى أخرى داخل النوع الواحد. وقد دلت التجارب العديدة التي أجريت على الحيوانات والطيور أن بعض لغاتها وراثية كليا بينما بعضها الآخر جزء منه موروث والآخر مكتسب بينما النوع الثالث لغته كلها مكتسبة كما في غناء القبرة مثلا.

أن الفرق غير واضح تماما بالنسبة لهذه الصفة بين الإنسان والحيوان، خاصة أن البحث جار على قدم وساق في الوقت الحاضر لمعرفة نوع الاستعداد الفطري أو القدرة الفطرية التي تخلق مع الطفل الوليد. ولكن يمكن القول بوجه عام أن الوراثة تلعب دورا اكبر بالنسبة للغة الحيوان منها في لغة البشر.

أما الخاصية أو الصفة الخامسة فقد سبقت الإشارة إليها وهي ما تسمى بالازدواجية ومعناها أن الأصوات المفردة في لغة الإنسان لا معنى لها بحد ذاتها، كحروف الصاد والياء والفاء مثلا إلا أنها عندما تركب بشكل معين فتتولد منها كلمة صيف مثلا يصبح لها معنى وان كان هذا المعنى اصطلاحيا لا طبيعيا. فهل هذه الصفة خاصة بلغة الإنسان؟

لقد اثبت العلماء المختصون أنها ليست كذلك، لأنها موجودة في أغاني بعض الطيور التي تتألف عادة من أصوات مفردة لا معنى لها بحد ذاتها، ولكنها عندما تتصل معا بنماذج مختلفة يصبح بإمكانها تأدية رسائل مختلفة أيضا.

وهنالك صفة سادسة تبدو أهم من سابقاتها وهي أن باستطاعة لغة البشر أن تشير إلى أشياء وأحداث بعيدة عن المتكلم زمانا ومكانا. فيمكن

الإشارة إلى أشياء غير موجودة في المحيط القريب وغير منظورة أو ملموسة أو مسموعة أو محسوسة ويمكن أن تبعد آلاف بل ملايين الأميال عن مكان المتكلم. كما أن اللغة يمكن أن تشير عن طريق الأفعال إلى الزمن الماضي أو المستقبل غر المنظور. فهل بإمكان لغة الحيوان أن تؤدي هذه الوظيفة؟ من الصعب الإجابة عن هذا السؤال بشكل محدد إلا في حالة النحل. فعندما تكتشف إحدى النحلات مصدرا للرحيق فأنها تعود إلى الخلية وتقوم برقصات تختلف باختلاف بُعد ذلك المصدر واتجاهه ويتمكن رفاقها من معرفة الاتجاه والمسافة التي يمكن أن تمتد إلى عشرات الأميال ونوع الزهرة التي سيبحثون عنها، ومن ثم يتجه سرب النحل إلى المكان المحدد ليجد مطلبه فعلا. فهنا أيضا، على الرغم من أن الرسالة التي تبعث بها النحلة بسيطة ومحددة، إلا أنها تتمتع بهذه الصفة التي نتحدث عنها، ولذلك فلا يمكننا القول أن هذه الصفة خاصة بلغة البشر فحسب.

سنكتفي هنا بذكر صفة أخيرة أثارها تشومسكي في نظرياته. اللغوية ربما كانت أهم هذه الصفات جميعا، وقد ورد ذكرها مرارا في الصفحات السابقة إلا وهي مقدرة لغة البشر على الخلق أو الابتكار. والمقصود بهذه الصفة بإيجاز شديد هو أنه بمقدور الإنسان لا أن يركب من الأصوات المفردة مئات الألوف من المفردات فحسب، بل أن يركب من مفردات اللغة المختلفة عدداً لا يحصى من الجمل وأشباهها مما لم يسمع به من قبل وذلك حسب الموقف والظروف التي تتطلب الكلام. كما أن باستطاعته أن يفهم عددا لا حصر له من تلك الجمل وأشباهها عندما يسمعها. وهو لا يفعل ذلك اعتباطا بل يلتزم بقواعد صوتية وصرفية ونحوية ومعنوية (نسبة إلى المعنى) معقدة للغاية تصبح جاهزة لديه، خلافا لما هو متوقع، في فترة زمنية قصيرة للغاية لا تتعدى السنتين أو الثلاث في مطلع طفولته وتعد من حيث القصر معجزة فعلية إذا قورنت بما يبذله الفرد من الجهد والوقت في محاولة تعلم لغة أجنبية.

لقد دلت التجارب التي أجريت على الطيور وعلى النحل وعلى الدلفين بوجه خاص بأن التراكيب التي يستطيع أي من هذه المخلوقات تكوينها، كل بوسيلة الاتصال الخاصة به: تراكيب محددة. وقد أمكن التوصل إلى اكتشاف هذه التراكيب اللغوية وتحديد معانيها. ولم يتمكن العلماء من التثبت فيما

إذا كانت لدى أي من هذه المخلوقات القدرة على تكوين تراكيب أخرى جديدة تتناسب مع ظروف تختلف عن تلك التي تتحرك تلك المخلوقات في إطارها. ولعل تجربة واحدة من تلك التجارب توضح ما نقول.

لقد قضى العالم الألماني كارل فون فريش عمره كله في دراسة لغة النحل فأحصى كل حركة من حركات تلك الحشرة، وأجرى مئات التجارب على النحل الذي كان يحتفظ به حتى تمكن من وصف تلك اللغة وصفا تفصيليا مثيرا للغاية أشرنا إلى بعضه في الصفحات السابقة. لقد تبين لذلك العالم بأن مملكة النحل مملكة في غاية التنظيم وان أفراد تلك المملكة يتفاهمون بوسيلة خاصة للاتصال في كل ما يتعلق بحياتهم ومعاشهم بشكل دقيق واضح كل الوضوح حتى أيقن أن للنحل لغة لا تختلف بشيء عن لغة الإنسان سوى أنها تستخدم اكثر من حاسة واحدة لإيصال الرسائل المطلوب إرسالها. وقد وصفها وصفا دقيقا جدا يمكن للمهتمين بالموضوع الاطلاع عليه بالتفصيل فيما ألف من الكتب.

لقد تبين لفون فريش مثلا أن النحلة تستطيع أن تدل زميلاتها على مكان الرحيق الذي يمكن أن يبعد ثلاثة عشر كيلو مترا عن الخلية، وبحساب طول النحلة إلى طول الإنسان العادي مثلا نستطيع القول أن تلك المسافة تعادل حوالي ألف كيلو متر بالنسبة للإنسان. كما انه اكتشف أن لكل مسافة رقصة خاصة تؤديها النحلة وأنها تأخذ في اعتبارها أثناء طيرانها ورقصها اتجاه المصدر وكذلك اثر قوة الريح على طيران النحلة إلى ذلك المصدر. كما اكتشف أن النحلة تستطيع أن تدل على مصدر الرحيق حتى ولو كانت تؤدي رقصتها داخل الخلية، أي في الظلام الدامس، وفي اتجاه عمودي لا أفقي. لقد كانت تلك الاكتشافات مذهلة حقا ومثيرة للعميق من التفكير والتأمل، كما أكدت أن للنحل لغة تكاد تكون طبيعية حقيقية شبيهة جدا بلغة الإنسان وان اختلفت في الوسيلة.

إلا أن إحدى التجارب خيبت الآمال إلى حد كبير. وقد كانت التجربة بسيطة بحد ذاتها ولكن نتائجها كانت بالغة الأهمية. لقد أقام فون فريش إحدى خلايا النحل على قاعدة من الإسمنت يقوم عليها برج للاسلكي. ثم اخذ عشر نحلات من تلك الخلية وصعد بها مسافة خمسين مترا داخل ذلك البرج إلى أن أوصلها إلى مصدر للغذاء مزود بمحلول السكر وتركها

هناك. وبعد أن اكتشفت النحلات مصدر الرزق سارعت بالعودة إلى أسفل البرج حيث الخلية وأخذت تقوم برقصات معينة لمدة أربع ساعات كاملة إلا أن سرب النحل أخذ يطير في جميع الاتجاهات حول البرج بشكل أفقي ولم تصعد نحلة واحدة إلى أعلاه مرة واحدة، ولذلك لم يستطع النحل اكتشاف مصدر الرزق. وقد استنتج فون فريش من ذلك أن لغة النحل لم يكن فيها ما يدل على مفهومي «فوق» و «تحت» أو «أعلى» و«أسفل» وهما المفهومان الجديدان اللذان حاول فون فريش أن يعرف فيما إذا كان بإمكان النحل أن يتكيف معهما ويدخلهما في لغته،[6] وبناء على ذلك فانه لا يمكن اعتبار لغة النحل لغة حقيقية يمكن أن تعين على تكوين تراكيب جديدة غير معروفة سابقا كما هو الحال في لغة الإنسان.

لقد أجريت تجارب أخرى على الدلفينات استنتج منها في أول الأمر أن لدى هذا الحيوان القدرة على الخلق أو الابتكار اللغوي، ولكن الحقيقة تكشفت بعد ذلك وتبين عدم وجود تلك القدرة.

إلا أن التجارب التي تجري على الدلفينات ذات المستوى العالي من الذكاء تقوم بها السلطات العسكرية الأمريكية بسرية تامة نظرا لأهميتها في الحروب البحرية ولا يعرف العلماء خارج المؤسسة العسكرية ماذا يجري هناك بالضبط ولكن المعتقد أن العلماء هناك يقومون بتعليم الدلفينات على القيام بمهام معينة تستخدم القدرة اللغوية الخاصة بها.[7]

نخلص من كل ما سبق إلى القول أنه ليس لدى أي من المخلوقات الأخرى غير البشرية لغة حقيقية تتوفر فيها جميع المواصفات التي تتوفر في لغة الإنسان. فبعضها تتوفر فيه بعض تلك المواصفات والبعض الآخر تتوفر فيه مواصفات أخرى، إلا أنها جميعا تبدو مقصورة على إطارات معينة لا تتعداها، وليس في أي منها تلك المقومات التي تساعدها على خلق التراكيب التي تتطلبها المواقف الجديدة.

فاللغة الحقيقية إذن ظاهرة خاصة بالإنسان. إلا أن ما دلت عليه الدراسات اللغوية الحديثة هو أن قواعد اللغة من صوتية ومرئية ونحوية ودلالية معقدة إلى حد كبير جدا، كما أن توافرها في ذهن الفرد يعطيه قدرة غير محدودة على أن يكوّن من عناصرها المختلفة المحدودة عدداً لا يحصى من التراكيب تكاد تكون جميعها جديدة لم ينطق بها أحد من قبل،

هذا إذا استثنينا الاقتباس من مصادر معروفة كالكتب الدينية والأشعار وما إليها، وإذا استثنينا تلك التعابير المقننة التي تستعمل في مناسبات اجتماعية معروفة.

وإذا كان الأمر كذلك فهل يمكن لطفل أن يتمكن من تلك القواعد جميعا تمكنّا يكاد يكون كاملا في سنتين أو ثلاث، تمتد من سنوات عمره الأولى حتى الرابعة في المتوسط، بحيث تصبح في ذهنه كمولد الكهرباء بإمكانها توليد ما يشاء من الجمل في المواقف المختلفة-هل يمكن أن يتم ذلك كله عن طريق التعلم، أي بالاستماع والمحاكاة، كما يقول السلوكيون من علماء النفس، أم أننا يجب أن نفترض خلفية لغوية فطرية يزود بها الخالق الطفل عند ولادته لتساعده على هذا؟

لقد أتى تشومسكي بالنظرية الثانية وحاول ولا يزال يحاول أن يكتشف في إطار نظريته اللغوية الرئيسية مقومات تلك الخلفية الفطرية التي يدعوها قدرة فطرية (innate competence)، مما أشرنا إلى شيء، منه فيما سبق من الكلام. وقد أثارت نظريته هذه كما أثارت نظريته اللغوية اهتمام عدد كبير من العلماء متنوعي الاهتمامات. وأجريت ولا تزال تجرى مئات التجارب العلمية لإثبات أو تفنيد هذه النظرية. ولعل هذا هو ما يشغل بال العلماء بشكل رئيسي في الوقت الحاضر وبخاصة علماء النفس وعلماء ما يسمى بعلم النفس اللغوي أو علم اللغة النفسي. ونظرا لغزارة المادة وتنوعها في هذا المجال فربما كان أفضل ما نفعله هو أن نذكر أهم النتائج لأحدث تلك التجارب وهذا ما سنحاول القيام به في الصفحات التالية.

3- هل اللغة طبع أم تطبع؟

مع أن هذا السؤال قديم قدم ما وصل إلينا من الحضارات الإنسانية إلا أنه ظل موضوعا للتأملات الفلسفية المحضة في معظم الحالات ولم يثر على شكل علمي تجريبي إلا في النصف الثاني من القرن الحالي كما ذكرنا سابقا.

أن من الواضح تماما أن اللغة بمعنى اللغة العربية أو الإنجليزية أو الصينية مثلا ليست صفة أو غريزة أو قدرة وراثية تتطور وتنمو بمعزل عن المجتمع كما هو الحال بالنسبة للوقوف انتصابا على القدمين والمشي والتبول

والنمو الجنسي مثلا. فقد أثبت اكتشاف عدد من الحالات (وكانت حالة أو اثنتان منها في الشرق. الأوسط) أن الفرد الذي يعيش منذ ولادته أو طفولته المبكرة جدا بمعزل عن المجتمع البشري يبقى بدون لغة أو يكتسب لغة الحيوانات التي يعيش بينها. ولكن مثل هذه الحالات أثبتت أيضا أن بإمكان مثل هذا الفرد أن يتعلم لغة مجتمع معين بسرعة إذا اكتشف وهو صغير السن، ويبطئ في تعلمها كلما زاد عمره، ولا يتمكن من تعلم أية لغة بعد سن معينة يقدرها العلماء المختصون بما بين الثانية عشرة والرابعة عشرة. (وسنأتي على شرح هذه الظاهرة في مناسبة قريبة). ومعروف أيضا أن الطفل العربي إذا أخذ منذ نعومة أظافره وعاش في المجتمع الفرنسي مثلا فانه يتقن تلك اللغة بنفس السرعة التي كان يمكن أن يتقن بها لغته العربية فيما لو عاش وترعرع في مجتمع عربي.

إذا لا يمكننا القول أن الطفل يولد مزودا بلغة معينة حتى ولو كانت تلك اللغة هي لغة آبائه وأجداده، أو حتى القول بأنه يولد وعنده الاستعداد لتعلم لغة معينة بالذات. وفي نفس الوقت لا يجوز أن نسخر من سذاجة ذلك الفرعون المصري القديم الذي أراد أن يعرف أصل جميع لغات العالم فعزل طفلين وليدين عن المجتمع عزلا كاملا ومنع الخادم الوحيد المسؤول عن رعاية أمورهما من الكلام في حضرتهما تحت طائلة العقوبة، وانتظر إلى أن يكبرا ويبدأ أحدهما بالنطق، وتقول الرواية أن أولى الكلمات التي نطق بها أحد الطفلين كانت كلمة «بيكوس» التي فسرها العلماء عندئذ بأنها الكلمة التي تستعمل في إحدى مناطق شمال غرب تركيا وتعني «خبز» ومن ذلك استنتج الفرعون أن تلك اللغة هي أصل اللغات جميعا. أن المغزى الذي يجب استنتاجه من هذه التجربة (وهى تجربة علمية بالفعل) ليس ما توصل إليه الفرعون بالنسبة لأصل اللغات، بل شيء أهم من ذلك بكثير، وهو أن الطفل كان قد بدأ يصدر أصواتا مختلفة متعددة دون أن يسمع أصوات البشر.

ومع أننا نعلم الآن هذه الأصوات التي يطلقها الطفل خلال الفترة التي نسميها: فترة المناغاة لا معنى لها، إلا أنها بتعددها وتنوعها وطرق تركيبها تدل دلالة واضحة على أن لدى الطفل على الأقل استعدادا لتعلم لغة بشرية. إذن نستطيع أن نستخلص من الملحوظات البسيطة السابقة أن لدى

الطفل الوليد على الأقل استعدادا لتعلم أية لغة بشرية وأنه يكتب بالفعل لغة المجتمع الذي يعيش فيه، وأنه بعد سن معينة لا يستطيع اكتساب أية لغة بشرية على الإطلاق. ولقد كان الرأي السائد إلى ما قبل سنوات قليلة ليس بين الناس عامة فحسب بل وبين معظم العلماء أيضا بأن الطفل يتعلم لغة المجتمع الذي يعيش فيه عن طريق الاستماع والمحاكاة وبمساعدة مستمرة من الأبوين ومن أفراد المجتمعين الصغير والكبير اللذين يعيش فيهما، وكان كثير من الاهتمام موجها إلى هذه المساعدة أو التدريب. إلا أن ما ذكرناه في الفصل السابق عن طبيعة اللغة المعقدة غاية التعقيد وعن السرعة المذهلة التي يتقن بها الطفل أهم مقومات اللغة وهي القواعد المختلفة كما أن التجارب والدراسات العديدة التي تجرى حاليا على لغة الأطفال في سنواتهم المبكرة جدا قد قلبت هذا الاعتقاد رأسا على عقب. فلم يكتف العلماء المعاصرون بفكرة توفر الاستعداد الفطري عند الطفل الوليد لتعلم اللغة البشرية بل أثبتوا أن لديه أكثر بكثير من مجرد استعداد فطري، وقالوا بنظريات مختلفة كلها يؤدي إلى نفس النتيجة وهي أن الإنسان ليس مفطورا على تعلم أية لغة بشرية فحسب، بل أن لديه قدرات لغوية معينة بعضها نيورولوجي (عصبي) وبعضها بيولوجي وبعضها الآخر عقلي. أما القدرات العصبية والبيولوجية فسنتحدث عنها في الجزء القادم من هذا الفصل وأما القدرة العقلية فهي التي يكثر الخلاف حولها وتزداد التجارب لمعرفة كنهها. وهذه كلها هي الخلفية اللغوية التي تمكن الطفل من اكتساب اللغة بتلك السرعة المذهلة. كما أن هؤلاء العلماء مختلفي المشارب والتخصصات قد الغوا تقريبا من الأفكار السائدة فكرتين هامتين:

أولاهما: أن هنالك علاقة وثيقة بين مستوى الذكاء واكتساب الطفل للغة ما.

وثانيتهما: أن هنالك فائدة كبيرة في التدريب الذي يقوم به الوالدان وبقية أفراد الأسرة والمجتمع الذي يعيش فيه الطفل وأن هذا التدريب يلعب دورا إيجابيا في سرعة ونوعية اكتساب لغة ذلك المجتمع.

كما أضافوا فكرة جديدة في غاية الأهمية وهي أن الطفل لا يكتسب اللغة وهو خالي الذهن، بل انه يفعل ذلك بوعي كامل ويستعمل أساليب عقلية علمية تجريبية في أثناء تعلمه لغة مجتمع ما. فهو عنصر إيجابي

متفاعل مع اللغة التي يتعلمها وليس إناء يصب المجتمع فيه قوالب جاهزة من تلك اللغة يغرف منها الطفل ما يشاء حين يشاء.

خلاصة القول من هذه المقدمة هي أن اللغة لا هي طبع كامل ولا تطبع كامل بل هي حصيلة الاثنين معا. وما دام الأمر كذلك فان الأمر يستدعي النظر في كل من هذين الأمرين نظرة جديدة في ضوء النظريات الحديثة. فماذا يعني العلماء المحدثون بأن لدى الطفل الوليد قدرة لغوية فطرية؟

ثم هل توصل هؤلاء إلى معرفة الطريقة التي يكتسب بها الطفل لغة ما؟ هذان هما السؤالان الهامان اللذان سنحاول الإجابة عنهما في الصفحات التالية.

ونبدأ أولا بالإجابة عن السؤال الأول. ولكي نستطيع أن نفعل ذلك لا بد لنا من أن نعرض بإيجاز شديد جدا وجهة نظر تشومسكي صاحب هذه النظرية في العصر الحديث. ثم نرى بعد ذلك ما الذي استطاع العلماء الآخرون إثباته أو دحضه من بنود أو مقومات تلك النظرية.

لقد أشرنا سابقا إلى نظرية تشومسكي النحوية وذكرنا أنه أتى بفكرة البنية الداخلية أو الطبقة العميقة لكل تركيب سواء كان جملة كاملة أو جزءا مترابطا منها والتي لابد أن تتوفر في ذهن المتكلم قبل أن يحولها إلى رموز صوتية وينطق بها على شكل البنية الخارجية أو الظاهرة. وأن هذه البنية الداخلية تتألف من وحدات المعنى المتمثلة في وحدان كلامية منفردة بعضها يعبر عما تعبر عنه المفردات اللغوية المعروفة وبعضها يعبر عن معان نحوية كالزمان والمكان والإفراد والجمع وما إليها. وان الفرد قبل أن يتكلم فعلا يستخدم قوانين أو قواعد خاصة (دعاها قواعد التحويل) وذلك لتحويل تلك البنية الداخلية إلى بنية خارجية هي الكلام المنطوق فعلا. وأضاف تشومسكي إلى ذلك فرضية هامة لا تزال موضع بحث وجدل كبيرين وهي أن البنيات الداخلية متشابهة في جميع لغات العالم أي أنها تدخل ضمن ما يسمى حاليا بالعموميات اللغوية أي العناصر المشتركة بين جميع اللغات. ونحن نذكر هذا كله لسبب هام جدا يتعلق بنظرية تشومسكي بالنسبة لنظرية القدرة اللغوية الفطرية المتوفرة لدى الطفل الوليد. فما هي هذه النظرية؟[8].

سنحاول تبسيط هذه النظرية المعقدة بحيث لا تبدو مغلقة على الفهم

وان كان هذا التبسيط سيبتعد قليلا عن الدقة العلمية الكاملة ويتجاوز بعض الجوانب الهامة من النظرية، ويمكن تلخيص هذه النظرية فيما يلي:

أولا: انه لا بد للطفل الذي يستطيع أن يستخلص من ذلك الخليط العجيب من الكلام الذي يسمعه من حوله-والذي يشبه شبها كاملا أية لغة أجنبية نسمعها دون أن نعرف منها شيئا-تلك القواعد المعقدة التي تحكم نظام تلك اللغة فتجعل منها نماذج واضحة مفهومه، لا بد لذلك الطفل أن يكون مزودا بجهاز عقلي فطري باستطاعته تكوين الفرضيات المتزايدة في التعقيد عن قواعد تلك اللغة وأن هذا الجهاز لا يمكنه أن يقوم بشكل سليم إلا إذا كانت. لديه معرفة فطرية بتلك العموميات أو الأسس العامة التي تحكم أنظمة اللغات جميعا.

ثانيا: أن هذه العموميات أو الأسس اللغوية العامة تتألف من نوعين:

النوع الأول قال به العلماء من قبل تشومسكي وهو يشمل المحتوى اللغوي أو المادة التي تتألف منها جميع اللغات مثل مجموعة الأصوات اللغوية الممكنة ومثل أجزاء الكلام الرئيسية كالأسماء والأفعال والصفات ومثل المفاهيم العامة كالزمان والمكان وما إليها.

أما النوع الثاني-وهو الأهم في نظر تشومسكي فانه يشمل الشكل اللغوي أي العلاقة الصرفية والنحوية أو الطريقة التي بموجبها تتصل وحدات القواعد اللغوية بعضها ببعض والقيود التي تحكم تلك العلاقات.

ثالثا: (وهذا الجزء من النظرية خاص بتشومسكي ومختلف في أمره حاليا ومرتبط ارتباطا وثيقا بنظريته اللغوية الخاصة). أن الطفل الوليد يعلم بشكل آلي أن في كل لغة بنيتين: إحداهما داخلية والأخرى ظاهرية كما يعرف تلك القواعد التي تحول الأولى إلى الثانية. وان هذه المعرفة بشكل خاص هي التي تساعد الطفل على تكوين فرضيات معقولة مبنية على الكلام الذي يسمعه والمؤلف من خليط غير مفهوم من الأصوات. وان هذه الفرضيات تكون ساذجة في أول أمرها ثم يبدأ الطفل بتعديلها تدريجيا بحيث يتوصل في النهاية إلى القواعد الصحيحة والكاملة التي تحكم نظام تلك اللغة التي يسمعها حوله.

لقد فتحت هذه النظرية وخاصة الجزء الثالث منها الباب على مصراعيه لأبحاث لا زال العلماء يقومون بها حتى الآن. وهم يحاولون الإجابة عن

الأسئلة التالية:

أولا: هل صحيح أن الطفل يقوم بتكوين الفرضيات على الكلام الذي يسمعه إلى أن يتوصل إلى القواعد الصحيحة الكاملة للغة؟

ثانيا: هل لدى الطفل بالفعل ما يقول به تشومسكي من معرفة مسبقة بالعموميات أو الأسس المشتركة بين اللغات بما فيها بنية الكلام الداخلية وقواعد التحويل؟

ثالثا: إذا ثبت هذا فانه يعني أن لغة الأطفال في سنواتهم الأولى لا تتألف من مجرد أصوات ومفردات مبعثرة بل أن لها في كل فترة تركيبا مرحليا يمكن التوصل إليه ومعرفته. فهل هذا صحيح أيضا؟

لقد أمضى عدد كبير من المتخصصين بعلم اللغة وعلم النفس وعلم اللغة النفسي السنوات الخمس عشرة الماضية وهم يدرسون لغة الأطفال منذ اللحظة التي يولدون فيها إلى أن يصبحوا متمكنين من اللغة أو من قواعدها بشكل خاص وقد غطت هذه الدراسات أمريكا وأوروبا بأسرها. وكانت معظمها منصبة على محاولة الإجابة عن الأسئلة المذكورة قبل قليل وبخاصة السؤال الثالث منها فقام عدد منهم بدراسة لغة الطفل في الفترة التي ينطق فيها كلمات مفردة فقط. ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر فيجوتسكي من روسيا[9] وماكنيل من جامعة تشيكاغو[10] وبلوم من جامعة كولومبيا في الولايات المتحدة الأمريكية[11]. ومع أن بعضا من هؤلاء العلماء رأى في الكلمات المفردة تعبيرا عن بنيات أو تراكيب نحوية اعتبروها جملا كاملة إلا أنه كان من الصعب عليهم نظرا لصعوبة هذا النوع من الدراسة أن يحددوا تلك الجمل التي تعبر عنها الكلمات المفردة. كما أن وجهات النظر بين العاملين في هذا الحقل كانت متباينة جدا لدرجة لا يمكن الاعتماد على أي منها اعتمادا كبيرا.

ولكن البحث كان أكبر جدوى في الجمل المؤلفة من كلمتين والتي يستعملها جميع أطفال العالم بعد فترة الكلمات المفردة، وفي الجمل الأطول من كلمتين وذلك في محاولة لمعرفة ما إذا كان لهذه الجمل قواعدها الخاصة بها أم أنها مجرد محاكاة غير كاملة للغة البالغين.

لقد كانت دراسة جمل الأطفال المؤلفة من كلمتين أوضح دلالة من النظر في الكلمات المفردة. ولعل أدق تلك الدراسات وأكثرها قيمة ما قامت

به لوي بلوم[12] التي أجرت تجاربها على أطفالها الثلاثة بطريقة مستمرة ودقيقة للغاية وقد اتضح لها بما لا يدع مجالا للشك أن للجمل المؤلفة من كلمتين نظاما نحويا ثابتا يعتمد على قواعد مقررة وأن الطفل يعبر بواسطتها عن علاقات معينة كعلاقة الفاعل والمفعول به وعلاقة المكان وعلاقة الملكية بنفس نظام ترتيب الكلمات المتعارف عليه في اللغة الإنجليزية التي يتكلمها البالغون. وهذا يدل على أن الطفل يعرف أن اللغة تحكمها قواعد معينة بدليل أنه يعبر عن العلاقات اللغوية بشكل ثابت بينما تدل الأخطاء التي يرتكبها على الفرضيات التي يكونها والتي يعدلها فيما بعد. كما أن من الواضح أن الأطفال في هذه السن المبكرة جدا (بين العام الأول والرابع) خلاقون في اللغة التي يستعملونها بدليل استخدامهم تراكيب لم يسمعوا بها من قبل. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: مادام الأمر كذلك، فهل هذا دليل على أن لدى الطفل معرفة فطرية بمواصفات الجملة؟ وهنا تختلف الآراء فالبعض يؤكد ذلك، ولكن كثيرين آخرين ممن اجروا تجاربهم في السنوات الثلاث أو الأربع الماضية يعتقدون بان معرفة الطفل لا تتصل بالعلاقات اللغوية نفسها بقدر اتصالها بالمفاهيم أو المعاني التي تعبر عنها تلك العلاقات: كالزمان والمكان وبالملكية والرغبة وما إليها.

وسيبقى هذا السؤال مفتوحا لفترة من الزمان إلى أن تجرى عليه التجارب الكافية وسيترك الاتجاه الجديد أثره على نوع قواعد اللغة التي سيصار إلى صياغتها والتي ربما تعتمد في الأساس على المعاني، وهو اتجاه بدأ يقوى ويتسع مداه في الآونة الأخيرة.

أما الدراسات التي أجريت على الجمل التي تزيد على كلمتين (والتي أشهرها ما أجراه ولا يزال يجريه عدد من العلماء العاملين في جامعة هارفارد على الأطفال الثلاثة آدم وحواء وسارة الذين ينتمون إلى ثلاث أسر مختلفة والذين أصبحوا مشهورين في أوساط المهتمين بعلوم اللغة)[13] فقد أكدت تأكيدا كاملا أن نظرية تشومسكي صحيحة فيما يتعلق بكون الطفل لا يكتسب اللغة عن طريق محاكاة البالغين بل انه يفعل ذلك عن طريق تكوين الفرضيات واستعمال قواعد خاصة به يجري تعديلها باستمرار إلى أن تشبه القواعد التي تحكم لغة الكبار، وانه يعلم بشكل آلي أن اللغة محكومة بقواعد معينة عليه اكتشافها. وقد أضافت الدراسات الجديدة

معلومات إضافية لتلك النظرية وهي أن فرضيات الأطفال تتشابك، أي أن الطفل لا يتخلى عن فرضية قديمة بمجرد اكتشاف فرضية جديدة يل يتمسك بالقديمة إلى فترة تطول أو تقصر وان الأخطاء التي يرتكبها يمكن أن تعزى إلى ذلك التشابك.

بقي علينا الآن أن نفحص ذلك الجزء من نظرية تشومسكي الذي يقول أن الطفل يكتسب اللغة بكفاءة وسرعة بالغتين لان لديه معرفة فطرية بالعموميات أو الأسس العامة التي تقوم عليها جميع لغات الأرض والتي يقول تشومسكي أنها تشمل فكرة البنية الداخلية والبنية الخارجية لكل تركيب لغوي كما تشمل القواعد التي تحول الأولى إلى الثانية والتي أشرنا إليها في اكثر من موضع من هذا الكتاب.

لقد دلت التجارب والأبحاث (التي لم نستطع أن نشير إلى أي منها بشيء من التفصيل لضيق المقام) أن الطفل يولد ولديه فكرة عن طبيعة اللغة وانه سرعان ما يتبين عندما يبدأ الكلام أنه يعرف مسبقا أن اللغة تحكمها قواعد معينة محدودة، كما يبدو كأن الطفل يعلم مسبقا بأن اللغات مركبة بطريقة هرمية وهذا يعني أننا بدلا من أن نقول مثلا:

رأيت/الرجل

نستطيع أن نقول:

رأيت/الرجل الشجاع

أو: رأيت/الرجل الشجاع القوي الجسم

أو: رأيت/الرجل الشجاع القوي الجسم الذي كان يصارع الثور.

وأمثالها من الجمل التي تستطيع أن تمتد إلى ما لا نهاية من كل طرف من أطرافها. أي أننا نستطيع أن نستعمل كلمة واحدة فقط أو عددا غير محدود من الكلمات المترابطة في كل إطار من إطاري هذه الجملة وغيرها من الجمل. كما تبين للدارسين أيضا أن لدى الطفل إدراكا فطريا بأن هنالك عمليات لغوية تعتمد اعتمادا كاملا على التركيب اللغوي، أي أننا لا نستطيع تحريك الكلمات المفردة في الجملة من موضع إلى آخر على هوانا، ولكننا نستطيع تحريك الإطارات التي يحتوي كل منها على مجموعة من الكلمات المترابطة بموجب قوانين وقواعد لغوية معينة.

هذه كلها نتائج هامة للغاية، إلا أننا لم نجب بعد على السؤال الثاني

الذي ذكرناه في بداية هذا الكلام وهو: هل توصل العلماء إلى اكتشاف الطريقة التي يكتسب بها الطفل اللغة وينميها، وكيف يتم ذلك بالضبط؟ كما نريد أن نعرف أيضا لماذا يتبع الأطفال الذين يعيشون في مجتمع لغوي واحد خطوات متشابهة أثناء تعلمهم لغة ذلك المجتمع، بعد أن أثبتت الدراسات ذلك وبينت تلك الخطوات بتفصيل كبير؟

أن ذلك الجزء من نظرية تشومسكي الذي أشرنا إليه قبل قليل لم يستطع أن يقف على قدميه أمام الدراسات التي أجريت عليه، وخاصة تلك التي أجريت ولا زالت تجرى على أطفال جامعة هارفارد: آدم وحواء وسارة، بل هي تكاد تكون قد دحضت تلك النظرية بشكل قاطع. فقد ثبت مثلا أن الأطفال يكتسبون المقدرة على صياغة أنواع من الجمل تقول نظرية تشومسكي أنها تحتاج إلى قواعد تحويلية معقدة للغاية وذلك بسرعة وسهولة أكبر من إتقانهم لجمل أبسط بكثير في نظره. كما أنه تبين بوضوح أن الطفل لا يفكر أثناء اكتسابه اللغة بما أطلق عليه لومسكي البنية الداخلية أو العميقة للجملة بل هو يبحث عن أنماط تتبع نظاما متناسقا في البنيات الخارجية للجمل. فهو يتعلم مثلا استعمال الجملة المبنى فعلها للمعلوم منفصلة عن تلك المبني فعلها للمجهول ولا يكشف العلاقة العميقة بينهما إلا بعد مدة طويلة، مع أن المفروض أن أساس الجملتين واحد. وهذا أيضا ينطبق على أشكال أخرى من الجمل كالمثبت والمنفي والاستفهام وبعض التراكيب اللغوية الأخرى.

وبناء على ذلك فقد انطلق العلماء يبحثون عن الإجابات عن الأسئلة السابقة بطرق أخرى أتت حتى الآن بنتائج أفضل. وأهم هذه الطرق ثلاث:

أولاها: دراسة المراحل التي يمر بها الطفل في تكوين جملة، من أبسطها، أي تلك التي تتألف من كلمتين إلى أن يتوصل إلى الشكل النهائي الصحيح لها، ومحاولة اكتشاف الاستراتيجية أو الخطة العامة-أن وجدت-التي يتبعها الطفل للوصول إلى ضالته.

ثانيتها: دراسة نوعية الأخطاء التي يرتكبها الطفل أثناء تطور مقدرته اللغوية.

أما الثالثة فهي: تحليل لغة الأطفال الذين يتعلمون لغتين في آن واحد. وقد أثبتت الطريقة الثالثة أنها أفضل الطرق جميعا وعلى الرغم من أن

الأبحاث لا زالت مستمرة في هذا المجال إلا أن الباحثين أخذوا يبتعدون عن آراء تشومسكي الخاصة بهذه الناحية ويستبدلونها بفرضية أخرى تقول أن الطفل يولد مزودا بعقل نشيط ذي تركيب معقد جدا وربما كان مزودا بما يمكن أن يسمى جهازا لحل الألغاز الطفل بواسطته أن يستخلص قواعد اللغة المعقدة (التي ليس من الضروري أبدا أن تكون من نوع القواعد التي اقترحها تشومسكي) من ذلك الخضم المتلاطم من الأصوات والعبارات التي يتعرض لها الطفل في سنواته الأولى. والأمر مع ذلك لا زال بحاجة إلى المزيد من البحث والتقصي والتجربة. إلا أن الكل مجمع الآن على أن الطفل لا يولد وذهنه صفحة بيضاء، كما أنه لا يكتسب اللغة عن طريق الاستماع والمحاكاة فحسب.

لقد قمنا حتى الآن بعرض ما تم من الأبحاث في السنوات الأخيرة بالنسبة لطبيعة اللغة، وبيّنا كيف ثبت للدارسين أن الطفل يولد ولديه مقدرة من نوع معين على اكتساب أية لغة من اللغات، وقد كان معظم تلك الأبحاث يعتمد على الجانب اللغوي فقط. فهل هناك دليل بيولوجي على أن الإنسان لديه مثل تلك القدرة بينما لا يتوفر مثلها لدى عالم الحيوان؟.

هذا هو الموضوع الذي سنعرضه في الصفحات التالية.

4-الدليل البيولوجي على المقدرة الفطرية[14]

لقد حفزت الدراسات والتجارب اللغوية التي أشرنا إليها سابقا، والتي بينت بوضوح تام أن اللغة بمفهومها الحقيقي قدرة فطرية خاصة بالجنس البشري، حفزت علماء الأحياء (البيولوجيا) والتشريح والأطباء، على البحث فيما إذا كانت هنالك ظواهر بيولوجية تؤيد هذا القول. ومن اشهر أولئك الباحثين الأستاذ أريك لنبرغ (Eric Lenneberg) من جامعة هارفارد، وأن كان هذا اسما واحدا فقط من بين أسماء كثيرة لعلماء ركزوا اهتمامهم على هذه الناحية.

يقول لنبرغ[15] أن الأسباب التي دفعته هو وغيره إلى أن يتوقعوا أن تكون بعض الصفات البيولوجية المحددة متوفرة في الإنسان ولها علاقة مباشرة باللغة هي:

ا- وجود بعض العلاقات بين اللغة والنواحي الفسيولوجية والتشريحية

الخاصة للإنسان. فقد تزايد عدد الأدلة التي تشير إلى أن للسلوك اللغوي علاقات عديدة بالخصائص المرفولوجية (أي التشكيلية) والوظيفية لجسم الإنسان منها العلاقة بين اللغة وتركيب جهازي السمع والنطق، ومنها العلاقة بينها وبين الدماغ والتخصصات التي اكتشفت في أجزائه المختلفة، وبينها وبين بعض مراكز التنسيق بين الحركات العضلية الخاصة بالنطق، وخاصية السيطرة على التنفس ليتمكن الإنسان من مواصلة الكلام فترة طويلة، وخصائص أخرى تتعلق بالحس والإدراك اللازمة للإدراك اللغوي.

2- الجدول الزمني للتطور اللغوي: فقد أصبح من الواضح تماما أن البدء بالنطق والسلوك اللغوي يأتي حسب جدول زمني دقيق ويتطور بموجب ذلك الجدول في جميع أطفال العالم مهما اختلفت لغاتهم وحضاراتهم. كما أن أول ما يتعلمه الطفل لا يتألف من مفردات اللغة بل من بعض المبادئ المتعلقة بتصنيف تلك المفردات إلى أسر. فالكلمات الأولى التي يكتسبها الطفل لا تشير إلى أشياء أو أحداث معينة، بل تشير إلى مجموعات أو أسر. فكلمة كرسي مثلا تشير، بالنسبة للطفل، إلى أسرة الكراسي جميعا بغض النظر عن أحجامها وألوانها والمواد المصنوعة منها، وهكذا. كما أن الطفل يكتسب أولا الأسس التي بموجبها يمكنه تركيب الأصوات بعضها مع بعض بحيث تنتج عنها الكلمات.

لقد تم أيضا اكتشاف بعض المبادئ العامة التي تتعلق بالنحو وبالمعاني في لغة الأطفال في فترة مبكرة من فترات تعلمهم اللغة، كما تبين أن جدول النمو اللغوي لا يتغير حتى لو طرأ تغير جذري على جدول التطور الجسماني الشامل للطفل.

3- صعوبة كبت اللغة أو وقف تطورها: أن القدرة الكامنة عند الطفل والتي تمكنه من اكتساب اللغة قوية لدرجة أنها تتطور في وجه أعلى الصعوبات. فالأطفال المكفوفون يكتسبون اللغة كالأطفال الأسوياء فيما عدا بعض المفردات التي لا يستطيعون التعرف عليها إلا عن طريق اللمس. ومع أن الأطفال الذين يولدون بدون حاسة السمع تعترضهم صعوبة لا تقهر بالنسبة لتطور الناحية الصوتية من اللغة إلا أن بالإمكان اكتسابهم اللغة المكتوبة من غير صعوبة تذكر. أما أولئك الأطفال الذين يولدون لآباء وأمهات صم بكم مذ رأوا النور فانهم يستطيعون اكتساب اللغة بشكل عادي أو

يتأخرون تأخرا بسيطا لا يذكر.

4- اللغة البشرية لا يمكن تعليمها لغير البشر: لقد دلت جميع التجارب حتى الآن أنه ليس لدى جنس غير بشري لغة أو حتى وسيلة أخرى للاتصال تصل في تنظيمها وتعقيدها وقدرتها على الابتكار إلى مستوى لغة الإنسان. كما أثبتت أيضا أنه لا يمكن تعليم هذه اللغة لأي جنس غير بشري، (رغم التجارب الحديثة التي تجرى على تعليم القرود لغة البشر بوساطة غير صوتية، مما سنأتي على ذكره عما قريب).

5- العموميات أو الأسس العامة لجميع اللغات: لقد بين الكثير من اللغويين (ومن أهمهم تشومسكي وجرينبرغ وهيلمسلف)[16] أن هنالك أسسا صوتية ونحوية ودلالية مشتركة بين جميع لغات العالم بغض النظر عما إذا كانت بين بعضها علاقات تاريخية أم لم تكن. ففي جميع لغات العالم مفردات تدل على الأشياء والمشاعر والصفات والأفعال والعلاقات المختلفة. ومن الناحية البيولوجية ليس هنالك فروق تذكر من حيث دلالات هذه المفردات، كما أن هنالك أسسا أخرى مشتركة بين اللغات وردت الإشارة إلى بعضها أعلاه، بالإضافة إلى هذا فان من المعروف أن أي طفل أو أي إنسان عموما بإمكانه أن يتعلم أية لغة في العالم. وعلى هذا فان من الواضح أن المهارات الأساسية اللازمة لاكتساب اللغات المختلفة واحدة على الرغم من وجود الاختلافات بين أجناس البشر من النواحي الفيزيولوجية.

هذه هي الأسباب التي دعت هذا الفريق من العلماء إلى محاولة اكتشاف الصفات البيولوجية المميزة للجنس البشري وحصرها. فماذا كانت نتائج دراساتهم حتى الآن؟

بالنسبة لنظرية النشوء والارتقاء التي نادى بها العالم داروين (Darwin) القرن التاسع عشر فقد تبين أنها لا تتعارض مع وجود صفات خاصة مميزة لأنواع معينة من المخلوقات، فهنالك نظريات بيولوجية معروفة لتفسير ذلك لا داعي للخوض في تفاصيلها هنا وان كانت بعض تلك الصفات المميزة لا تستطيع أن تفسر ولا تتمشى دائما مع وظيفة الأعضاء التي تتمتع بتلك المميزات، كما أن كثيراً من وظائف الأعضاء لا يمكن دائما تفسيرها على أساس بنيتها البيولوجية. ثم أن قدرة الإنسان على التفاهم والاتصال

بأخيه الإنسان ليست أمرا فريداً في عالم الحيوان (الذي ينتمي إليه الإنسان) فقد سبق أن ذكرنا طرقا مختلفة للاتصال تتميز بها أنواع معينة من الحيوانات وتختلف نوعياتها بينها. إلا أن العلماء لم يتوصلوا بعد في ظل نظرية النشوء والارتقاء إلى معرفة أقرب نسب للغة البشرية، فقد اتضح من دراسة لغة القرود، وهي أقرب الحيوانات إلى الإنسان من الناحية البيولوجية، أن لغتها تختلف لا من حيث الكم فحسب بل من حيث نوعها وطبيعتها اختلافا جذريا عن لغة الإنسان.

ولو نظرنا إلى اللغة من حيث الوراثة نرى أن أبحاثا كثيرة قد أجريت على الجينات الحاملة للوراثة وأصبح من المتفق عليه علميا الآن أن هنالك أساسا في الجينات لبعض أنواع السلوك. وهذا لا يعني أن أنواعا معينة من الخصائص السلوكية ناتجة عن جينات محددة، بل أن الاستعداد أو الميل لبعض أنواع السلوك يمكن أن يكون وراثيا. إلا أن بعض هذه الخصائص أقوى من غيرها بحيث أنها يمكن أن تقاوم التغير أو التطور رغم أن التغير في الجينات يكون قد أحدث تغيرا في التركيب العام للشكل والوظيفة في فرد من الأفراد. فكيف نطبق هذا على اللغة؟

إن اكتشاف عيوب لغوية وراثية ليس جديدا بل هو قديم قدم علم الطب. إلا أن تلك العيوب قلما تؤثر على مستوى الذكاء. كما أن هنالك أبحاثا حديثة جدا ومعاصرة على الكروموسومات تشير إلى انه إذا طرأ خلل على كروموسوم أو اكثر فان من الممكن أن يحدث عيوبا جسدية دون أن يؤثر على الذكاء كما أن خللا آخر يمكن أن يؤثر على الذكاء دون أن يؤثر بالضرورة على اللغة.

إن البحث في العيوب اللغوية الوراثية يؤمل أن يلقي بعض الضوء على ما إذا كان أساس القدرة اللغوية له علاقة بالجينات أي بالوراثة. ولكن هذا لم يتأكد بعد. والدراسات لا تزال جارية لإثباته أو نفيه. إلا أن من الواضح أن الاستعداد أو الميل لاكتساب اللغة قد بقي ثابتا عند الإنسان على الرغم مما طرأ على جيناته من التغيرات المختلفة خلال تطوره الطويل.

إن الفائدة الحقيقية من التأكد من أن أساس اللغة أساس بيولوجي هو أن نتمكن من إيجاد علاقة محددة بين اللغة بمقوماتها المختلفة وبين صفات بيولوجية أخرى محددة. ولكن هذا لم يتم بعد. وكل ما تم التوصل إليه هو

إعادة النظر في بعض الأمور التي كانت تعتبر شبه مؤكدة كعلاقة اللغة بالذكاء مثلا. فقد كان يعتقد حتى وقت قريب أن قدرة الإنسان على استعمال اللغة هي نتيجة للمستوى العالي من الذكاء العام الذي يتمتع به. وأخذت ظاهرة نسبة وزن دماغ الإنسان إلى وزن جسمه ومقارنته بالحيوانات الأخرى كدليل بيولوجي على ارتفاع نسبة ذكائه. ولكن حتى لو استطعنا أن نقيس ذكاء كل من الحيوان والإنسان وان نعقد مقارنة بينهما (وهذا موضوع غير متفق عليه بالمرة) وتبين أن نسبة ذكاء الإنسان أعلى بكثير من ذكاء الحيوان فهل هذا دليل على أن الذكاء هو الذي ساعد الإنسان على الكلام أو أن اللغة هي سبب الذكاء الإنساني كما يقول بعض العلماء والفلاسفة؟ أن معظم العلماء المعاصرين يعتقدون أن القدرة على اكتساب اللغة تطور بيولوجي لا علاقة له بالذكاء وقد أكدت بعض الدراسات التي أجريت على ضعاف العقول ذلك بشكل قاطع. فاللغة تبدأ عند الطفل السوي بنفس الطريقة التي تبدأ بها عند الطفل المتأخر عقليا، ويختلف كلاهما عن لغة الشمبانزي مثلا اختلافا جذريا. كما أن الرجل البالغ ضعيف العقل الذي لا يزيد معامل ذكائه عن 20 إلى 30 من مائة عنده لغة كاملة تقريبا فيما عدا قليل من الصعوبة في النطق أو فيما عدا بعض الأخطاء النحوية. وهكذا فانه ليس من الضروري أبدا أن يعطل التأخر العقلي اكتساب اللغة.

أما البحث في وزن الدماغ فلم يأت بنتيجة. فقد تبين أن بعض الأفراد الذين يبقون أقزاما لسبب مرض أو بيولوجي بحيث لا يزيد طول أحدهم عن قدمين أو ثلاثة يكتسبون لغة الإنسان بشكل طبيعي على الرغم من أن وزن دماغ الواحد منهم ضعيف للغاية.[17] ونظرا إلى هذه النتائج فقد اتجه نظر العلماء إلى دراسة الدماغ من الناحية العصبية الفسيولوجية أي من ناحية الكيف لا الكم التي كان معظم الاهتمام مركزا عليها حتى عهد قريب.

إن النظرة السريعة تشير إلى وجود وجوه شبه كثيرة بين دماغ الإنسان ودماغ الشمبانزي وبعض الحيوانات الأخرى، ففي كل من هذه المخلوقات ينقسم الدماغ إلى جزأين: جزء علوي هو المخ. وجزء سفلي هو المخيخ أو ساق الدماغ. والجزء الآخر هو المسؤول عن استمرار الحياة في الجسم لأنه ينظم عمليات التنفس وضربات القلب وما إليها. أما الجزء العلوي وانه

ليس ضروريا للحياة بل وظيفته أن يكيف الإنسان أو الحيوان مع المحيط الذي يعيش فيه، وهذا هو الجزء الذي يساعد على تنظيم اللغة أيضا وينقسم إلى منطقتين: يمنى ويسرى، تصل بينهما عدة جسور.

ويعتقد الكثيرون أن كلا المنطقتين في مخ الحيوان تقومان بنفس الوظائف، فإذا تأكد هذا يكون هنالك اختلاف جذري بين الحيوان والإنسان، ففي مخ الإنسان تسيطر المنطقة اليسرى منه على النصف الأيمن من الجسم بينما تسيطر المنطقة اليمنى على النصف الأيسر من الجسم. كما أن المنطقة اليسرى من المخ في البالغين هي التي تسيطر على اللغة. وهذا ليس اكتشافا حديثا بل انه اكتشاف مضى عليه اكثر من مائة وأربعين عاما، والجديد فيه أنه تأكد الآن بشكل قاطع بفضل الأبحاث التي أجريت عليه وخاصة خلال القرن الحالي الذي أمكن فيه استعمال أساليب علمية حديثة بالإضافة إلى الملاحظة التي كان يعتمد عليها في السابق. ومن هذه الأساليب حقن المنطقة اليسرى من المخ بنوع من المخدر لفترة قصيرة وملاحظة أثر ذلك على القدرة على الكلام. ومنها أيضا طريقة حديثة جدا وهي وضع سماعة منفصلة في كل أذن من الأذنين تتصل كل منهما بجهاز تسجيل منفصل. وقد تبين انه إذا صدر من جهازي التسجيل في آن واحد كلمتان مختلفتان فان الفرد يسمع الكلمة التي تصل إلى أذنه اليمنى بوضوح اكثر بكثير من تلك التي تصل إلى أذنه اليسرى. بينما إذا أصدرت نغمتان موسيقيتان مختلفتان إلى الأذنين معا فان الأذن اليسرى تميز النغمة أكثر من اليمنى. وقد كانت نتائج التجارب المتواصلة واحدة تقريبا ودلت بشكل مؤكد بأن المنطقة اليسرى من المخ هي المسؤولة عن اللغة.[18]

وقد تلا هذا الاكتشاف اكتشاف آخر حديث وهو أن هنالك علاقة بين كون القدرة اللغوية متمركزة في المنطقة اليسرى من المخ ومن كون معظم الناس يستعملون أيديهم اليمنى في الأعمال عامة وفي الكتابة بوجه خاص. ولكن لوحظ أيضا أن معظم الأفراد الذين يستعملون أيديهم اليسرى في الكتابة تكون القدرة اللغوية عندهم متمركزة في المنطقة اليسرى من المخ أيضا، وأن من المحتمل أن تكون الصعوبات في الكلام والكتابة التي يشكو منها بعض الأطفال راجعة إلى عدم كون مركز القدرتين في منطقة واحدة من المخ.

ويستنتج من هذا، وان لم تكن الأدلة حتى الآن قاطعة تماما، بأن هنالك صفة بيولوجية عصبية خاصة في الإنسان تميزه عن الحيوان وتخلق عنده الاستعداد لاكتساب اللغة، وأن هذه الصفة تكمن في سيطرة كل من منطقتي مخ الإنسان على الجانب المعاكس من جسمه. ومما يجدر ذكره هنا أن هذه الصفة أو الظاهرة الإنسانية لا تكون موجودة في الطفل الذي يقل عمره عن السنتين بل تبدأ بالتكون بين سن الثانية والرابعة عشرة. فإذا أصيبت المنطقة اليسرى من مخ الطفل ببن هذين العمرين بخلل ما فان بإمكان القدرة الكلامية الانتقال إلى المنطقة الأخرى، أما إذا حدث ذلك بعد سن الرابعة عشرة فان القدرة الكلامية يمكن أن تتعطل كليا أو جزئيا بحسب شدة الإصابة.

وتنصب معظم الدراسات الحديثة على محاولة اكتشاف ما إذا كانت جميع العمليات اللازمة للكلام متركزة في المنطقة اليسرى من المخ أم أن بعضا منها يمكن أن تقوم به المنطقة الأخرى. ويمكن الإشارة بإيجاز شديد إلى ما تم التوصل إليه حتى الآن:

أولا: تم حتى الآن اكتشاف منطقة في الجزء الأيسر من المخ سميت منطقة بروكا (Broca‘s Area) نسبة إلى مكتشفها تقع أمام الأذن اليسرى مباشرة وأعلى منها قليلا، تبين أنها منطقة مهمة جدا بالنسبة للغة. ويعتقد الآن بأن هذه المنطقة ومنطقة أخرى تسمى باسم مكتشفها فرنيكه (Wernicke‘s) (Area لهما علاقة بالتخطيط للكلام وبفهمه.

ثانيا: كما أمكن تحديد منطقة أخرى تمتد في منتصف المخ تقريبا باتجاه رأسي تسيطر على جميع الحركات الجسمية الإرادية، ومنها النطق الفعلي للكلام.

ثالثا: إن الفرق بين السيطرة على الحركات الجسمية الإرادية في الإنسان والحيوان إن مساحات أكبر من مخ الإنسان مخصصة للسيطرة على حركات اليدين والفم مما هو الحال عليه في مخ الحيوان.

رابعا: أما تحديد التخصصات الأخرى بالنسبة للمخ وعلاقتها بمظاهر أخرى محددة من اللغة فلا يزال البحث فيه جاريا في الوقت الحاضر.

إن المشكلة الرئيسية في هذا البحث أن المعلومات تجمع في معظم الحالات من المرضى المصابين بإصابات في أدمغتهم. وعلى الرغم من أن

بعض الباحثين من الأطباء بوجه خاص (من أمثال بنفيلد وروبرتس في كندا)[19] يحاولون إجراء بعض التجارب على الأصحاء إلا أن المخاطر التي يمكن أن تنتج من مثل هذه التجارب تمنعهم من متابعتها أو التعمق فيها.

ننتقل الآن إلى المظاهر الأخرى التي تدل أن للغة الإنسانية أساسا بيولوجيا، وسنبحث هذه تحت موضوعين:

الأول: جهاز النطق عند الإنسان ومقارنته بمثيله عند الحيوان.

الثاني: تطور القدرة اللغوية عند الإنسان ومقارنتها بمظاهر السلوك الأخرى التي لها أساس بيولوجي.

أما جهاز النطق في الإنسان فانه يتمتع بصفات تبدو غير عادية بالنسبة للحيوانات الأخرى إلا أنها لا تشير بحد ذاتها إلى قدرة الإنسان على النطق. ولكن بما أننا نعلم أن الإنسان قادر على استخدام اللغة التي نعرفها فان هذه الصفات تبدو وكأنها تساعده على الجانب المنطوق منها.

فرئتا الإنسان مثلا شبيهتان بمثيلاتهما في الثدييات الأخرى من ناحية التركيب، إلا أن عملية التنفس عند الإنسان تبدو مكيفة تكييفا مناسبا جدا لعملية الكلام. أن نظام التنفس في معظم الحيوانات نظام متناسق ومتوازن تماما وهذا ينطبق على الإنسان الذي لا يستطيع مثلا الامتناع عن التنفس تحت الماء لأكثر من دقيقتين كما أن اضطراب أو تسارع التنفس بشكل كبير بسبب الإجهاد ربما يودي بحياة الإنسان. ولكن هذا النظام يتغير تغيرا واضحا أثناء الكلام فيصبح الشهيق أسرع وأقصر بكثير مما هو عليه عادة بينما تصبح عملية الزفير أبطأ وأطول. وربما امتد هذا التغير لساعتين أو أكثر قبل أن يشعر الإنسان بالإجهاد. وهذه القدرة على تغير نظام التنفس التي تلزم للسباحة أو العزف على إحدى آلات النفخ الموسيقية كالبوق مثلا تحتاج إلى تدريب شاق طويل في هذه الحالات إلا أن القدرة اللازمة للكلام توجد مع الطفل منذ ولادته.

وبين حنجرة الإنسان وحنجرة القرود مثلا اختلاف رئيسي فالأولى أبسط من حيث التركيب وهذا يساعد على مرور الهواء من الرئتين بدون عوائق إلى أن يصل إلى الفم والأنف، وبساطة التركيب في نظر علماء الأحياء دليل على التخصص في عضو معين. وان كان الإنسان يدفع ثمنا غاليا نتيجة هذا التخصص في حنجرته فالقرد يستطيع أن يسد ما بين

فمه وقصبته الهوائية أثناء الأكل بينما لا يستطيع الإنسان أن يفعل ذلك وكثيرا ما يغص هذا لدخول شيء من الطعام في قصبته الهوائية ويسبب له الكثير من الإزعاج وربما يودي بحياته.

وهنالك اختلافات أيضا بين فم الإنسان وغيره من أفواه الحيوانات فأسنان الإنسان متقاربة في الارتفاع وتشكل حاجزا كاملا كما أنها ليست مائلة والفكان يمكن أن ينطبق أحدهما على الآخر إنطباقا كاملا. وهذه الصفات كلها ليست لازمة لعملية الأكل و لكنها ضرورية لعملية نطق بعض الأصوات بوجه خاص. كما أن عضلات الشفتين أكثر تطورا وتشابكا في الإنسان منها في القرود مثلا. واللسان سميك مرن الحركة قوي العضلات إذا قورن بلسان القرد وهذا يساعد على تكوين حجرات متفاوتة في الاتساع لازمة لنطق كثير من الأصوات الصامتة المختلفة (كالألف والواو والياء وغيرها). وأخيرا فان الفم بمجمله صغير نسبيا ويمكن أن يفتح ويغلق بسرعة وهذا يساعد أيضا على نطق بعض الأصوات وخاصة ما تسمى بالأصوات الانفجارية.

إن جميع هذه الصفات الخاصة بجهاز النطق عند الإنسان تبدو مواتية لنطق الأصوات المختلفة المستعملة في لغات البشر. فإذا نظرنا إلى بدء اللغة وتطورها عند جميع أطفال العالم نجد أنها تتبع جدولا زمنيا يكاد يكون ثابتا بالنسبة لهؤلاء جميعا مهما اختلفت لغاتهم وحضاراتهم، كما نجد أن تطور اللغة شبيه من وجوه عديدة جدا بأنماط السلوك الأخرى المحكومة بيولوجيا.[20]

فمن أهم صفات هذه الأنماط السلوكية: حتمية ظهورها في الفرد التابع لإحدى الفصائل الحيوانية في وقت معين، تختلف من فرد إلى آخر، إذا نشأ هذا الفرد في ظروف طبيعية. وهذه الصفة متوفرة بالنسب للغة، وقد أشرنا إليها من قبل.

ومن الصفات الأخرى أن السلوك المحكوم بيولوجيا يظهر قبل أن تدعو الحاجة إليه. وهذه أيضا إحدى الصفات التي تميز نشأة اللغة عند الطفل فهي تبدأ في الظهور قبل أن يحتاج لها الطفل كوسيلة للاتصال مع الآخرين، وعندما يكون ما زال في رعاية أمه التامة.

وصفة ثالثة أن ظهور مثل هذا النمط من السلوك لا يأتي بقرار واع أو

نتيجة لظروف ومؤثرات خارجية. وهذا ينطبق على اللغة أيضا، فلا دخل لإرادة الطفل في ظهور اللغة عنده. كما أن اللغة تظهر حتى لو لم يتغير شيء في ظروف الطفل الخارجية. ومع هذا فإن للمحيط أثرا على التطور الطبيعي للغة وهذا واضح من النظر إلى طفل ينشأ في محيط غني من الناحيتين اللغوية والثقافية وآخر ينشأ في محيط أفقر من الناحيتين، فإن المحيط الفقير يعيق تطور اللغة ويفقرها من حيث المفردات والقواعد. إلا أن هذا التأخير لحسن الحظ تأخير مؤقت يمكن التغلب عليه بسرعة حالما ينتقل الطفل إلى محيط أفضل، فتتغلب الناحية البيولوجية على التأثير السيئ للمحيط أو البيئة.

ويتصف السلوك المحكوم بيولوجيا بصفة أخرى هامة وهي أن من المحتمل جدا أن تكون هنالك فترة حرجة بالنسبة لاكتساب ذلك السلوك. وقد احتاج تطبيق هذه الصفة على اللغة إلى دراسات وتجارب عديدة. فقد تبين مثلا أن إشارة الانطلاق بالنسبة للغة مرتبطة بنمو الدماغ وحجمه وأنها تتفق عادة مع الوقت الذي يبدأ فيه الطفل بالوقوف منتصبا على قدميه والقيام بخطواته الأولى.

إن عدد الخلايا في دماغ الإنسان محدد منذ طفولته وهي تعد بالبلايين إلا أن الاتصالات بين هذه الخلايا تتزايد مع النمو وكذلك حجم الدماغ ووزنه الذي يبدأ بحوالي 300 غرام ويرتفع إلى حوالي ألف غرام في سن الثانية. هذا ما يتصل ببدء اللغة. فهل هنالك سن محدد يصبح فيه الإنسان غير قادر على اكتساب أية لغة لقد دلت الملاحظة والتجارب على وجود هذه النقطة الحرجة وقدرت بسن الرابعة عشرة كما أشرنا إلى ذلك من قبل. وقد أتى الدليل على ذلك من مصادر ثلاثة:

أولها: ما ذكرناه سابقا من أمثلة كثيرة عن أطفال يعيشون في عزلة عن المجتمع فإذا اكتشفوا بدون لغة وهم قبل سن الرابعة عشرة أصبح بالإمكان تعليمهم لغة ما وان كان اكتسابهم للغة يبطئ كثيرا كلما ازداد عمرهم.[21]

وثانيها: دراسة تطور اللغة عند المتأخرين عقليا مثل المونجول وهؤلاء يتعلمون اللغة بنفس طريقة الطفل السوي إلا انهم أبطأ بكثير ويزيد هذا البطء إلى درجة كبيرة جدا عندما يصلون سن البلوغ ولذلك يبقون متأخرين لغويا عمن هم في سنهم عن الأطفال الأسوياء.[22]

أما المصدر الثالث: فهو مقدار شفاء المرضى المصابين بخلل في الدماغ ناتج عن صدمة أو ضربة أو ما إلى ذلك.

فقد تبين انه إذا أصيب طفل في المنطقة اليسرى من دماغه وهو تحت سن الثانية فان قدرته اللغوية تتطور وتنمو بشكل طبيعي. وكلما زاد عمره صعب اكتسابه للغة فإذا ما بلغ سن الرشد كانت النتيجة انه يصاب بعاهة لغوية لا يشفى منها.[23]

أما الصفة الخامسة والأخيرة فهي أنه لا أثر للمران والتدريب المكثفين على تطور ونمو الصفة المحكومة بيولوجيا كما أن هنالك سلسلة من العلامات الواضحة لذلك النمو يمكن أن يكون لها علاقة بالسن أو بمظاهر أخرى من مظاهر النمو الجسماني. وقد تطلب إثبات هذه الصفة للغة دراسات طويلة أيضا وقد حاول عدد من المتخصصين[24] ولفترات طويلة أن يجعلوا أطفالهم يستعملون أنواعا معينة من التراكيب النحوية وباءوا بالفشل بينما أتت فترة معينة من العمر استطاع هؤلاء الأسوياء أن يتقنوا تلك التراكيب فيها بدون تدريب إطلاقا، وهذا التدريب هو ما يقوم به الأبوان عادة لكل مستمر بالنسبة للطفل وقد تبين أنه لا يفيد إلا من ناحية واحدة هي زيادة مفردات الطفل وهي أقل مظاهر اللغة صعوبة من حيث الاكتساب. كما أن الأسوياء يتعلمون الكثير من مجرد الاستماع، وقد أشرنا سابقا إلى أن هذه التجارب وإضرابها أظهرت بوضوح أن الطفل لا يتعلم من طريق الاستماع والمحاكاة فقط بل تساعده على ذلك القدرة اللغوية التي فطر عليها، مهما كانت طبيعة تلك القدرة.[25]

أما بالنسبة لتطور اللغة عند الطفل فقد أثبتت الدراسات المفصلة على لغات الأطفال[26] أن ذلك التطور يتبع جدولا زمنيا تفصيليا من حيث أن الطفل يبدأ بالتصويت ثم بالمناغاة ثم بالكلمة الواحدة ثم بتنغيم الجملة الكاملة ثم بالكلمتين معا ثم بجمل تبدو وكأنها جمل مكسرة. علاوة على ذلك فقد استطاع علماء اللغة أن يحددوا ترتيب ظهور كل شكل من أشكال جمل الطفل أثناء تطور لغته ووجدوا أن تلك الأشكال مشابهة من حيث النوع ومتزامنة مع غيره من الأطفال الذين يتكلمون اللغة نفسها.[27]

ونكتفي هنا بالبحث في موضوع طبيعة اللغة الذي يكاد يكون أهم الموضوعات التي تشغل بال علماء اللغة وعلماء النفس هذه الأيام.

ونطلق للإجابة عن سؤال تابع للموضوع وهو: ما دامت اللغة ظاهرة خاصة بالإنسان فهل أمكن تعليمها لغيره من الحيوانات وخاصة الثدييات كأرقى أنواع القرود مثلا؟

هذا ما سنجيب عنه باقتضاب في الصفحات التالية بذكر بعض التجارب المعاصرة المثيرة للغاية في هذا الموضوع.

5- هل يمكن أن تتعلم الحيوانات اللغة؟

لقد اتضح مما سبق قوله في هذا الفصل أن ما نطلق عليه لغة الحيوان ليس لغة حقيقية، إذ لا تتوافر في أي من تلك اللغات جميع المميزات التي تتوافر في لغة الإنسان، بل هي وسائل للاتصال تختلف في مدى تعقيدها، إلا أنها جميعا تشترك في أنها وسائل محدودة تتألف في معظمها من إشارات مباشرة لا رموزا تشير إشارات غير مباشرة كما أنها جميعا تفتقر إلى عنصر التجديد أو الابتكار الذي يتوافر في لغة الإنسان ويشكل أهم خاصياتها.

إذا ليس لدى الحيوان لغة طبيعية شبيهة بلغة الإنسان. وقد أصبح هذا أمرا ثابتا لا مجال للشك فيه. أي أن الحيوان ليس مفطورا على اكتساب لغة شبيهة بلغة الإنسان. وما دام هذا هو الواقع فقد اتجه العلماء إلى التجربة لمعرفة ما إذا كان بالإمكان تعليم لغة البشر لبعض الحيوانات الراقية التي بدا أنها قابلة للتعلم. وقد تركز هذا بشكل خاص على الدلفين من حيوانات البحر والشمبانزي من حيوانات البر.

أما الدلفين فقد سبق أن ذكرنا أن التجارب العلمية المكشوفة عليه لم تأت بنتيجة تذكر حتى الآن. وان كانت هنالك نتائج لها قيمتها فهي محفوظة في طي الكتمان الشديد لدى الجهات العسكرية الأمريكية التي يقوم بعض علمائها بتجاربهم بسرية تامة ولذلك فلا فائدة من متابعة البحث بالنسبة لهذا الحيوان.

ولكننا نستطيع أن نرى ما تم من التجارب بالنسبة للشمبانزي الذي أصبحت تربيته ومحاولة تعليمه اللغة البشرية ظاهرة شائعة جدا في السنوات الأخيرة بين علماء الولايات المتحدة الأمريكية. وسنكتفي هنا بوصف أربع من هذه التجارب تتصف الاثنتان الأخيرتان منها بأهمية بالغة.

أما أولى هذه التجارب التي سنذكرها فهي تلك التي قام الأستاذ كلوج وزوجته في عام 1931[28] فقد حصلا على أنثى شمبانزي سمياها جوا Gua عندما كان عمرها سبعة شهور فنشّآها بنفس الطريقة التي كانا ينشئان بها ابنهما الذي كان في نفس السن. فكانا يطعمانها بالملعقة ويحميانها ويلفانها بالفوط الخ، وفي نفس الوقت كانا يسمعانها اللغة العادية التي كان يسمعها ابنهما. وقد كانت النتيجة أن الشمبانزي لم تتكلم مطلقا إلا أنها استطاعت في نهاية الفترة المقررة أن تفهم معاني ما يزيد على سبعين من مفردات اللغة. أما الطفل فقد شب بشكل طبيعي يفهم ويتكلم كأي طفل سوي.

أما التجربة الثانية فقد قام بها الأستاذ هايز وزوجته عام 1947[29] على شمبانزي طفلة سمياها فيكي Viki. والفرق بين هذه التجربة والتجربة السابقة أن هذه الشمبانزي لم تترك على سجيتها كالطفل الآدمي الذي يستمع للغة ويحاول تنميتها بمفرده. بل قام العالمان بتدريبها تدريبا متصلا مكثفا لمدة ثلاثة أعوام. وقد كانت النتيجة أن «فيكي» أصبحت في نهاية تلك الفترة قادرة على فهم عدد كبير من مفردات اللغة كما فعلت «جوا» من قبل، إلا أنها تفوقت عليها بأنها استطاعت أن تنطق أربع كلمات فقط، اثنتان منها هما «بابا وماما»، وحتى هذا العدد المحدود جدا عن الكلمات لم يكن بإمكان فيكي أن منطقه بصورة واضحة.

لقد دلت هاتان التجربتان غير المجديتين كما دلت التجارب المماثلة السابقة لهما أن القرد ليس مهيأ فسيولوجيا لنطق الأصوات التي تتكون منها لغات البشر (وقد ذكرنا سابقا كيف تدل الصفات البيولوجية الخاصة بجهاز النطق في الإنسان على مقدرة فطرية خاصة به تتعلق بنطق أصوات اللغة). وبناء على النتائج المخيبة للآمال لمثل هذه التجارب، فقد نجا العلماء منحى آخر في تجاربهم وكفوا عن محاولة تعليم لغة البشر بأصواتها المعروفة لهذه الحيوانات.

انهم يعرفون أشكالا أخرى من وسائل الاتصال لا تستعمل الصوت كواسطة لانتقال الرموز، ومع ذلك فقد تعلمها بعض ذوى العاهات من البشر واستطاعت أن تنقل جميع الأفكار التي تعبر عنها اللغة العادية. فقد استعملت حاسة اللمس لتعليم اللغة البشرية لهيلين كيلر التي لم تكن تستطيع

لا الأبصار ولا الكلام ولا السمع كما أن هنالك لغة الإشارة التي تعلم للصم البكم في الولايات المتحدة والتي تفي بجميع الأغراض الإنسانية. كما فكر هؤلاء العلماء بوسائل أخرى ممكنة كضغط الأجراس أو استعمال النماذج البلاستيكية أو الخشبية. فلماذا لا يحاولون بعض هذه الوسائل؟ لقد استعملوا بعضها فعلا وكانت نتائجها مذهلة.

وسنأتي في هذه العجالة على ذكر أهم تجربتين فقط، إحداهما استعملت فيها لغة الإشارة، أما الثانية فقد استعملت فيها النماذج المذكورة.

أما التجربة الأولى فقد قام بها الأستاذ جاردنر وزوجته[30] في الولايات المتحدة الأمريكية. فقد حصلا على أنثى شمبانزي عام 1966 عندما كانت تبلغ من العمر عاما واحدا تقريبا وأسمياها واشو (Washoe) وقد استعملا لتعليمها لغة الإشارة التي يستعملها الصم البكم في تلك البلاد. ومع أنها كانت من آن لآخر تخضع لشيء من التدريب، إلا أن الأسلوب الذي اتبع في تعليمها هذه اللغة هي أن يقوم الأستاذان وعدد من طلابهما الذين يعرفون لغة الإشارة باستعمال تلك اللغة في وجودها وفي محاولة التحدث إليها بشكل مستمر.

لقد كان تطور اللغة عند واشو وخاصة في الأطوار الأولى شبيها بما يحدث للطفل الإنساني العادي. فقد اكتسبت واشو من المفردات حوالي أربع وثلاثين بعد واحد وعشرين شهرا ولكن هذا العدد أخذ يتزايد بسرعة حتى بلغ المائة في فترة قصيرة. وقد كان الأستاذ وطلابه يحصون هذه الأعداد بشكل مستمر فإذا فهمت واشو كلمة واستعملتها في الموقف المناسب وفي أيام متتالية، أضافوا تلك الكلمة إلى المفردات التي اكتسبتها.

ولكن الأهم من اكتساب المفردات هو توافر المميزات الخاصة بلغة البشر في لغة واشو. فقد ذكرنا أن إحدى تلك المميزات هي دلالة الكلمة على شيء أو فعل معين. وقد لوحظ أن لغة واشو تتمتع بهذه الخاصية ومن أمثلة ذلك ما يلي:

أولا: لقد عودت واشو بصعوبة على أن تنظف أسنانها بفرشاة الأسنان بعد كل وجبة طعام. ثم رأت الإشارة التي تدل على الفرشاة في عدة مناسبات بعد ذلك إلى أن أيقن الأستاذ وطلابه أنها قد فهمت تلك الكلمة تماما. وفي أحد الأيام تركت واشو «الكرافان» الذي كانت تعيش فيه في الحديقة

ودخلت بيت الأستاذ جاردنر فرأت إناء فيه عدد من فراشي الأسنان في الحمام وفي الحال قامت بعمل الإشارة التي تدل على الفرشاة (وذلك بفرك الأسنان بسبابة اليد) أي أنها كانت تشير إلى أنها تعرف أن كلمة فرشاة تدل على ذلك الشيء الذي تفرك به الأسنان. ولكن ألم تكن تطلب فرشاة أسنان مثلا؟ الجواب هو النفي، لان الفراشي كانت في متناول يدها. ألا يجوز أنها كانت ترغب في أن يقوم أحدهم بتنظيف أسنانها؟ الجواب هو النفي أيضا وذلك لأنها كانت تكره تلك العملية. إذن يستنتج من ذلك أنها عرفت العلاقة بين الكلمة وما تدل عليه من الأشياء الموجودة في العالم الحسي.

ثانيا: أما المثل الثاني فهو أن واشو تعلمت الإشارة التي تدل على الزهرة (وهذه الإشارة عبارة عن ضم أصابع إحدى اليدين إلى بعضها البعض ولمس الأنف بها). وقد استعملت «واشو» هذه الإشارة مرتين: مرة أثناء مرورها في حديقة مليئة بالأزهار ومرة عندما عرضت عليها صورة فيها رسوم الأزهار.

لقد تبين من التجربة أيضا أن في لغة تلك الشمبانزي صفة أخرى من الصفات المميزة للغتنا وهي القدرة على التعميم أي استعمال الكلمة أو العبارة في المناسبات والمواقف المتشابهة وعدم اقتصار ذلك على مناسبة أو موقف واحد. وقد بدا هذا واضحا من استعمال الشمبانزي «واشو» للإشارة التي تعني اكثر فقد كانت تستعملها أولا لتطلب ممن يكونون حاضرين أن يدغدغونها (وهذا ما تحبه القرود كثيرا) وكان استعمال هذه الإشارة في بادئ الأمر مقصورا على هذا الموقف. ولكنه سرعان ما امتد إلى مواقف أخرى كالأكل وكجرها في عربة معينة وغيرها من الأعمال. وكانت صفة التعميم واضحة أيضا في استعمال كلمة مفتاح التي كانت الإشارة الدالة عليها تستعمل أولا للدلالة على مفتاح معين ثم عمم الاستعمال ليدل على أنواع مختلفة من المفاتيح بما في ذلك المفاتيح التي يشغل بها محرك السيارة.

وقد كانت لغة واشو تتمتع بميزة أخرى من ميزات لغة البشر وهي الإشارة إلى أشياء غير موجودة أو إلى أناس بعيدين وغير مرئيين.

فقد كانت واشو تستعمل الإشارات أحيانا لطلب حضور أناس غائبين أو للحصول على أنواع من الأكل أو من الأشياء غير الموجودة في المحيط

المباشر.

ولكن أهم صفة من صفات لغتنا التي أصبحت لغة الشمبانزي واشو تتميز بها هي القدرة على الخلق والابتكار. وقد ظهر هذا من مقدرتها على استعمال عفوي لعدة تراكيب من المفردات (الإشارات). فقد صدرت عنها تراكيب من كلمتين أو ثلاث تشبه لغة الأطفال وتفيد معاني مختلفة مثل: «تعال دغدغني، أو افتح الثلاجة، أو، استمع إلى جرس الأكل أو، أسرع واعطني فرشاة الأسنان». ولكن أمرا هاما لوحظ هنا عند مقارنة هذه التراكيب بمثيلاتها في لغة الأطفال وهو أن الشمبانزي واشو لم تكن تتقيد بالنظام التتابعي للكلمات (Word order) وهو النظام الهام جدا بالنسبة لقواعد لغة غير معربة كاللغة الإنجليزية بينما جميع الأطفال يتقيدون به حتى عندما تكون جملهم تتألف كل منها من كلمتين اثنتين فقط.

إن حل هذا الأمر هام للغاية ويستطيع أن يقرر بشكل قاطع ما إذا كانت واشو قد اكتسبت لغة البشر على طريقة الصم البكم (الذين يبدو أنهم أحيانا لا يتقيدون بذلك النظام التتابعي للكلمات).

وقد طرحت نظريات كثيرة لتفسير تلك الظاهرة وتقول أكثرها تشاؤما بأن هذا دليل على انه لم يكن بوسع واشو أن تفهم طبيعة اللغة التي تعتمد على نماذج متكررة من التراكيب اللغوية. ولكن حل هذه المشكلة كان أمرا صعبا نظرا إلى أن واشو أصبحت من الضخامة بحيث خشي أذاها ولم يستطع الأستاذ وطلابه أن يواصلوا مرافقتها طيلة أوقات صحوها كما كانوا يفعلون من قبل. بل اضطرهم الأمر في النهاية إلى التخلي عنها وإرسالها إلى إحدى حدائق الحيوان لتعيش مع قبيلة من الشمبانزي. ولا زال الطلاب يتابعون تطورها ويذهبون إليها ويتحدثون معها بلغة الإشارة، ولا زالت تضيف إلى لغتها تراكيب جديدة من اختراعها. والكل ينتظر أن يرى ما إذا كان بإمكانها أن تعلم هذه اللغة جديدة التي اكتسبتها إلى زملائها من القرود.

أما التجربة الثانية التي سنذكرها هنا فهي تختلف من حيث الواسطة التي استعملت لتعليم اللغة وتختلف أيضا من حيث النتائج. وقد قام بها الدكتور دافيد بريماك من جامعة كاليفورنيا في سانتا باربارا.[31] لقد حصل بريماك على أنثى الشمبانزي التي دعاها سارة (Sarah) وخلافا

للطريقة التي استعملها الأستاذ جاردنر الذي ترك واشو طليقة تتعرض للغة الإشارة وتعليمها والتحدث بها بشكل طبيعي كما يفعل الطفل، فان سارة تخضع طول الوقت لتدريب دقيق شبيه بما يجري في مختبرات علم النفس. فهي تعيش في قفص خاص وتدرب على استعمال نماذج بلاستيكية وتحريكها على لوحة ممغنطة، أما النماذج فان كل شكل منها يمثل كلمة واحدة. فالنموذج المثلث الشكل الأزرق اللون مثلا يعني تفاحة أما النموذج المربع الشكل الأحمر اللون فانه يعني كلمة موزة كما تدل نماذج أخرى لا على أسماء أخرى فقط، بل وعلى أفعال وحروف جر وأدوات شرط وغيرها من الكلمات أيضا.

أما النتائج التي ظهرت حتى الآن فأنها تتلخص فيما يلي:

أولا: تستطيع سارة أن تفهم أكثر من مائة كلمة.

ثانيا: تستطيع أيضا أن تفهم بعض المفاهيم المعقدة مثل: شبيه أو مختلف عن أو بعض الجمل الشرطية.

ثالثا: كما أنها تطيع الأوامر وتنفذها وتستطيع الإجابة عن الأسئلة فإذا أراها مدربها النماذج المكونة من الكلمات التالية: «سارة، وضع، التفاحة، الصحن» تضع التفاحة على الصحن. وإذا سئلت سؤالا يتألف من النماذج الدالة على الكلمات التالية: «سؤال، كوب، يشبه، ملعقة» فأنها تجيب إجابة صحيحة بأن تستعمل النموذج الدال على كلمة «لا» وهكذا.

رابعا: جميع الفحوص التي تجري على سارة تتعلق بالفهم فقط. وهذا يعني أنها لا تقوم بإجراء محادثات بينها وبين مدربها أو غيره كما أنها لا تبدأ هي الحديث.

خامسا: في كل مرة تقوم سارة بعملية صحيحة من عمليات الفهم أو الإجابة عن السؤال أو الاثنين معا، تقدم لها قطعة من الشكولاته مكافأة على ذلك. وهذا يجعل التجربة تبدو شبيهة بتجارب علماء علم النفس السلوكي. وان كان من الصعب إثبات ذلك حتى الآن.

سادسا: ربما كانت أهم نتائج هذه التجربة حتى الآن هي ما يبدو من أن سارة أصبحت تفهم خاصية هامة من خصائص لغتنا هي خاصية الشكل الهرمي للتركيب (وهي الخاصية التي شرحناها في موضع سابق)[32] فقد ظهر حتى الآن أن سارة تفهم مثلا أن بالإمكان وضع عبارة مؤلفة من

كلمتين مثل «الصحن الأحمر» في نفس إطار الاسم المجرور الذي يمكن أن توضع فيه كلمة «الصحن»، كما في الجملتين التاليتين:

سارة، ضعي التفاحة في/الصحن

سارة، ضعي التفاحة في/الصحن الأحمر

ولكن بإمكان الإنسان أن يقوم بأكثر من ذلك، فبإمكانه أن يغير ترتيب الكلمات في الجملة لهدف معين دون أن يشوه التركيب الأساسي للجملة، كما يحدث عندما نحول الجملة من المعلوم إلى المجهول أو من الجملة المثبتة إلى المنفية أو الاستفهامية وما إلى ذلك كما أن باستطاعته أن يحذف بعض الكلمات أو التراكيب دون أن يؤثر ذلك في معنى الجملة، فيمكنه مثلا أن يقول:

أحمد ذهب إلى السوق وعلي ذهب إلى السوق

أو أن يقول:

أحمد ذهب إلى السوق وعلي فعل مثله

أو:

أحمد وعلي ذهبا إلى السوق

وذلك بحذف الخبر (في الواقع) من الجملة المعطوفة كلية (واعتبار أحمد وعلي مبتدأ خبرهما ذهبا إلى السوق).

إن نتيجة التجارب التي أجريت ولا زالت تجرى على القردتين واشو و سارة تشير بوضوح إلى أن بالإمكان تعليم القرود نوعا من اللغة البشرية، تتمتع بكثير من مميزات هذه اللغة، وإن كانت اقل تعقيدا منها بمراحل. كما أن هذه التجارب تفتح آفاقا جديدة للبحث والتجربة يمكن أن تزودنا بفهم أكبر للغة البشر بشكل خاص.

ومهما يكن من أمر هذه التجارب ومدى نجاحها، فان النقطة التي ينبغي ألا تغيب عن أذهاننا: هي أن أيا من الحيوانات غير مطبوع فطريا لتعلم لغة شبيهة بلغة الإنسان-وسنظل نؤمن بهذا إلى أن يثبت العكس.

ولكي نكمل البحث في طبيعة اللغة سننتقل إلى موضوع هام آخر متمم له إلا وهو: ما الذي يجرى فعلا في أذهاننا عندما نتكلم فنطلق الأصوات التي تحمل في طياتها المعاني المختلفة، وكذلك عندما نسمع إلى تلك الأصوات فنستطيع حل رموزها وفهم معانيها؟

6- كيف يصدر الكلام عن المتكلم وكيف يفهمه السامع؟

ربما كان هذا الموضوع هو أهم ما يشغل بال علماء اللغة والنفس والتربية في الوقت الحاضر لما له من انعكاسات على الناحية العملية المتعلقة بتعلم وتعليم اللغات الأصلية والأجنبية وباستخدام أفضل الطرق التعليمية للوصول إلى أفضل النتائج.

ولكنه في نفس الوقت أصعب المواضيع التي يمكن بحثها بشكل علمي منتظم، لأنه موضوع يتعلق بما يدور في ذهن الإنسان، والأدلة الوحيدة التي يمكن إخضاعها للتحليل العلمي والتي يمكن أن تلقى شيئا من الضوء على ما يدور في ذهن الإنسان بالنسبة للغة تنحصر فيما يصدر عنه من الكلام، وبما أن هنالك أكثر من طريقة لتناول تلك الأدلة بالبحث والتحليل والتفسير لذلك فان من الممكن بل وما هو حاصل فعلا هو أن يتوصل الباحثون المختلفون إلى نتائج أو فرضيات مختلفة بل وربما كان بعضها يناقض الآخر، ولكن هذا لا يعني أن نتوقف عن البحث، بل العكس هو الصحيح، أي أن علينا أن نتابع هذا النوع من البحث إلى أن يتم التوصل إلى بعض النظريات أو الفرضيات التي تبدو أقوى أساسا من غيرها.

لقد سبق أن أشرنا إلى هاتين العمليتين: عملية إصدار الكلام لعملية لسماعه وفهمه، إشارة سريعة في مستهل هذا الكتاب (الجزء الثاني من الفصل الثاني). فوضعنا ما يتصور بعض علماء اللغة والنفس حدوثه في ذهن المتكلم عندما يصدر عنه أي كلام، كما أغفلنا ما يحدث عندما يستمع الإنسان إلى الكلام ويفهمه.

وكانت تلك الإشارة مبسطة جدا من جهة، وتعبر عن وجهة نظر معينة من جهة أخرى وهنا سنتطرق إلى وجهة نظر أخرى وسنعرض للعمليتين كليهما بشيء من التفصيل.

أن البحث في هاتين العمليتين يواجه مشكلة أساسية مبدئية وهي أن العلاقة بينهما لا تبدو واضحة مستقيمة. فهل عملية فك رموز الرسالة متشابهة لعملية تركيب رموزها، أم أنها عملية معاكسة أم هي متشابهة من بعض الوجوه، معاكسة من وجوه أخرى؟ يبدو أن هذا السبب يدعونا لان نحاول النظر في كل من العمليتين على انفراد، وربما اتضح لنا في النهاية أن الجزء الأخير من السؤال السابق هو الاحتمال الأقوى. فلنبدأ إذا بدراسة

العملية الأولى وهى عملية التعبير اللغوي[33].

وقبل أن نفعل ذلك نود أن نكرر مرة أخرى أن ما توصل إليه العلماء وبخاصة المختصون في علم اللغة النفسي، على الرغم من اتساع مجال بحوثهم وازدياد عمقها، لا يعدو أن يكون فرضيات أو احتمالات قابلة للنقض في أي وقت عن طريق دراسات وأبحاث جديدة ولكنا نجد من المفيد جدا أن نطلع على المنهج الذي يتبعونه في دراسات عقلية من هذا النوع، والذي يحاولون أن يجعلوا منه منهجا اقرب ما يكون إلى منهج البحث العلمي.

إن القرائن أو الأدلة التي يعتمدون عليها في هذا البحث غير مباشرة في الغالب. فما دام النظر في الكلام السوي لا يؤدي وحده إلى نتيجة تدل على طريقة تأليفه والتعبير به، فقد لجأ العلماء إلى دراسة ما يمكن أن يطرأ من التردد أو الخلل على التعبير لعل ذلك يوصلهم إلى بعض ما يريدون. وهذه الأدلة يمكن أن تقسم إلى نوعين:

النوع الأول: يختلف مما يحدث أثناء الكلام العفوي غير المعد من توقف وتردد لفترات قصيرة لأسباب مختلفة يمكن تقصيها.

أما النوع الثاني: فيتألف من الأخطاء اللغوية التي كثيرا ما نلحظها في الكلام العادي وندعوها زلات اللسان بالإضافة إلى تلك التي تقع في كلام المصابين باضطرابات لغوية ناتجة عن إصابة في الدماغ.

أما التوقف أو التردد في الكلام فهو أما أن يكون توقفا متصلا بعملية التنفس مباشرة، وهذا النوع قليل، ويحدث عادة عند فواصل واضحة بين أقسام الجملة الطويلة الواحدة كما يمكن أن يحدث عند الفواصل المبينة في الجملة التالية:

إن الرجل الطريق الذي تراه واقفا على ناصية الشارع هو الرجل الذي حدثتك عنه أمس.

فالتوقف هنا بعد كلمة «الشارع» وهو الحد الفاصل بين اسم أن وتوابعه، توقف طبيعي. وهو قليل الحدوث في كلام الإنسان في الظروف العادية، أي عندما يكون تنفسه عاديا، ويزداد عندما تكون الرئتان مجهدتين والتنفس سريعا نتيجة الجري أو العمل الشاق المستمر.

ولكن التوقف الذي أولاه العلماء عناية أكبر هو ذلك الناتج عن التردد، وهو النوع الذي يبشر بنتائج أفضل نظرا إلى أنه كثير الحدوث لدرجة أنه

يصل أحيانا إلى ما بين ثلث ونصف الوقت الذي يستغرقه الكلام كله. أن أكثر ما يهتم به دارسو هذه الظاهرة هو الموضع الذي يحصل فيه التردد.

وعلى الرغم من اختلاف نتائج الأبحاث الجارية على هذه النقطة فهنالك ملاحظة هامة جدا توصلوا إليها جميعا، وهي أن التوقف المتسبب عن التردد لا يحصل بين جملة وأخرى بل يحصل في أواسط الجمل(34) (ونقصد بالجملة هنا بالإضافة إلى الجمل التامة المعروفة، تلك الجمل الفرعية التي نسميها باللغة العربية: «الجملة الموصولة أو جملة الشرط/جواب الشرط أو الجملة الإعتراضية أو جملة الحال أو الجملة التي تعمل عمل الصفة الخ». ويستدلون من هذا أن المتكلم عندما يخطط للكلام في عقله لا يفعل ذلك بالنسبة لكل جملة على حدة ثم يتفوه بها، ثم يتوقف قليلا ليخطط للجملة التالية ثم يتفوه بها وهكذا، بل يبدو أنه يخطط للجملة الأولى ثم يبدأ النطق بها ثم يتوقف أحيانا في وسطها ليخطط للجملة التالية وهكذا فإذا كان هذا الافتراض صحيحا، هل يمكن تأكيده عن طريق النظر إلى أدلة أخرى؟

لننظر الآن ماذا فعل علماء اللغة بالنوع الثاني من الأدلة وهى الأخطاء اللغوية أو الأخطاء في الكلام، وهي التي تتألف من زلات اللسان بالنسبة للأصحاء والاضطرابات الكلامية بالنسبة للمصابين بالحبسة (aphasia)(35).

أما زلات اللسان فهي شائعة جدا في كلام المرهقين والمخمورين والمتوترين عصبيا، وهي للأسف مقترنة في عقول الكثيرين بالجنس، منذ أن طلع العالم النمساوي سيجموند فرويد بنظريته عن العقل الباطن إلا أن الأغلبية لا تؤمن بذلك في الوقت الحاضر. وربما كان التفسير الذي يقدمه علماء اللغة أقرب إلى الصواب فهم يقولون بأن زلات اللسان هذه تدلنا على الكيفية التي يخطر فيها الإنسان في ذهنه للكلام الذي سينطق به. وهي لذلك أجدر بأن تسمى «زلات العقل» لا «زلات اللسان».

أما الأخطاء الكلامية التي يرتكبها المصابون بإصابات عقلية فهي متنوعة ومتشعبة جدا، ولذلك سنقصر كلامنا هنا على أكثرها شيوعا إلا وهى صعوبة التسمية أو صعوبة العثور على الأسماء المناسبة في الحديث. وبما أن أوجه شبه عديدة تجمع بين زلات اللسان وهذا النوع من الأخطاء، لذلك فان من الممكن بحثها جميعا معا.

فقد لاحظ الباحثون أن هذه الأخطاء يمكن أن تقسم بوجه عام إلى نمطين:

النمط الأول: الذي يتألف من استعمال الكلمة الخطأ مكان كلمة أخرى في الجملة كأن تقول:

اعطني مفتاح السيارة

وأنت تقصد أن تقول:

أعطني مفتاح الخزانة

ومن أمثلة ذلك أيضا أن تكون راكبا السيارة بجانب السائق وتريد أن تدله على الطريق إلى مكان ما فتخاطبه قائلا:

اتجه يمينا

بدلا من أن تقول ما تقصد فعلا وهو:

اتجه يسارا

ومن أمثلته أيضا أن تطلب «ملعقة» مثلا وأنت تقصد «شوكة» وهكذا. وهذا النمط من الخطأ ناتج عن خطأ في الاختيار أو الانتفاء، أي اختيار الكلمة المناسبة.

أما النمط الثاني: فيتألف من التنفيذ الخاطئ للبرنامج الذي خطط في الذهن، أي أن البرنامج سليم في الذهن إلا أن الخطأ في إخراجه إلى حيز الوجود عن طريق النطق كأن تقول:

رافقنا العروس إلى الفندقين

وأنت تقصد أن تقول:

رافقنا العروسين إلى الفندق

فهنا وقع الخطأ بإضافة علامة التثنية إلى «الفندق» بدلا من إضافتها إلى المكان الصحيح وهو كلمة «العروس».

ومن الأمثلة على هذا النوع أيضا قولك:

لا تشتر الكتاب الذي نهايته في فهرسه

وأنت تقصد أن تقول:

لا تشتر الكتاب الذي فهرسه في نهايته

أو قولك:

أريدك أن تخبر عليا .... أقصد ...

أريدك أن تخبر محمدا بما قاله علي.

لقد قام العلماء بتقسيم كل نوع إلى أقسام أخرى يجمع بين كل منها التشابه في نوع الخطأ الحاصل، وحاولوا دراسة هذه الظاهرة دراسة علمية تفصيلية-لا حاجة بنا هنا للدخول فيها-فوصلوا إلى عدة نتائج هامة لها دلالاتها. وقد حصروا هذه النتائج التي توصلوا إليها حتى الآن بما يلي:

1- لقد توصلوا إلى فرضية مقنعة من وحدة الكلام (Unit of Speech) التي يخططها الإنسان في ذهنه قبل النطق بها.

2- كما استطاعوا حتى الآن أن يتقدموا بفرضيات أخرى عن كيفية التخطيط للمفردات ولقواعد اللغة وتجميعها معا.

3- كما أنهم بدءوا يهتدون إلى الكيفية التي يختزن بها الإنسان المفردات اللغوية ثم يختار من بينها ما يحتاجه للكلام.

أما بالنسبة للنتيجة الأولى فانهم يكادون يجزمون الآن بأن وحدة الكلام التي يخططها الإنسان في ذهنه قبل أن ينطق بها ما دعوه بالمجموعة ذات النغم الواحد (Tone group) وهى تلك الجمل القصيرة أو ذلك الجزء القصير من جملة طويلة الذي ينطقه الإنسان عادة بنغمة واحدة، كالجملة القصيرة المثبتة:

اشتريت كثيرا من الفاكهة أمس

أو الاستفهامية مثل:

ماذا كنت تفعل هناك؟

فرغم اختلاف التركيب في كل من الجملتين، إلا أن كلا منهما ذات نغمة واحدة أو تنغيم واحد (One intonation contour) أما الدليل الذي يقدمونه لتأكيد هذه الفرضية فهو أن جميع الأخطاء التي سميناها «زلات اللسان» تحدث عادة في داخل مثل هذه المجموعات أو الوحدات، وكنا قد ذكرنا سابقا أن معظم حالات التوقف الموقت أو التردد تقع في أثناء النطق بمثل هذه الجمل، وليس عند الحدود الفاصلة بينها، وهذا يشير إلى أن التخطيط للجملة أو المجموعة الكلامية التالية يحدث في أثناء نطق الإنسان لما خطط له سابقا وليس بعد أن ينتهي من نطقه.

أما النتيجة الثانية التي توصلوا إليها فهي متصلة بالنتيجة الأولى وموضحة لها. فقد تبين أن من الممكن تقسيم تخطيط الكلام إلى مرحلتين

مرحلة التخطيط الإجمالي ومرحلة التخطيط التفصيلي. أما التخطيط الإجمالي فانه يبدأ أثناء النطق بالجملة السابقة، بينما يحصل التخطيط التفصيلي أثناء النطق بالجملة المخطط لها. كما أن التخطيط الإجمالي يشمل اختيار المفردات الرئيسية والقواعد والنغمة المناسبة بينما يشمل التخطيط التفصيلي تنظيم المفردات والقواعد المختارة بعضها مع بعض بالشكل السليم.

أن أوضح دليل على التخطيط الإجمالي يأتي من ظاهرة الاستعمال الخاطئ لكلمة معينة في الجزء الأول من جملة طويلة ينوي المتكلم أن يستعملها في الجزء الثاني، فيسبق لسانه إلى النطق بالكلمة في موضع سابق للموضع المخطط استعمالها فيه. ومثال ذلك أن يكون المتكلم قد خطط لقول الكلام التالي:

«عندما تذهب إلى السوق اشتر لي شيئا من الفاكهة» في حين أن ما يقوله فعلا هو:

عندما تذهب إلى الفاكهة اشتر لي شيئا من السوق.

ثم يكشف خطأه فيعيد قول الجملة بالشكل السليم.

ومثال آخر ما يمكن أن تقوله مضيفة الطائرة للمسافرين استعدادا لهبوط الطائرة.

فبدلا من أن تقول:

«يرجى ربط أحزمة المقاعد، والامتناع عن التدخين»

يمكن أن تقول:

«يرجى الامتناع عن أحزمة المقاعد وربط التدخين»

ثم تستدرك الخطأ وتعيد قول الجملة بالشكل الصحيح.

أن هذا النوع من الخطأ يكسر القاعدة التي سبق أن أشرنا إليها بأن زلات اللسان تحدث عادة في أواسط الجملة الواحدة القصيرة. ورغم أن هذا النوع من الخطأ قليل الحدوث إلا انه يدل بشكل واضح على وجود تخطيط إجمالي للجمل. كما إليها هذه الظاهرة تشير الخاطئ إليها هذا التخطيط يتركز على اختيار الإطار العام للترتيب النحوي والمفردات الرئيسية بالإضافة الخاطئ النغمة المناسبة للجملة. بينما يترك التخطيط التفصيلي الخاطئ وقت لاحق. وربما كان هذا التخطيط التفصيلي يتوافق مع ما

أشرنا إليه سابقا من التوقف القصير أو التردد الذي يحدث عادة وقد بدأنا الكلام بالفعل، أي في وسط الجملة القصيرة الأولى بالنسبة للتالية وهذه بالنسبة لما يليها وهكذا.

ويشمل التخطيط التفصيلي هذا أمرين: الأول وضع المفردات في مواضعها الصحيحة من الجمل، والخطأ الذي يمكن أن يقع هنا يتضح من المثال التالي:

إن من الخطر وجود كمية زائدة من الدم في السكر بدلا من:

أن من الخطر وجود كمية زائدة من السكر في الدم والأمر الثاني: هو إضافة الزيادات الصرفية في مكانها المناسب من المفردات والخطأ هنا يتضح في المثال التالي:

ضع الكتاب على الرفين

بدلا من قولنا:

ضع الكتابين على الرف

أما النتيجة الثالثة التي توصل إليها العلماء فتتعلق بالشكل الذي يختزن الإنسان المفردات اللغوية عليه ثم يختار منها ما يحتاجه للتعبير. فقد دلت الأبحاث العديدة وأهمها تلك التجربة التي قام بها الأستاذ روجر براون من جامعة هارفارد[36]، بأن الكلمات تختزن بطريقتين في آن واحد، فالإنسان يختزن المعنى كما يختزن الشكل الصوتي. أما من حيث المعنى، فمن الواضح أن الإنسان يختزن المفردات في مجاميع مترابطة من حيث معانيها، وربما كان أوضح مثال على ذلك تلك المفردات التي تدل على صلة القربى كالأب والأم والأخ والأخت والعم والخال.. الخ فعندما يحتاج الإنسان إلى استعمال إحداها فانه يتجه أولا إلى المجموعة ككل ثم يختار واحدة منها، فإذا اخطأ كان خطؤه في الغالب ناتجا عن استعمال إحداها بدلا من الأخرى. أما من حيث الشكل الصوتي للكلمة فيبدو أن الأطفال يحتفظون بها عن طريق النغمة العامة لها، بينما يستطيع الكبار أن يذكروا بالإضافة إلى النغمة العامة الصوت الأول من الكلمة.

أن هذه النتائج بالغة الأهمية ليست لأنها نتائج نهائية قاطعة ولكن لأنها ترينا المنهج العلمي المتبع في الوصول إليها، أنها في الواقع فرضيات قابلة للتأكيد أو النقض خاصة أنها تتعلق بأمور تجري جميعها داخل العقل

البشري، ولكنها ليست تخرصات أو تأملات باطنية أو نتائج قائمة على جدل منطقي، بل قد اتخذت وسيلة لها المنهج العلمي الذي أن لم يوصلنا اليوم إلى نتائج أو قوانين ثابتة أكيدة فانه كفيل بأن يؤدي إلى ذلك غدا أو بعد غد.

لننتقل الآن إلى النظر في بعض الدراسات التي أجريت لمحاولة تفسير ظاهرة فهمنا لما نسمعه من الكلام[37].

أن أحد مناهج البحث في هذا الموضوع يعتمد على دراسة ذلك الكلام الذي يجد المستمع صعوبة في فهمه ومحاولة إيجاد الأسباب التي تجعله صعبا أو مستعصيا على الفهم فلعل ذلك يلقي بعض الضوء على الكيفية التي يفك بها المستمع رموز الرسالة الشفوية التي يبعث بها المتكلم.

وربما كان من الضروري هنا أن نتخلص من بعض المفاهيم الخاطئة التي كانت سائدة عن عملية الاستماع والفهم. فقد كان المفهوم السائد حتى وقت قريب حتى بين علماء اللغة والنفس هو أن المستمع أشبه ما يكون بالطابع على الآلة الكاتبة، فهو يتلقى الرموز الصوتية المفردة التي تتألف منها الكلمات بشكل سلبي تماما ثم يطابقها على الأصوات اللغوية المخزونة في ذهنه فيتعرف عليها الواحدة تلو الأخرى. إلا أن التجارب العديدة التي أجراها بعض علماء اللغة وعلماء الأموات قد أثبتت بشكل قاطع بطلان هذه النظرية. فمن الناحية الصوتية البحتة، ليس بإمكان الفرد أن يسجل الأصوات منفردة وبالتتابع لأسباب كثيرة. أن مجرد النظر إلى سرعة النطق بتلك الأصوات يجعل هذا الأمر مستحيلا.

فإذا افترضنا أن الكلمة باللغة العربية تتألف بالمتوسط من خمسة أصوات، وان معدل سرعة النطق بالكلام هو أربع كلمات في الثانية فان هذا يعني أن على الأذن والدماغ أن يتمكنا من استقبال وتحليل عشرين صوتا في الثانية الواحدة، وقد ثبت أن هذا مستحيل[38] بالإضافة إلى ذلك فان الصوت الواحد يختلف نطقه من كلمة إلى أخرى وذلك بحسب ما يسبق ذلك الصوت أو ما يتبعه أو كليهما. فان طريقة نطقنا للألف في كل من الكلمات (سار، جار، طار) تختلف اختلافا واضحا. كما تبين بالدراسة العلمية العملية أن طريقة نطق الأصوات تختلف اختلافا بينا من شخص إلى أخر. ولولا هذه الاختلافات لامكن بكل سهولة الاستغناء عن العنصر

البشري في عملية الطباعة على الآلة الكاتبة، واختراع الآلة الكاتبة السمعية التي يمكن للإنسان أن يملي عليها ما يريد فتقوم بطباعته مباشرة وبشكل آلي. وفوق ذلك كله فان الأصوات اللغوية ليست في الواقع أصواتا منفصلة بعضها عن بعض فقد أظهرت الآلات الحديثة التي تصدر الصوت بشكل مرئي عدم وجود الحدود الواضحة المعالم بين الأصوات ذات الصفات المميزة المتشابهة فصوت الياء يتداخل مع صوت الثاء الذي يتداخل بدوره مع صوت الكاف وهكذا (وسنرى في الفصل القادم أن معظم الصفات المميزة لهذه الأصوات متشابهة). وهذا كله يثبت أنه ليس باستطاعة الإنسان أن يستخلص المعلومات التي تحملها الأمواج الصوتية بالطريقة التي تستعملها أجهزة الأمن مثلا عندما تطابق بصمات أصابع المتهم على بصماته المحفوظة لديها. بل أن كل ما يستطيع المستمع أن يستخلصه من الأصوات التي يسمعها لا يعدو أن يكون دليلا على محتوى الرسالة الصوتية أو إطارا عاما يمكنه من إعادة بناء الجمل. وربما كان دور المستمع أشبه بدور المحقق الجنائي الذي تتجمع لديه أدلة مختلفة غير مترابطة في ظاهرها، فيحاول هو أن يربطها معا ليهتدي إلى دليل متكامل يرشد إلى هوية المجرم. ولا بد أن نذكر هنا أن الظروف التي تحيط بعمليتي الكلام والاستماع كثيرا ما تكون غير مواتية فتشوه الأصوات أو تعرقل مسيرتها في الهواء أو تعترض تلك المسيرة أو تقحم فيها أصوات أخرى بحيث لا تصل الرسالة الصوتية واضحة وضوحا كاملا إلى أذن المستمع.

خلاصة القول هنا أن دور المستمع ليس دورا سلبيا بل هو دور إيجابي إلى حد كبير. فالمستمع يحاول أن يستخلص الرسالة الصوتية التي يحتمل أن تكون قد صدرت عن المتكلم، مستفيدا من معرفته المسبقة باللغة. وهذه المعرفة المسبقة أمر هام للغاية لسببين: أولهما أنها تزود المستمع بتوقعات معينة من حيث الأصوات التي يسمعها، كما أن هذه التوقعات تنسحب أيضا على النظام النحوي مثلما تنسحب على نظام المعاني في اللغة. أن نتائج التجارب والأبحاث في وضعها الحاضر تشير إلى أن هذه التوقعات تشكل جزءا هاما من مقدرة المستمع على فهم ما يسمع. فعلى الرغم من أن إنسانا ما يمكن أن يكون خالي الذهن بالنسبة لما سيتكلم عنه إنسان آخر، إلا أنه ليس في الواقع خالي الذهن أبدا بالنسبة لمعرفته بأنظمة لغته من

نظام صوتي ونظام نحوي ونظام للمعاني، ولذلك فهو يتوقع أن يسمع كلاما يتمشى مع هذه الأنظمة جميعا، وتبعا لذلك فليس من الضروري أن يسمع كل صوت مما يقال بل يفتش فيما يسمعه عن إشارات تشير إلى الإطار العام لتركيب الجملة لكي يتوقع ما هو آت من الكلام. ولنضرب بعض الأمثلة لتوضيح ما نقول.

فنحن كمتحدثين باللغة العربية عندما نسمع شخصا يبدأ كلامه قائلا:

الرجل....................

ماذا نتوقع أن نسمع بعد ذلك؟ أن معرفتنا للغة العربية قد زودتنا بالتراكيب الأساسية المختلفة للجملة البسيطة. وسواء أكنا مثقفين أم أمين فان في ذهننا أن الجملة البسيطة في اللغة العربية تتألف من عنصرين هما المبتدأ والخبر، أو الفعل والفاعل. كما أننا نعرف أيضا أن المبتدأ يسبق الخبر في الغالب، لذلك فأننا حالما نسمع كلمة «الرجل» نعتبرها مبتدأ وننتظر الخبر الذي يمكن أن يكون كلمة واحدة مثل مريض، فتصبح الجملة:

الرجل مريض

أو شبه جملة مثل «في البيت»، فتصبح الجملة:

الرجل في البيت

أو فعلا (وفاعلا) مثل «يدخن» فتصبح الجملة:

الرجل يدخن

أما إذا بدا المتحدث بالفعل بأن قال:

تقاعد..........

فإن معرفتنا بقواعد اللغة العربية تجعلنا نتوقع سماع الفاعل، كما أن معرفتنا بمعاني المفردات تجعلنا نتوقع أن يكون الفاعل اسما لإنسان عاقل، ولدلك فأننا ننتظر أن نسمع هذا الفعل متبوعا باسم مثل «الموظف» فتصبح الجملة: تقاعد الموظف

كما أن معرفتنا باللغة تساعد على أن نتوقع سماع شيء عن سبب التقاعد، أهو بلوغ السن القانونية أم هو لسبب آخر. ونحن نتوقع السبب الأول لأنه الوضع الطبيعي ولذلك فإنا نستنتج ذلك حالما يتابع المتحدث كلامه مبتدئا بكلمة «بعد» وقبل أن يتم جملته التي يمكن أن تكون:

تقاعد الموظف بعد أن بلغ السن القانونية

أما إذا كان سبب التقاعد غير ذلك، وكانت توقعاتنا الأولية غير صحيحة فإنا نغير استراتيجيتنا حالما نسمع أول الكلام التالي للفعل والفاعل (أو للجملة الأساسية) يبدأ بالتعبير «مع أنه» ونتوقع أن نسمع سببا للتقاعد مغايرا للتوقعات الطبيعية، وربما كانت الجملة التي تقال فعلا هي:

تقاعد الموظف مع انه لم يبلغ السن القانونية وذلك لإصابته بمرض أقعده عن العمل.

ولعل بإمكان القارئ الآن أن يأتي بأمثلة كثيرة مشابهة لما سبق ويحاول تحليلها بنفس الطريقة.

لقد دلت الأبحاث التي اتبعت هذا المنهج في الدراسة وخاصة تلك التي قام بها الأستاذ توم بيفر[39] في جامعة كولومبيا بالولايات المتحدة الأمريكية أن المستمع يسمع ما يتوقع أن يسمعه ويساعده على هذا التوقع معرفته بأصوات لغته ومعرفته بقواعدها ومعرفته بمعاني المفردات فيها، وكذلك معرفته بالعالم بوجه عام وبحضارة أمته بوجه خاص. فالمستمع إذا عنصر إيجابي فعال عند استماعه إلى الكلام وهو يستفيد من تلك المعرفة بان يرسم لنفسه استراتيجية معينة يتوقع بموجبها سماع الأصوات والتراكيب والمعاني التي تتمشى مع النظام الخاص بلغته.

وقد دلت الأبحاث كذلك على أن استيعاب المستمع للجمل البسيطة أسهل بكثير من استيعابه للجمل المعقدة ويعزى هذا إلى أن التغيير في الاستراتيجية مرات عديدة أثناء الاستماع لجملة طويلة معقدة لكي يتفق ما يسمعه مع ما يتوقعه يستغرق وقتا أطول مما يحتاجه عندما لا يضطر لتغير تلك الاستراتيجية، أي في حالة الجمل البسيطة. كما أنه تبين للدارسين بأن المستمع يفهم الجمل ذات التركيب الأساسي العادي بأسرع مما يفهم تلك التي تختلف عن ذلك التركيب. فالجملة المؤلفة من فعل وفاعل (وربما مفعول به) اسهل على الفهم بهذا الشكل مما لو كانت مؤلفة من فعل مبني للمجهول يعقبه نائب عن الفاعل (الذي هو في المعنى مفعول به فعلا). فجملة مثل:

اشترى الرجل سيارة

أسهل فهما من جملة:

اشتريت السيارة (من قبل الرجل).

كما أن الجمل الأساسية التي لا تتضمن جملا فرعية كجملة الصفة أو الحال أو الجملة الموصولة اسهل على الفهم من الجملة المؤلفة من جملتين إحداهما أساسية والأخرى فرعية فجملة:

الرجل عريض

أسهل كثيرا على الفهم من جملة:

الرجل الذي حدثتك عنه مريض

وكلما زاد عدد الجمل الفرعية زادت صعوبة فهم الكلام.

ليس في نيتنا الخوض في تفاصيل هذه الأبحاث من جهة ولا التركيز على النتائج من جهة أخرى. فهنالك أسباب كثيرة أخرى بعضها لغوي والآخر نفسي تجعل فهم بعض الكلام عسيرا. ولكننا نعيد هنا ما سبق أن ذكرناه بأن المهم هو معرفة المنهج العلمي الذي يتبعه الباحثون في دراساتهم وتجاربهم بحيث يمكن إثبات النتائج بالبرهان والدليل العلمي لا بالتأمل العقلي فقط. ولا يدعي أحد من الدارسين والعلماء انهم قد توصلوا إلى حل لغز الكلام والفهم ولكن أبحاثهم ودراساتهم مستمرة، ومنهجها علمي، ولذلك فإنا نرجو الخير الكثير منها في إلقاء الضوء على سر هام جدا من أسرار اللغة.

نود أن نشير هنا، ونحن نأتي على نهاية هذا الفصل بأننا قد أطلنا فيه بعض الشيء لسببين: أولهما أن الدراسات في موضوع طبيعة اللغة قد اكتسبت دفعا جديدا بعد أن استطاعت أن تسير على منهج علمي مغاير للمناهج التقليدية السابقة. أما السبب الثاني فهو طرافة الموضوع من ناحية، وأهميته من ناحية أخرى.

وننتقل الآن إلى البحث التالي وهو النظر في علاقة اللغة بالمجتمع وأثر كل منهما على الآخر.

الهوامس

(1) Charles Hocket: “The Problem of Universals in Language”, In J. H.Greenberg (ed.): Universals of (Cambridge: Mass: MIT Press), 1968, pp1-29.

(2) : a- Jean Aitchison: The Articulate Mammal(London Hutchinson)1976,p.36-50.

b) Russell & Russell: “Language and Animal Signals” in N.Minnis (ed.); Linguistics at Large(U.K. Paladin) 1973 pp.161-185.

(3) سنستعمل لفظة لغة للإشارة إلى وسائل الاتصال عند المخلوقات الأخرى غير البشرية تجاوزا وتسهيلا للتعبير عمّا نريد قوله.

(4) انظر:. Russell and Russell, op-cit., p . 163

(5) انظر: Peter Marler. “Speech Development and Bird Song” in

G. Miller(ed). (: Psychology and Communication (Voice of

.93- 83. America), 1974, pp

(6) انظر:

Karl von Frisch: The Dancing Bees, (Methuen), 1954. p.139.

(7) انظر:

Evans & Bastian: “Marine Mammal Communication”, in H.T. Andersen: The Biology of Marine Mammals, (N.Y. Academic Press), 1969, pp. 432 ff

(8) See: N. Chomsky: Aspects of the Theory of Syntax (Cambridge: Mass., M.I.T. Press)1965.

(9) Vygotsky, L.S.: Thought and Language, (Cambridge: Mass., M.I.T. Press)1962.

(10) D.NcNeill: The Aquisition of Language, (N.Y.: Harper and Row)1970.

(11) L.Bloom: One Word at a Time, (The Hague: Mouton),1973

(12) LBloom: Language Development, (Cambridge: Mass. M.I.T. Press),1970.

(13) See, for example: Brown, R.: A First Language, (London Allen and Unwin),1973.

(14) أن أهم كتاب حديث يبحث علاقة اللغة بالناحية البيولوجية هو:

Eric Lenneberg: Biological Foundations of Language (N.Y Wiley),1967.

(15)أنظر المرجع التالي:

Eric Lenneberg: “A Biological Perspective of Language”, In Lenneberg (ed.) New Directions in the Study of Language (Cambridge, Mass., M.I.T. Press), 1968,pp.65-85.

(16) a- N. Chomsky: Syntactic Structures (The Hague: Mouton),1957.

b- J. H. Greenberg (ed.): Universals of Language Cambridge, Mass.: M.I.T. Press),1968.

c- L. Hjelmsleve: Prolegomena to a Theory of Language; Indiana Univ. Publications in Authropology and Linguistic Memoir 7(Baltimore: Waverly Press), 1953.

(17) H. Seckel: Birdheaded Dwarfs, (Springfield, III.: Thomas), 1960.

(18) D. Kimura: “Functional Asymmetry of the Brain in Dichotic Listening”, in Cortex 3, 163- 168, referred to in Aitchison, op. cit57-58.

(19) Penfield and Roberts: Speech and Brain Mechanism (Princeton University Press)1959.

(20) Biological Foundations of Language Lenneberg:

(21) a- R. Brown: Words and Things (N.Y. The Free Press). 1958, pp.186-192.

b- Curtiss et al: “The Linguistic Development of Genie in Language” vol. 50(1974), pp528-554.

(22) Lenneberg: Biological Foundations of Language

(23) أنظر نفس المرجع ص 146.

(24) راجع مثلا:

a- M.D.Braine: “The Acquisition of Language in Infant And Child”, in: Reed (ed.) The Learning of Language (Appleton-Century-Crofts)1971.

b- C. Cazden: Child Language and Education (Holt Rinehart & Winston),1972.

c- R. Brown: Psycholinguistics (N.Y. The Free Press), 1970.

(25) انظر مثلا:

S.M.Ervin: “Imitation and Structural Change in Children‘s Language” in: Lenneberg: New Directions... op. cit pp163-189.

(26)هذه ثلاثة من أهم تلك الدراسات:

A- Bar-Adon and W. F. Leopold: Child Language (Prentice-Hall)1971.

B- Roger Brown: A First Language, op. cit

C- Ferguson and Slobin: Studies of Child Language (Development,) Holt, Rinehart & Winston,1973.

(27) انظر الجدول في ص 80 من كتاب J.Aitchison المذكور سابقا.

(28) Kellog and Kellog: The Ape and the Child) N.Y. McGraw

. Hill (, 1933; also in Brwon: Words and Things, op. cit

(29) Hayes: The Ape in Our House) N.Y. Harper (, 1951; also

. In Brown: Words and Things, op. cit

(30) A- Gardner and Gardner: “Teaching Sign Language to a Chimpanzee”, in Science, (1965)pp666-672.

B- Gardner and R. Allen: “Two-way Communication with and Infant Chimpanzee”, in: Shrier & Stollnitz (Eds): Behavior of Nonhuman Primates, vol. IV (N.Y The Academic Press)1971.

(31) A- D.Premack: “The Education of Saras”, in Psychology Today (1970), 4, pp55-58.

B-_______: “Language in Chimpanzee?” in Science

.822- 808. 1972(, 172, pp)

C-_______: “Teaching Language to an Ape”, in Scientific American (1972), pp92-99.

(32) انظر الصفحة 226 وما يليها.

(33) Aitchison, op. cit., pp206-229.

(34) للاطلاع على نتائج الأبحاث المختلفة راجع:

A- D.S.Boomer, “Hesitation and Grammatical” Encoding In Language and Speech No. 8(1965), pp.

148-158, reprinted in Oldfield and Marshall (Eds.) Language (Penguin (, 1968, pp159-169).
B- F. Goldman-Eisler, "Hesitation, information and levels Of Speech production" in De Reuk and O'connor: Disb.1964, orders of Language (London: Churchill),1964.
(35) من الكتب المختصة في هذا الموضوع
A- V.A. Fromkin: Speech Errors and Linguistic Evidence (The Hague: Mouton),1973.
B- Goodglass and Blumstein: Psycolinguistics and Aphasia (Baltimore: John Hopkins Univ. Press)1973.
(36) Brown & Mcneill, "The Tip of the Tongue Phenomenon" in Journal of Verbal Learning and Verbal Behavior,5,1966,pp. 325-337 reprinted in R. Brown: Psycholinguistics. (N.Y The Free Pree),1970
(37) Aitcison, op. cit., pp177-205.
(38) Lieberman et al: "Perception of the Speech Code" in Psy Chological Review, 74 (1967), pp431-461.
(39) T.G. Bever "The Congnitive basis for" Linguistic Structures In Hayes: Congnition and the Development of Language (N.Y. Wiley)1970.

٩ اللغة والمجتمع

١-الشكل والوظيفة:

لقد رأينا سابقا أن اللغة يمكن، بل يجب، أن تدرس من زوايا عديدة وقد تعرضنا في الفصل السابق إلى تلك الدراسات التي يتعاون على القيام بها علماء اللغة وعلماء النفس والتي تتناول بوجه خاص علاقات اللغة بالعمليات الفكرية، أي التي تهدف إلى محاولة التوصل إلى ما يحدث في الدماغ عندما يتكلم الإنسان وعندما يسمع كلام غيره، والى معرفة كيفية اكتساب الطفل للغة والى تحديد الصفات الخاصة بلغة البشر والتي تميزها عن لغات الحيوانات المختلفة.

ونحن عندما نقوم بدراسة اللغة نفسها، يمكننا، بل ينبغي، أن نفعل ذلك من زاويتين:

الزاوية الأولى: هي التي تتعلق بالشكل أو بالبنية الظاهرة، أي بالطرق أو القواعد التي تستخدم في اللغات المختلفة لتنظيم أصوات اللغة ومفرداتها بحيث تؤدي المعاني المطلوبة. وهذه الناحية هي التي تطرق لها معظم اللغويين القدامى، وان كان الدارسون المعاصرون قد اتجهوا بها اتجاهات مغايرة، كما سنرى في الفصل القادم.

أما الزاوية الثانية: فهي التي تتعلق بالوظيفة أو

الوظائف التي تؤديها اللغة في المجتمعات البشرية، وبعلاقة اللغة بالمجتمع: كيف نؤثر فيه وكيف يؤثر فيها، وما يطرأ على كل منهما من تغير وتطور نتيجة لذلك، الخ. وقد كان كل من هذه الموضوعات يدرس في السابق على حدة، وفي أبواب متناثرة هنا وهناك ضمن إطارات علوم أخرى غير علم اللغة. أما الوضع الحاضر فهو أن العلماء المعاصرين يحاولون أن يجمعوا تلك الموضوعات ويضعوها في إطار موحد متصل اتصالا وثيقا بعلم اللغة، كما يسعون إلى أن يتوصلوا إلى بعض القوانين العامة التي تتحكم في الاستعمال الفعلي للغة في مجتمع معين أو في جميع المجتمعات. ويتعاون عدد من العلماء المختلفين في اهتماماتهم. وأهمهم هنا علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا مع علماء اللغة في التوصل إلى ما يريدون.

ونظرا لحداثة عهد بعض الأبحاث في هذه الناحية الثانية، من جهة وطرافتها من جهة ثانية، فسنقدم النظر فيها على الدراسات اللغوية المحضة، ونحاول التعرض لأهمها في هذا الفصل، بينما نرجئ النظر في الناحية الأولى إلى الفصل التالي.

2- وظائف اللغة:

لقد كان الاتجاه السائد قديما يؤكد أن اللغة وعاء للفكر وان وظيفتها هي التعبير عن الفكر البشري سواء كان متعلقا بأمور عقليه محضة أم بالعواطف والأحاسيس والرغبات الإنسانية. وسنرى بعد قليل أن هذا التعريف لوظيفة اللغة فيه كثير من التحديد من ناحيته، كما أن العلاقة بين اللغة والفكر ليست واضحة تماما ولكنها على كل حال ليست علاقة في اتجاه واحد.

أما المحدثون فكثير منهم يفضلون أن يقصروا وظيفة اللغة على الاتصال (Communication) و لكن كلمة «اتصال» فيها كثير من غموض الدلالة بحيث لا نعلم إن كان بإمكانها أن تشمل كثيرا من الوظائف اللغوية الكثيرة التي تبدو ذات طابع اجتماعي بالدرجة الأولى. كما أنها يمكن أن تشمل فعلا وسائل الاتصال الأخرى غير اللغوية التي يستخدمها الإنسان كالإشارات وتعبيرات الوجه واللمس والحركات الجسمانية الأخرى بالإضافة إلى شمولها لوسائل الاتصال الأخرى التي تستخدمها الحيوانات المختلفة.

وربما كان أفضل ما نفعله هنا لكي نأخذ فكرة شاملة عما يمكن أن تقوم به اللغة هو أن ننظر في اللغة على أساس أنها مظهر من مظاهر السلوك الإنساني، أن لم تكن أهم تلك المظاهر جميعا نظرا إلى أننا نضطر في معظم الأحيان لاستعمالها لترافق مظاهر السلوك الأخرى غير اللغوية وتتفاعل معها. وهذا هو ما فعله إدوارد هول في كتابه «لغة بغير كلام»، الذي قسم فيه مظاهر الحياة المختلفة إلى عشرة أنواع يتفاعل كل مظهر منها مع التسعة الأخرى لتكون معا تلك الشبكة المتداخلة من العلاقات الإنسانية. وقد وضع اللغة على رأس هذه المظاهر جميعا[1].

أ- أن أولى الوظائف اللغوية أو مظاهر السلوك اللغوي تلك التي تشبه إلى حد كبير ما تؤديه الحيوانات من الأصوات والحركات الجسمانية، هي استعمال اللغة للتحية بأنواعها: ولإظهار التأدب والتلطف، وذلك في المناسبات الاجتماعية المختلفة كمناسبة اللقاء، والجلوس معا في مكان واحد، والحفلات الاجتماعية وما شابهها. فأنت ترى أو تقابل أحد الجيران أو المعارف صباحا فتقرئه السلام المعتاد ويرد هو السلام بالشكل التالي مثلا:

- صباح الخير
- صباح الخير
- كيف الحال
- حسن، الحمد لله

وينتهي الحديث ويذهب كل منكما في سبيله. ويمكن بالطبع أن تستعمل تعابير أخرى مختلفة ولكنها كلها تؤدي نفس الوظيفة. فما هي هذه الوظيفة؟ وهل نفهم من هذه التعابير معانيها الحرفية مثلا؟ لنفترض أن جارك هذا كان في أزمة مالية أو في حالة نفسية سيئة لأي سبب من الأسباب. فهل تختلف إجاباته عما ذكرناه؟

ربما اختلفت بعض الشيء، كأن يجيب عن سؤالك عن حاله قائلا: ماشي الحال، الحمد لله. ولكن ليس من المنتظر أن يجيبك قائلا: زي الزفت مثلا. فعباراتك وعباراته إذا تكاد تكون عبارات مقننة أو «كليشهات» متعارفا عليها في المجتمع الذي تعيش فيه أنت وجارك لا تعني أي منها بالفعل ما تعنيه كلماتها حرفيا، إذ ليس هذا هو المقصود منها.

إن القصد من مثل هذه العبارات، ومن الأحاديث عن الطقس، ومن

الأحاديث التي تدور في الحفلات التي يجتمع فيها من الناس من لا يعرف بعضهم البعض الآخر معرفة جيدة أو أنهم يعرفون بعضهم بعضا معرفة جيدة ولكنهم يجتمعون بشكل متكرر جدا لدرجة انهم لا يجدون موضوعا مهما يتحدثون فيه-إن القصد من هذه الأحاديث على ما يبدو لا يعدو أن يكون إقامة العلاقات الاجتماعية أو تأكيد تلك العلاقات وتمتين أواصرها. فوظيفتها الأولى إذا وظيفة اجتماعية، إذ ليس فيها من الأفكار أو المعلومات ما هو هام يحتاج إلى توصيل من فرد إلى آخر.

وهذا لا يعني بالطبع أن هذه الوظيفة قليلة الأهمية، بل أنها في الواقع أحد الأسس التي يقوم عليها الشعور بالانتماء الاجتماعي. فأنت تشعر في الحال بأنك قريب الصلة جدا من إنسان يجلس إلى مائدة أخرى وأنتما في بلد أجنبي عندما تسمعه يتكلم لغتك، بينما جميع الآخرين يتكلمون لغات اجني. كما انك تشعر حتى وأنت في بلدك بقوة تجذبك نحو إنسان يتكلم اللهجة المحلية التي تتكلمها أنت وهكذا. إن مثل هذه الروابط ومثل هذا الشعور هي التي تشد أفراد مجتمع معين بعضهم إلى بعض، وان قوة تماسك ذلك المجتمع أو ضعفه يتوقفان على قوة تلك الروابط أو ضعفها.

والعبارات المختلفة المستخدمة للتحية وتلك المستخدمة للتأدب عند مخاطبة الغير لها وظيفة اجتماعية أخرى. فهي في كثير من الحالات تدل على الطبقة الاجتماعية أو المركز الاجتماعي الذي يشغله كل من المتكلم والمخاطب على السواء كما تدل على العلاقة الاجتماعية بينهما، مما سنأتي على ذكره في مناسبة قريبة.

ب- وشبيه بهذه الوظيفة اللغوية استعمال اللغة في الطقوس الدينية والأوردة والأدعية من ناحية واستعمالها في طقوس السحر والشعوذة الخ من ناحية أخرى. ففي الحالة الأولى تكون وظيفة اللغة الأساسية هي إقامة أو متابعة الاتصال بالخالق، كما تكون لها وظيفة فرعية هي تمتين أوامر الصلة بين أبناء ذلك المجتمع الذي يدين بدين معين. فان اللغة التي تستعمل في المراسم الدينية لا يهم معناها الحرفي بقدر ما يهم مجرد استعمال صيغ معينة موحدة متعارف عليها بين أفراد المجتمع الواحد. ونحن هنا لا نتكلم فقط عن لغة الكتب السماوية فهذه بطبيعتها ثابتة لا تتغير يحاول المجتمع بكل طاقته المحافظة عليها دون أي تغيير ولكنا نشير إلى اللغة التي

هي من وضع الإنسان كلغة الآذان والصلاة في الأديان المختلفة وخطبة الجمعة أو الأحد ولغات المناسبات المختلفة كعقد القران والانفصال والوفاة والدفن والتعزية والتهنئة، واللغة المستعملة في القسم، ولغة السؤال، واستفتاح الكلام أو الكتاب ثم لغة الصوفية والزاهدين ثم لغة المشعوذين وإضرابهم.

وهذه اللغات تتميز عادة ببعض مميزات خاصة كاستعمال الكلمات الغامضة والقديمة والاستفادة من الإمكانيات الصوتية للغة لإضفاء الجرس الموسيقى عليها، واستعمال الرمز والمجاز على نطاق واسع. كما أنها تتميز بصفة هامة جدا هي المحافظة الشديدة بحيث يستمر نص معين قيد الاستعمال أحيانا لمئات السنين بدون تغيير أو تبديل. وبسبب قلة أهمية المعنى الحرفي لعبارات هذا الاستعمال اللغوي يصل الأمر إلى استعمال لغة غير معروفة في العصر الحاضر لغة للمراسم الدينية كاستعمال اللاتينية حتى عهد قريب في الطقوس الدينية لجميع الطوائف المسيحية الكاثوليكية- وقد كانت تستعمل لجميع الطوائف المسيحية لمئات السنين-واستعمال السنسكريتية للطقوس الدينية الهندية، والقبطية للطقوس الدينية المسيحية في مصر والعربية للطقوس الدينية للمسلمين الذين لا يعرفون اللغة العربية.

فوظيفة اللغة هنا إذا مرتبطة بالعلاقة الشخصية بين العبد وربه من ناحية كما أنها تدل على انتماء الفرد لأسرة دينية معينة من ناحية أخرى. فقول أحدهم «السلام عليكم» أو «بسم الله الرحمن الرحيم» أو «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» تدل في الحال على انتمائه إلى مجتمع إسلامي، بينما قول آخر «الرب حافظك» أو «باسم الأب والابن والروح القدس» تدل دلالة مباشرة على الانتماء إلى مجتمع مسيحي، وذلك بغض النظر عن المعنى الحرفي لأي من هذه العبارات.

جـ- ثم هنالك استعمال آخر للغة في مناسبات رسمية وبعضها ذات طابع ديني أو قانوني أيضا كالمحاكمات والبيع والشراء الزواج والطلاق. إلا أن وظيفة اللغة هنا لا هي اجتماعية صرفة ولا هي شكلية قليلة المعنى، ولا هي في نفس الوقت نقل المعلومات أو الأفكار. فعندما يعقد قران أحد الناس ويقول وكيل الفتاة مثلا «زوجتك وأنكحتك موكلتي.. الخ» ويجيب العريس أو وكيله قائلا: «قبلت زواج موكلتك.. الخ» فان لكلام كل منهما وقع الفعل، فقد تم عقد القران بمجرد نطقهما بتلك العبارات أمام الشهود.

ونفس الوظيفة يؤديها الكلام المتعلق بالطلاق فحالما يقول الرجل لزوجته: «أنت طالق... الخ» فقد حرمت عليه، وأدت العبارة وظيفة الفعل. وينطبق نفس الكلام على أحكام المحاكم، عندما ينطق القاضي بالحكم قائلا: «حكمت عليك المحكمة بكذا ....».

د- ووظيفة أخرى للغة نحاول عن طريقها السيطرة على محيطنا بشكل دائم ومنظم هي إصدار الأوامر والتحكم في تصرفات الآخرين أو السيطرة على أشياء أخرى في البيئة المحيطة بنا. وتشمل هذه الوظيفة نواحي كثيرة من حياتنا اليومية منذ أن نستيقظ من نومنا صباحا إلى أن نأوي إلى الفراش مساء. أن جزءا كبيرا من اللغة التي نستعملها خلال حياتنا اليومية يتألف من نوع من الأمر-أمر، طلب شديد، طلب عادي، طلب لطيف، رجاء، استجداء الخ-نحصل بواسطته على ما نحتاج إليه من أمور مادية كطعام الإفطار أو الغداء الخ أو الملابس التي سنرتديها أو كالأمور الكثيرة الأخرى التي نريد أن تنفذ في نطاق أعمالنا وهكذا.

هـ- وفي حياتنا العادية تختلط الأوامر والنواهي المذكورة في الفقرة السابقة بالسؤال عن الأشياء والرد على السؤال بإعطاء بعض المعلومات مهما كانت تلك المعلومات تافهة، كأن تسأل زوجتك صباحا قائلا: «أين حذائي الأبيض؟» وتجيبك زوجتك قائلة: «تحت السرير». أو كسؤال أحدهم عن الوقت وأجابته بأن الساعة كذا.

وهذه إحدى الوظائف الأساسية التي يشار إليها بوظيفة الاتصال (communication) التي ذكرناها سابقا. والواقع أن المعلومات التي تنقل من شخص إلى آخر أو من فرد إلى مجموعة مؤلفة من عدد صغير أو من آلاف أو ملايين الناس، ليست كلها معلومات عادية تتعلق بأمور الحياة اليومية، بل أن تلك المعلومات التي يتم نقلها في اجتماعات تجارية أو اقتصادية أو سياسية أو علمية ذات مستوى رفيع، هي معلومات في غاية الأهمية وتؤثر على حياة الملايين. أما لغة الخطب ولفة الصحف ولغة الإذاعة والتلفاز التي تمتلئ بها حياتنا طوال النهار وبعض الليل، فان فيها من المعلومات ما هو هام وفيها ما هو غير هام،: لكن فيها أيضا أمر آخر غير المعلومات. فمعظم ما يقال وما يكتب في وسائل الإعلام تلك يقصد إلى التأثير على البشر وإقناعهم أما بشراء بضاعة أو بالإيمان بمبدأ أو بتغير سلوكهم

بطريقة ما أو.. أو.. الخ ففي تلك اللغة إذا كثير من التوجيه والإقناع أي كثير من محاولة التأثير على البشر، لا مجرد نقل المعلومات إليهم.

و- وللغة المكتوبة وظيفة في غاية الأهمية فعلى الرغم من أن من الممكن أن يقوم مجتمع معين بحفظ دينه وتراثه وأساطيره وأدبه وعاداته بالطريقة الشفوية، أي عن طريق نقل ذلك التراث شفويا من جيل سابق إلى جيل لاحق، فان ذلك التراث معرض للضياع أو التحريف والتغيير لأسباب تتعلق بالحفظ والذاكرة، كما تتعلق بالنفس البشرية. ولكن نفس هذا المجتمع إذا تطور فأصبح مجتمعا معقدا وزاد تراثه زيادة هائلة بحيث لم يعد بالإمكان الاعتماد على الأفراد وذاكرتهم، فان الوسيلة الوحيدة لحفظ ذلك كله هو تسجيله كتابة. والواقع أن الأمة التي لم تستعمل الكتابة قط قد فقدت معظم تاريخها وتراثها. كما انه لم يعد ممكنا الآن بحال من الأحوال الاعتماد على اللغة المنطوقة، بل أن اللغة المكتوبة نفسها أصبحت لا تفي بالغرض فقد اخذ الناس في وقتنا الحاضر يستخدمون الآلات الحديثة كالحاسب الآلي لتخزين هذه الكميات الهائلة من المعلومات والعلوم والآداب ومعالم الحضارة الأخرى التي يزخر بها عصرنا الحاضر، وذلك لمصلحة الدارسين والباحثين من أبناء جيلنا الحالي والأجيال القادمة.

ز- ولا شك في أن اللغة تستعمل أيضا للتعبير عن المشاعر المختلفة من سعادة وفرح وحزن وغضب واستياء الخ ويتراوح مستوى التعبير عن تلك الأحاسيس من التصفير أو الغناء دلالة على الفرح والسعادة أو الشتم أو التجديف دلالة على الغضب الشديد، إلى أرقى أنواع الأدب من شعر ونثر. وفي معظم هذه الحالات يكون استعمال اللغة نوعا من التنفيس عما في داخل الإنسان بغض النظر عما إذا كان هنالك من يسمع ذلك الكلام أم لا. ولذلك فهذه إحدى الوظائف التي لا تدخل تحت تعريف اللغة كوسيلة للاتصال، ولكن ربما أمكن أن تشملها الوظيفة الأخرى التي ذكرناها في أول هذا الكلام وهي: التعبير عن الأفكار والمشاعر الإنسانية.

حـ- وهنا نأتي إلى ذكر هذه الوظيفة التي كانت تعتبر الوظيفة الوحيدة للغة والتي لا زالت تعتبر من أهم وظائفها إلا وهي: التعبير عن الفكر. وربما كان من طريف ما يذكر هنا أن هنالك وظيفة مناقضة لهذه وهي استعمال اللغة لإخفاء الفكر أو لإخفاء الفقر إلى الأفكار. وهذا الاستعمال

شائع في لغة السياسيين وفي لغة الخارجين على القانون فيما بينهم وفي الكلام المحرم اجتماعيا (Taboo) وفي هذه الحالات أما أن يستعمل كلام كبير لتغطية أفكار هزيلة أو تستعمل عبارات خاصة معناها الخارجي غير مقصود بل هي تشير إلى معان أخرى متفق عليها بين أفراد فئة معينة من الناس أو تستعمل عبارات لطيفة مهذبة مكان عبارات لا يستسيغ المجتمع استعمالها.، وسنأتي على تفصيل اكبر لهذه الحالات فيما بعد.

أن وظيفة اللغة في نقل الأفكار من أهم وظائفها جميعا ومنذ اختراع الكتابة وتسجيل الأفكار بها تمكن البشر من نقل تلك الأفكار عبر القرون وكانت نتيجتها هذه الحضارة المتقدمة جدا التي يعيشها عدد كبير جدا من سكان العالم اليوم.

ليس هنالك إذا خلاف على هذه الوظيفة. ولكن هنالك خلافا كبيرا على علاقة اللغة بالفكر، وهي العلاقة التي تستحق أن نتناولها بشيء من التفصيل في الفقرات التالية.

ويكفي هنا أن نلخص ما مضى من الكلام فنقول أن وظائف اللغة متعددة، وان لها بالإضافة إلى الوظائف الهامة الأخرى، وظائف اجتماعية في غاية الأهمية تتطلب منا أن نتعرض للعلاقات المختلفة التي تقوم بين اللغة والمجتمع لنرى أثر كل منهما على الآخر، وهذا ما سنفعله في هذا الفصل أن شاء الله.

ولكن لنبدأ أولا بجلاء الأمر بالنسبة لعلاقة اللغة بالفكر.

3-اللغة والفكر

لقد ذكرنا قبل قليل أن اللغة وسيلة للتعبير عن المشاعر والأحاسيس الإنسانية وهذا يعني أننا افترضنا وجود تلك المشاعر والأحاسيس أولا ثم التعبير عنها بوساطة اللغة بعد ذلك. فهل يمكننا أن نقول نفس الكلام عندما نذكر أن اللغة وسيلة للتعبير عن الفكر؟ أي هل هنالك فكر مجرد لا يعتمد على اللغة أم أن اللغة والفكر شيء واحد؟ أم أن اللغة هي التي تحدد مسار الفكر وترسم له حدوده؟

ليس هنالك جواب قاطع على أي من هذه الأسئلة حتى يومنا هذا. وقد اتخذ الباحثون المختلفون مواقف مختلفة، وأحيانا متعارضة، من هذا

الموضوع. فعلماء النفس من أتباع المدرسة السلوكية مثل جون واتسون (John Watson) كانوا لا يميزون بين اللغة والكلام بل يعتبرون اللغة هي الكلام (المنطوق فعلا) وقد اعتبروا التفكير نوعا من الكلام الداخلي المنطوق على مستوى الحنجرة فقط، كما أن سكينر (Skinner) المثار إليه سابقا كأحد رواد علم اللغة النفسي كان يعتبر التفكير نوعا من السلوك البشري، كالسلوك اللغوي تماما ولذلك فقد قال بعدم جواز التمييز بينهما على أنهما شيئان مختلفان.

هذه إحدى وجهات النظر التي لم تثبت طويلا للنقد والتجريب. فقد تبين بالتجربة العلمية أن شل حركة جميع أعضاء النطق بوساطة مخدر مثلا قد أثر على النطق فأوقفه كلية ولكنه لم يترك أي أثر على القدرة على التفكير. هذا من الناحية الجسمانية. أما من الناحية اللغوية فقد اثبت دوسوسير وتشومسكي وغيرهما، أن اللغة نظام تجريدي يشارك فيه أبناء المجتمع الواحد، أما الكلام الفعلي فهو واحد فقد من مظاهر القدرة اللغوية الكاملة، وربما كانت هنالك مظاهر لا تقل أهمية عن الكلام كالفكر مثلا الذي يستفيد حتما فائدة كبيرة جدا من ذلك النظام الذي يتمثل في اللغة.

أما وجهة النظر المعارضة فتتمثل في نظريات هردر (Herder) وهمبولت (Humboldt) وغيرهما في أوروبا، وساير (Sapir) في أمريكا التي يقول بأن للغة تأثيرا كبيرا على الطريقة التي يفكر بها أفراد المجتمع الذين يتكلمون تلك اللغة والتي تختلف عن طريقة تفكير أفراد مجتمع آخر يتكلمون لغة أخرى. ولكن هؤلاء جميعا لم يوضحوا بشكل صريح آراءهم في نوع العلاقة بين اللغة والفكر. أما صاحب النظرية الواضحة بالنسبة لهذه العلاقة فهو بنيامين وورف (Benjamin Lee Whorf) الأمريكي، تلميذ سابير، الذي طلع من دراسته للغات الهنود الحمر في أمريكا ومقارنتها باللغات الأوروبية الحديثة، بالنظرية أو الفرضية المعروفة باسمه (Whorf Hypothesis) والتي تقول أن البنية اللغوية أو التركيب اللغوي هو الذي يحدد الفكر ويسيطر عليه سيطرة كاملة، ولذلك فان معرفة البشر بهذا العالم وتجاربهم فيه ونظرتهم إليه ومواقفهم منه تختلف باختلاف اللغات التي يتكلمونها. أي أن العالم كما يراه البعض يختلف عن العالم كما يراه البعض الآخر، إذا كان كل من المجموعتين أو المجتمعين يتكلم لغة مختلفة. وقد أعطى صاحب النظرية

أمثلة كثيرة من بنية الأفعال بشكل خاص في إحدى لغات الهنود الحمر المسماة (Hopi) وقارنها ببنية الفعل في اللغة الإنكليزية واستنتج من ذلك أن نظرة كل من المجتمعين إلى الزمن مثلا تختلف اختلافا جذريا عن المجتمع الآخر. ولعل أوضح مثل أعطاه وورف تأييدا لأثر اللغة على الفكر هو ما أتى به من واقع عمله كمسؤول في إحدى شركات التأمين أثناء بحثه عن أسباب الحرائق. فقد لاحظ أن العمال كانوا يعاملون براميل النفط الخالية بدون مبالاة بينما كانوا حريصين جدا في تعاملهم مع البراميل المليئة بالنفط. وبذلك كان هؤلاء العمال يتجاهلون الواقع المؤلم وهو أن بعض تلك البراميل كانت مليئة بالفعل، ولكنها لم تكن مليئة بالنفط، بل بالأبخرة والغازات التي يخلفها النفس عند تفريغه منها.

وفي رأي وورف أن الذنب في هذه الحالة يقع على كلمة خالية أي على اللغة التي أثرت في طريقة تفكير العمال فجعلتهم يتصرفون بذلك الشكل. وهذه النظرية في النهاية تعني أنه لا وجود للفكر بدون اللغة، وهي بهذا تتفق مع النظرية السابقة.

ولكن هذه النظرية، أو هذا الشكل المتطرف من النظرية، لم يثبت كذلك أمام النقد والتجربة. فمن الواضح أن هنالك فكرا بدون لغة بدليل توفر الإنتاج الفني من رسم ونحت وتصوير وموسيقى دون حاجة للغة. كما أن بعض العلوم الفعلية كالرياضيات والمنطق الرمزي مثلا تقوم حاليا على رموز لا كبير علاقة لها باللغة التي نستعملها. ولكن حتى هذه الأمور إذا أردنا الكلام عنها فإننا نحتاج إلى اللغة التي لا غنى لنا عنها في مثل هذه الأحوال. إن ذلك النتاج الفني والذهني من عمل أفراد محدودين جدا ذوى مواهب خارقة في ناحية من النواحي، إلا انه بالنسبة للأغلبية العظمى من الناس، فليس باستطاعتهم التفكير، بمعنى التأمل، في حدود أبعد مما تسمح به قدرتهم اللغوية. وعلى الرغم من أن من الواضح أن للغة تأثيرا على طريقة تفكير الفرد الذي يتكلم لغة معينة، إلا العلاقة بينهما ليست واضحة كأن يتكون الفكر أولا ثم تتبعه اللغة المعبرة عنه أو بالعكس. ويبدو أن من الأسلم القول بأن اللغة والفكر يعتمد كل منهما على الآخر إلى حد كبير فنحن لا نستطيع أن نفكر أبعد من قدرتنا اللغوية، كما أننا لا نستطيع أن ننطق بما لا نستطيع التفكير فيه.

4-اللغة والحضارة:[2]

إن النظريات السابقة عن العلاقة بين اللغة والفكر لا تخص الفرد وحده وطريقة تفكيره ونظرته إلى العالم، ولكنها تمتد لتشمل حضارات بأكملها. فقد حاول كثير من المفكرين أن يربطوا بين طبيعة التركيب الصرفي والنحوي للغة ما وبين طريقة تفكير المجتمع الذي يتكلم بتلك اللغة، فربطوا بين ذلك التركيب أو تلك البنية وبين الفلسفة ومظاهر التفكير الأخرى التي أنتجها وينتجها ذلك المجتمع. مثال ذلك أنهم حاولوا تفسير مميزات الفلسفة الألمانية على أساس الطبيعة الخاصة لبنية اللغة الألمانية كما قالوا أن اللغة التي تتبع فيها الصفة الموصوف كاللغة الفرنسية واللغة العربية مثلا تشير إلى مجتمع متعود على طريقة التفكير الإستنتاجي (deductive) بينما تدل اللغة التي تسبق فيها الصفة الاسم الموصوف كاللغة الإنكليزية مثلا على أن المجتمع الذي يتكلم تلك اللغة يفكر بطريقة استقرائية inductive)) وقالوا أيضا أن اللغة التي لا يميز التركيب الصرفي والنحوي فيها بين الحدث والفاعل والأشياء كما تفعل اللغة الإنكليزية مثلا تشير، كما هو الحال في بعض لغات الهنود الحمر، إلى أن المجتمع الذي يتكلم تلك اللغة مجتمع يؤمن بالقدرية أي يعزو كل ما يحدث للقدر دون أن يحاول فهم الأسباب والمسببات. بل ذهب بعض هؤلاء إلى القول أن المجتمع الذي لا تتوافر في بنية الأفعال في اللغة التي يتكلمها ما يدل على الزمن، مجتمع لا يعير الزمن أي اهتمام، وان المجتمع الذي لا تتوافر في لغته مصطلحات محددة خاصة بالعمليات المنطقية مجتمع لا يستطيع أن يقوم بالتفكير المنطقي أو بالتفكير العلمي المعقد.

وكما هو الحال بالنسبة لعلاقة اللغة بتفكير الفرد والتي قلنا أنها علاقة متبادلة أي أن اللغة والفكر يؤثر كل منهما في الآخر بشكل من الأشكال، فان العلاقة بين اللغة وحضارة المجتمع تبدو شبيهة بذلك. فقد دلت التجارب والأبحاث التي ما زالت تجرى على هذه العلاقة، على أن اللغة لا تسيطر سيطرة كلية على أي مظهر من مظاهر الحضارة. كما ثبت بطلان القول أن نوع اللغة إعرابية كانت أم لاصقة أم مفردة أم مركبة[3] هو التي تحدد نوع الحضارة التي يعيشها مجتمع معين، بل أن من المعروف أن مجتمعات تتكلم نفس النوع من اللغات، كالأتراك وبعض الهنود الحمر الذين يستعملون

لغات لاصقة مثلا، تنتمي إلى حضارات مختلفة تمام الاختلاف، وهذا ينطبق على الأنواع الأخرى كاللغات الإعرابية (اللاتينية والعربية مثلا) وغيرهما. كما أن المجتمعات التي تتكلم لغات من أنواع مختلفة يمكن أن تشارك في نفس الحضارة، كما حصل بالنسبة للحضارة العربية الإسلامية مثلا، وعكس هذا صحيح أيضا، فمن الممكن أن تستعمل مجتمعات تنتمي إلى حضارات مختلفة لغة واحدة، كما هو حاصل في الوقت الحاضر مثلا بالنسبة للغة الإنكليزية. أن هذه الحالات جميعا تبين أن من الخطأ استعمال أمثلة فردية تختلف فيها لغة عن أخرى للتعميم على اللغة والحضارة والعلاقة بينهما وللقول بأن لغة مجتمع معين هي التي تحدث الإطار الذي لا يمكن لذلك المجتمع أن يرى العالم إلا من خلاله، كما قال عدد من كبار المفكرين في العصر الحاضر من أمثال ألفرد كورزبسكي (1879-1950) (A.Korzybsky) الذي كان يقول أن«الخريطة لا تمثل الرقعة الأرضية كلها» أي أن اللغة لا تمثل كل ما يشمله هذا العالم من أشياء وما يحدث فيه من أحداث.

وقد كان سابير أحد رواد علم اللغة الحديث في القرن الحالي، من أكبر أنصار هذه النظرية القائلة بأن اللغة هي التي تجعل مجتمعا ما يتصرف ويفكر بالطريقة التي يتصرف ويفكر فيها، وان ذلك المجتمع لا يستطيع رؤية العالم إلا من خلال لغته، وان تلك اللغة بمفرداتها وتراكيب جملها محدودة في ذاتها، ومحددة لنظرة المجتمع الذي يتكلمها للعالم وللحياة، فهو مثلا يقوله بكل وضوح في إحدى المناسبات:

«البشر لا يعيشون في العالم العادي وحده، ولا يعيشون فقط في عالم النشاط الاجتماعي بالمفهوم العادي، ولكنهم في الواقع واقعون تحت رحمة تلك اللغة المعينة التي اتخذوها وسيلة للتفاهم في مجتمعهم. حقيقة الأمر أن العالم الحقيقي مبني الأنواع حد كبير على العادات اللغوية لمجتمع معين، كما انه ليس في العالم لغتان تتشابهان تشابها كبيرا الأنواع درجة اعتبارهما تمثلان نفس الواقع الاجتماعي، أن العوالم التي تعيش فيها المجتمعات المختلفة عوالم مختلفة، لا مجرد عالم واحد تسميه أسماء مختلفة»[4].

وقد كان بنيامين وورف، فلما رأينا، من نفس رأي أستاذه سابير، بل انه كان أوضح منه في إيمانه بنفس النظرية التي تقول بأن الإنسان أسير لغته،

فهو يستنتج بعد دراسة مطولة للموضوع:

«أن اللغة ليست مجرد وسيلة للتعبير عن الأفكار، بل أنها هي نفسها التي تشكل تلك الأفكار. فنحن نقسم الطبيعة (أو العالم) بموجب الخطوط التي ترسمها لنا لغاتنا القومية»[5].

لقد أجريت دراسات كثيرة وأجريت تجارب عديدة بعضها يثبت وبعضها ينقض سيطرة اللغة على الحضارة وعلى طريقة تفكير المجتمع، وكلها تجارب ودراسات ممتعة، إلا أن المجال لا يتسع لذكرها هنا، كما أن أيا منها لم تستطع أن تؤكد النظرية أو تدحضها كلية بشكل لا يدع مجالا للشك.

إن الرأي السائد الآن هو أن النظرية متطرفة جدا عندما تعزو سلوك الفرد وتفكيره وسلوك المجتمع وتفكيره للغة التي يتكلمها سواء من حيث المفردات التي تشتمل عليها أو التراكيب اللغوية التي تتميز بها. وان الواقع هو أن لغة مجتمع ما في وضعها الحالي تساعد الفرد والمجتمع على التفكير والنظر الأنواع العالم بطريقة ما، ولا تساعد ولكنها لا تمنع من التفكير والتصرف بطريقة أو طرق أخرى. أي أن اللغة في أية فترة زمنية ما هي إلا انعكاس لاهتمامات المجتمع الذي يتكلمها، فهي تفي باحتياجات المجتمع واهتماماته بشكل مرض جدا. فإذا انتقل المجتمع من حال إلى حال كأن يكون أميا فيتعلم، أو يكون مجتمعا زراعيا فيتحول إلى مجتمع صناعي، أو يكون مجتمعا منعزلا فتنفتح أمامه آفاق الاتصال بمجتمعات أخرى، لم تقف اللغة حائلا دون ذلك التحول، بل أن في كل لغة إمكانيات للتطور والتغير بحيث تتمشى مع احتياجات واهتمامات المجتمع الجديدة.

ولذلك فان من المستحسن النظر إلى اللغة على أنها يمكن أن توجه الفرد للنظر إلى العالم وللتفكير بطريقة معينة يتشابه فيها أفراد المجتمع الواحد الذين يتكلمون نفس اللغة. إلا انه لا يمكن التسليم بأن اللغة هي التي تقرر أو تحمل طريقة التفكير أو طريقة السلوك للفرد أو للمجتمع.

كما أن من الخطأ الفاحش القول بأن هنالك لغة بدائية متخلفة ولغة عصرية متقدمة. فإذا نظرنا إلى ناحية المفردات وجدنا أن حاجات المجتمع المعين هي التي تفرض نوعية المفردات المتوافرة في اللغة وعددها. وربما كانت أعداد المفردات الإجمالية في اللغات التي تتكلمها المجتمعات التي ندعوها متحضرة أكبر منها في اللغات التي تتكلمها مجتمعات بدائية، إلا

أن نوعية المفردات لا تتمشى مع هذا الكلام فعدد المفردات التي تدل على أنواع الثلج المختلفة في لغة الإسكيمو مثلا أكبر منها في أية صيغة حديثة أخرى. وهذا ينطبق على المفردات الدالة على الماشية في لغة الماساي في أفريقيا أو المفردات العشرين التي تدل على الأرز في الفليبين أو مئات الكلمات الدالة على الجمل حتى في اقدم. اللهجات العربية.

أما من حيث طرق تركيب الكلمات والجمل في اللغات المختلفة، فالواقع كما ذكرنا أن بعض هذه الطرق تساعد الفرد والمجتمع على التعبير عن الأفكار والأحداث المختلفة، بينما بعضها الآخر لا يعين على ذلك مباشرة ولكن هذا لا يعني أن أية لغة غير قادرة بطريقه مباشرة أو غير مباشرة على أن تحمل جميع المعاني التي يريد الفرد والمجتمع أن يعبر عنها. كما أن قانون التغير والتطور الذي نلحظه في اللغات جميعا يفعل فعله بشكل مستمر بحيث تصبح أية لغة قادرة على احتواء جميع ما يحتاج مجتمع معين أن يعبر عنه.

5- اللغة والفرد:

لا شك بأن اللغة التي يتكلمها فرد من الأفراد تمثل إحدى المميزات الهامة بالنسبة له. فطبيعة الصوت نفسها تحدد نوع ذلك الفرد، فيما إذا كان طفلا أم بالغا، ذكرا أم أنثى، شابا أم شيخا الخ. ليس ذلك فقط بل أن طبيعة الصوت بالإضافة إلى عناصر أخرى تميز إنسانا عن الآخر، بل تدل من هو ذلك الإنسان على وجه التحديد بالنسبة لمن يعرفونه في الأصل بالطبع. بالإضافة إلى ذلك فان طبيعة الصوت يمكن في كثير من الأحيان أن تحدد موقف الآخرين من صاحب ذلك الصوت فمن الأصوات ما هو حلو الجرس محبب إلى النفس، ومنها ما هو بغيض مكروه منفر، ومنها ما يدعو إلى السخرية كما أن منها ما يولد الإعجاب والاحترام ويبعث على الطاعة الخ. وكثيرا ما يكون الصوت وحده كافيا أن يدفعنا إلى نوع معين من السلوك كسماع صوت الفتاة التي نحبها، أو الابن الذي ننتظر وصوله بفارغ الصبر، أو الرئيس الذي نخافه أو الصديق الذي نرغب في رؤيته. فكل من هذه الأصوات يدفعنا إلى سلوك يختلف قليلا أو كثيرا عن غيره.

هذا من ناحية طبيعة الصوت التي تخلق معنا وتتطور بيولوجيا في أثناء

نمونا، ولكن في لغة كل فرد عناصر أخرى تميزها عن لغة كل فرد آخر، حتى لنستطيع القول بأن لكل فرد في المجتمع اللغوي لغته الخاصة به. ففي لغة كل فرد خصائص تشير إلى مركزه الاجتماعي أو تشير على الأقل إلى ذلك القطاع أو تلك الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها، وربما كان فيها أيضا ما يدل على القطاع المهني الذي ينتمي إليه، بالإضافة إلى أن في لغة كل منا عبارات تتكرر لكل دوري منتظم تقريبا وتدل على هوياتنا كقول واحد عمن اعرفهم: «سامع، فاهم، عارف؟» كل بضعة جمل. أو ترديد أحدنا لعبارات مثل «واخد بالك؟ خليك معايا؟ بتعرف، مش عارف إيه، وبعدين» أو عبارات أخرى اكثر تحديدا لهوية كل منا من هذه.

كما أن طريقة كلام كل منا تختلف عن طريقة الآخر فبعضنا يتكلم بسرعة كبيرة، والبعض الآخر ببطء شديد، والآخرون بين هذه وتلك وبعضنا يسعل سعلة خفيفة كل جملتين أو ثلاث، أو يتردد في كلامه كثيرا، أو يلثغ في أحد الأصوات أو يفأفئ أو يكثر التمتمة أو لا يتكلم بشكل واضح، إلى غير ذلك من الصفات الفردية التي تجعل أحدنا يعرف صوت صديقه أو أحد معارفه حالما يسمعه سواء رأيناه أم لم نره.

وعلى الرغم من ذلك كله، فان هذه الصفات المميزة للغة الفرد لا تجعل من كلامه لغة خاصة لا يفهمها الغير. بل الواقع أن كلام هدا الفرد، رغم تميزه عن كلام غيره من الأفراد، يشترك مع غيره في تلك الصفات العامة التي تميز لغة المجتمع الذي يعيش فيه، وهي الصفات التي تجعل من اللهجات الفردية مجرد نماذج متشابهة في الأساس، مختلفة بعض الاختلاف، من تلك اللغة التي يتفاهم المجتمع بوساطتها، ولولا أن أوجه الشبه الأساسية أكثر وأهم بكثير من أوجه الاختلاف لما أمكن التفاهم بين أفراد أي مجتمع.

وما سبق ذكره لا يعني طبعا أن اللغة أو اللهجة الفردية تبقى ثابتة رغم نمو الفرد جسمانيا واجتماعيا وثقافيا، بل أن العكس هو الصحيح. حتى أن طبيعة الصوت نفسها تتغير مع النمو الجسماني من الطفولة إلى الشباب إلى الشيخوخة كما أن نمو الفرد ثقافيا على وجه الخصوص يحدث تغييرات كبيرة جدا في مفردات وتراكيب اللغة التي يستعملها بل وحتى في طريقة نطق الحروف وطريقة قول الجمل كما أن تغير المركز الاجتماعي للفرد ينتج عنه أيضا تغير مواز في اللغة التي يستعملها.

6-اللغة واللهجات:

الفرد عضو في عدة مجموعات في مجتمعه الكبير. فهو عضو في أسرته وهو عضو في مجتمع الحي الذي يعيش فيه، وهو عضو في مجتمع القرية أو البلدة التي يسكنها ثم هو عضو في مجتمع القطر الذي يحمل جنسيته. وهو بالإضافة إلى هذا عضو في جماعة دينية ربما كانت تكون أغلبية السكان أو أقلية كبيرة أو صغيرة، كما هو عضو في طبقة ثقافية معينة سواء كان أميا أو نصف مثقف أو مثقفا ثقافة عالية. وهو أيضا عضو في فئة مهنية معينة بحكم عمله كأن يكون قاضيا أو محاميا أو طبيبا أو تاجرا أو مدرسا أو سمكريا أو ميكانيكيا الخ.. كما أنه يمكن أن يكون باختياره عضوا في نقابة مهنية أو رابطة ثقافية أو سياسية أو ناد خاص أو منظمة ثورية أو دينية أو سرية الخ.

والفرد بصفاته هذه يؤثر في اللغة التي يتكلمها أفراد المجتمعات الصغيرة والكبيرة التي ينتمي إليها، كما تؤثر اللغة السائدة في تلك المجتمعات في لغته أو لهجته الخاصة. صحيح أن لغة كل من تلك المجتمعات إنما هي حصيلة للغات الأفراد الذين ينتمون إليها ولكن الفرد ليس حرا في استعمال اللغة التي يريدها فهو واحد من عدد صغير أو كبير من الأفراد الذين يتكلم كل منهم لغته الخاصة المختلفة عن غيرها ولكنهم جميعا مقيدون إلى حد كبير باللغة الوسطى المشتركة بين أفراد كل من تلك المجموعات. وينتج عن هذا التفاعل بين الفرد والمجتمعات المختلفة أن يصبح هنالك عدد لا يحصى من اللغات أو اللهجات التي تميز كل منها أحد تلك المجتمعات الصغيرة والتي تختلف اختلافا طفيفا عن لهجة المجتمع الصغير الآخر المجاور له وعن لهجة المجتمع الأكبر الذي يضمه.

هذه هي الأوضاع الطبيعية التي تنشأ في المجتمع الواحد في الأحوال المادية الخالية من الهزات الكبيرة كالحروب والغزو والهجرات الجماعية وما شابهها. وفي مثل هذه الأوضاع الطبيعية تتكون في العادة للوحدة السياسية الواحدة لهجة خاصة تعرف بها وتميزها عن الوحدات السياسية المجاورة إذا كانت تلك الوحدات تستخدم نفس اللغة، كما هو الحال بالنسبة للبلدان العربية المختلفة.

وقد يصل الأمر بهذه اللهجات أن تستقل كل منها بصفات معينة تختلف

اختلافا كبيرا عن صفات اللهجات الأخرى بحيث يصبح فهمها عسيرا على غير من يتكلمونها هي بالذات فتتحول تدريجيا إلى لغة مستقلة لا تستخدم في الأمور الحياتية فحسب، بل ويكتب بها الأدب والعلم والقوانين والمعاهدات والمواثيق الخ. ويزيد بعدها عن لهجة البلد المجاور التي تصبح هي الأخرى لغة مستقلة. وقد حدث هذا كثيرا في جميع أنحاء العالم، وهو الاتجاه السائد في التغير اللغوي خاصة في غياب سياسة واحدة أو عوامل اجتماعية أو دينية أخرى تعمل على التوحيد بدلا من التفريع، وفي غياب وسائل الاتصال الجماهيري التي يمكن أن تستخدم كأهم عنصر من عناصر التوحيد اللغوي. فعن اللغة العربية القديمة تفرعت لهجات عديدة أصبحت كل منها قبل الإسلام لغة منفصلة، عاش منها حتى الآن اللغتان العربية والعبرية. وعن اللغة اللاتينية تفرعت خمس لهجات أصبحت فيما بعد اللغات الإيطالية والفرنسية والأسبانية والبرتغالية والرومانية، وعن اللغات الجرمانية الأم تفرعت سبع لهجات أصبحت اليوم اللغات الهولندية والإنجليزية والألمانية والدنمركية والنرويجية والسويدية والأيسلندية. ومن أمثلة ذلك أيضا اللهجات العربية الحديثة التي يكاد أن يصبح بعضها غير مفهوم بين أفراد الأمة العربية والتي لولا وجود لغة القرآن الكريم كعنصر موحد في غاية القوة، لأصبحت كل منها لغة مستقلة كما حدث في الأمثلة السابقة والتي نحاول في الوقت الحاضر أن نقرب بينها عن طريق نشر الثقافة والتعليم وعن طريق وسائل الاتصال الجماهيري وغيرها.

ولقد اهتم علماء الغرب منذ القرن الماضي بالدراسات اللغوية التاريخية وتوصلوا إلى تجميع معظم لغات العالم المعروفة في سلالات لغوية، كما اهتموا بدراسة اللهجات الحديثة وتحديد مواصفاتها وتوزيعها الجغرافي في البلد الواحد وأعدوا الأطالس اللغوية التي تبين تلك المواصفات وذلك التوزيع وتقاعسنا نحن كثيرا في هذا المضمار سواء فيما يتعلق بدراسات اللهجات العربية القديمة التي كانت سائدة في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام وبعده والتي حملها العرب معهم في فتوحاتهم إلى البلدان التي فتحوها، أو فيما يتعلق بدراسة اللهجات العربية الحديثة لاعتبارنا هذه اللهجات تشويها للغة العربية الفصحى، ولذلك فهي لا تستحق الدراسة.[(6)] إن هذا النوع من الدراسة عمل شاق للغاية ويحتاج إلى مجهود جبار،

خاصة وان مفهوم اللهجة نفسه غير محدد تماما. فإلى أي مدى يجب أن يبلغ الاختلاف بين شكلين من أشكال اللغة الواحدة حتى يمكننا أن نعتبر كلا منهما لغة مستقلة؟ ليس هناك جواب سهل لهذا السؤال. فهل نستعمل الفهم المتبادل مقياسا لاعتبار الشكلين لغة واحدة؟ إذا فعلنا ذلك واجهتنا بعض الصعوبات. فالدنمركيون يفهمون اللغة النرويجية ويستطيعون الحديث بها مع النرويجيين ومع ذلك فان كلا منهما تعتبر لغة مستقلة. والمتحدثون باللغة الهندية يستطيعون التفاهم بها مع المتحدثين بالأوردو ومع ذلك فان الهندية تعتبر اللغة الرسمية للهند بينما الأوردو تعتبر اللغة الرسمية لباكستان وكل منهما تعتبر لغة مستقلة وهذا ينطبق إلى حد كبير على الأسبانية والبرتغالية وعلى الألمانية والهولندية في مناطق الحدود حيث تصبح كل منهما مفهومة للمتكلمين بالأخرى.

يتجه الباحثون في الوقت الحاضر إلى اعتبار اللغة مرتبطة بالكيان السياسي الواحد. وهذا يمكن أن يفسر الوضع بالنسبة للدانمرك والنرويج والسويد مثلا ذات اللغات المتشابهة والمفهومة لدى سكان البلدان الثلاثة. ومن اللغة الصينية ليست لغة واحدة في الواقع بل هي ست لغات لا يستطيع المتحدث بإحداها أن يفهم ما يقوله المتحدث بالأخرى. واللغة الإنكليزية يتكلمها الناس في عدد كبير من الوحدات السياسية المستقلة كالمملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية واستراليا ونيوزيلندا وغيرها. فلا تعتبر كل من هذه الأشكال لغة مستقلة، بل إحدى لهجات اللغة الأم. ومهما يكن من أمر، فان هذه الصعوبات لم تمنع الباحثين اللغويين من تقديم خدمات كبرى عديدة في أوروبا وأمريكا بوجه خاص تبدو واضحة في تلك الأطالس اللغوية التي بذل في إعدادها جهد جبار. وعلى الرغم من ذلك فان اتجاه البحث هذا قد تعرض للنقد، واصبح الباحثون يعرضون عنه لعدة أسباب، أهمها: إن هذا النوع من البحث يفترض ثباتا في تلك اللهجات التي حددت اختلافاتها عن اللهجة الوسطى المعترف بها رسميا، ورسمت لها حدود التوزيع على الخرائط، مع أن الواقع طبعا غير هذا. فهنالك عوامل كثيرة تساعد على حدوث التغير والتطور في تلك اللهجات والتداخل فيما بينها بحيث يحتاج الأمر الإنكليزية رسم خرائطه جديدة كل عدد من السنوات. والسبب الآخر يتعلق بطرق جمع المعلومات وتصنيفها ونوع العينات التي

يختارها الباحثون وهل تمثل بالفعل مجموع السكان في منطقة معينة. ولماذا لا تشمل العينة عادة المثقفين من الناس الخ. أما السبب الثالث فهو أن هذا النوع من البحث يفترض أن الأفراد الذين يتكون منهم سكان منطقة معينة يتكلمون بشكل متشابه، بينما الواقع أن كلا منهم يتكلم بشكل يختلف عن الآخر كما أن هنالك شرائح اجتماعية تتشابه لهجاتها ربما في داخل المناطق الجغرافية المختلفة، بسبب طبيعة عملها أو انتماءاتها المختلفة. ولذلك فان اللغويين المعاصرين يتساءلون عن مدى فائدة مثل هذه الدراسات من الأساس، وفيما إذا لم تكن أنواع أخرى من الدراسات اكثر جدوى، كدراسة التوزيع والاختلاف اللغوي على أساس اجتماعي، وهذا ما اتجه إليه الباحثون في السنوات الأخيرة، وهو ما أشرنا إليه في مطلع هذا الجزء من البحث، وما سنتطرق له في الأجزاء التالية.

وقبل أن ننهي هذا الحديث الموجز جدا عن اللهجات، لا بد من الإشارة الإنكليزية أهمية اللغة القومية ومكانها. الإنكليزية وظيفة اللغة القومية الواحدة التي تسعى الدولة عادة الإنكليزية تعليمها لمواطنيها جميعا وظيفة هامة للغاية. فلا شك أن اللغة هي دليل هوية المجتمع وهي من أهم العناصر التي تعمل على توحيد ذلك المجتمع، الإنكليزية لم تكن أهمها جميعا. ولذلك فان الدولة تعمل على نشر هذه اللغة الموحدة حتى لو لم يستعملها المواطنون إلا في الأحاديث والقراءة والكتابة الرسمية فقط، كما هو الحال مع اللغة العربية في العصر الحاضر. ولكن دور اللغة العربية أهم من دور أية لغة قومية أخرى، فهي عنصر يعمل ليس على توحيد أفراد مجتمع في وحدة سياسية واحدة كقطر من الأقطار أو دولة من الدول، ولكنها تستطيع أن توحد بين أبناء الأمة العربية جمعاء.

لقد كان إحياء اللغة القومية بعد المحافظة عليها جيلا بعد جيل في ظروف قاسية تعمل في بعض الأحيان على طمسها أو القضاء عليها، لقد كان ذلك أمرا مميزا لنشوء القوميات الحديثة. ومن أمثلة ذلك محاولة اتخاذ اللغة الهندية لغة رسمية في جميع أرجاء الهند المستقلة، وبعث اللغة العبرية لغة رسمية ولغة حديث في فلسطين المحتلة. ولعل أبلغ مثال على ذلك محافظة شعوب شمال أفريقيا على لغتهم العربية رغم السياسات المرسومة للقضاء عليها، ثم بعثها من جديد لغة قومية للدول المستقلة بعد

أن تحررت من نير الاستعمار الأوروبي الطويل.

وكثيرا ما يبلغ الاهتمام والاعتزاز باللغة القومية مبلغ محاولة تنقيتها من الشوائب الأجنبية العالقة بها كما حصل مع اللغة الألمانية وما تحاول الأكاديميات والمجامع اللغوية أن تفعله في أماكن مختلفة من العالم.

7-اللغة والتباين الاجتماعي:

إن الاختلاف أو التنوع الاجتماعي ظاهرة واضحة تماما، يخلو منها مجتمع من المجتمعات وتدل على هذا الاختلاف أمور كثيرة بعضها له علاقة بالحسب والنسب وبعضها له علاقة بالثروة أو المظهر الخارجي من الملابس إلى الممتلكات إلى طريقة التصرف وبعضها مرتبط بالمهنة أو السن أو الجنس أو الدين الخ. كما أن على أفراد مجتمع معين أن يعرفوا الصفات المميزة لكل شريحة اجتماعية ومدى حرية الانتقال من شريحة إلى أخرى، لان الأمر يختلف من حالة إلى أخرى فهنالك مجتمعات لا تسمح بالانتقال من شريحة (أو طبقة) إلى أخرى إلا عن طريق الانتفاضات الكبيرة كالثورات وما شابهها. وهنالك مجتمعات تسمح بمثل هذا الانتقال بشكل فوضوي، وهنالك مجتمعات تقف بين بين. كما أن بعض الانتقال يمكن أن يتم بشكل رسمي عن طريق منح الألقاب أو التعيين في مناصب حكومية أو قضائية عالية وهكذا.

واللغة عنصر هام جدا لتمييز شريحة عن أخرى، كما أن الانتقال من مظهر من اللغة خاص بشريحة معينة إلى مظهر آخر يمكن أن يحدث تدريجيا مع تطور الفرد ويمكن أن يحصل تشبها بشريحة أو طبقة اجتماعية تالية (وكثيرا ما يولد الهزء والسخرية) ولكنه يحدث كثيرا في المناسبات أو المقامات المختلفة لتصبح اللغة المستعملة مناسبة لذلك المقام.

ما نقصد أن نقوله هنا هو أن هنالك مظاهر لغوية خاصة بشرائح اجتماعية معينة تدل على تلك الشرائح دلالة واضحة. فمن الممكن تمييز لغة الأطفال عن لغة البالغين، ولغة المثقفين عن لغة الأميين ولغة طائفة دينية معينة عن لغة طائفة أخرى، ولغة المدرسين عن لغة النجارين عن لغة القضاة عن لغة الأرستقراطيين، ولغة أهل المدينة عن لغة أهل الريف أو أهل البادية. فللأطباء لغتهم التي تميزهم عن غيرهم، وللمحامين لغتهم

وللمهندسين لغتهم، وكذلك للتجار، والمدرسين والطلاب ورجال الدين، والخبازين، والحدادين، والنجارين، والشباب المراهقين لغة تميزهم عن غيرهم. هذا كله صحيح وواقع وقد جرت عليه الدراسات الكثيرة، ولكنه ليس في الوقت الحاضر موضع الاهتمام الرئيسي للباحثين اللغويين الاجتماعيين. أن اهتمامهم يرتكز حاليا على التغير الذي يطرأ على لغة الفرد في المناسبات أو المقامات المختلفة. وعلى نوع هذا التغير أو الانتقال من أسلوب إلى آخر وأسباب ذلك الانتقال.

وكما كان الأمر بالنسبة لدراسة اللهجات، فان الباحثين في هذا الموضوع يقابلون صعوبات جمة منها تحديد الشريحة أو الطبقة الاجتماعية ومنها تحديد المقامات المختلفة ومن علماء اللغة وعلماء النفس وعلماء الاجتماع يتعاونون في هذا المجال للتوصل إلى أنواع الأساليب المختلفة التي يستعملها الفرد في المقامات المختلفة ومع أفراد من شرائح اجتماعية مختلفة، وقد اتخذوا-وسائل علمية يجري تطويرها وتحسينها بشكل مستمر وتوصلوا فعلا إلى نتائج لها قيمتها.

إن الأساليب اللغوية التي يستخدمها الفرد تتغير بتغير الموضوع من جهة والمشاركين في الحديث أو المستمعين له من جهة أخرى. كما تتغير بفعل عوامل أخرى خارجة عن اللغة نفسها، معظمها اجتماعي أو نفسي أو كلاهما معا.

لقد قام العالم مارتن جوس Martin Joos(7) بتقسيم الأساليب التي يمكن أن يستعملها الفرد إلى خمسة هي:

أ- الأسلوب الجامد: وهو الذي يستعمل فيه كلام رسمي جدا لدرجة اعتبار المستمع غير موجود لأنه لن يستطيع أن يؤثر فيما يقال بأي شكل من الأشكال، كأسلوب الخطب الرسمية والأدعية والصلوات والإعلانات وكتلاوة الكتب المقدسة وإلقاء الشعر وتمثيل المسرحيات، بالإضافة إلى معظم ما ينشر مطبوعا. إن المستمع هنا سلبي لا يشارك في النشاط اللغوي وقلما يحدث أن يقاطع المتكلم.

ب- الأسلوب الرسمي: وهو أسلوب لا يشارك فيه المستمع أيضا كالخطب التي تلقى أمام جمع غفير وتكون معدة أعدادا جيدا وتقرأ بعناية بالغة، وكعدد من برامج الإذاعة والتلفاز، وبعض المحاضرات التي تلقى في

الجامعات-وان كانت هذه آخذة بالانقراض بسرعة-فإذا استعمل هذا الأسلوب بين الأفراد فانه يدل على المسافة الاجتماعية البعيدة بين المتكلم والمستمع، كما يحدث عندما يكلم الموظف رئيسه الكبير أو عندما يكلم الفقير الغني أو الخادم سيده أو سيدته أو الابن أباه في الأسر المحافظة، أو التلميذ أستاذه في النظام التربوي التقليدي.

جـ- الأسلوب الاستشاري: وهو أسلوب فيه كثير من الأسلوب الرسمي ولكنه يتطلب اشتراك واستجابة المستمع، ولا يخطط له المتكلم بعناية بالغة كما يتجنب استعمال العبارات المقننة أو الكليشهات، بل بإمكانه أن يستعمل في حديثه بعض التراكيب والأشكال اللغوية المختصرة التي تستعمل في الحديث العادي. وهذا هو الأسلوب الذي يستعمل مثلا بين حاكم ومستشاريه أو وزرائه عندما يتناقشون في أمور الحكم. وان كان هذا يتوقف على نوع الحكم نفسه والعلاقة بين رئيس الدولة ووزرائه. لقد كانت الملكة فكتوريا مثلا تفضل هذا الأسلوب وكانت تكره وليم جلادستون رئيس وزرائها رغم كفاءته وإخلاصه لأنه كان يستعمل معها أسلوبا رسميا جدا. ولذلك كانت تقول «إن جلادستون يكلمني وكأنه يخطب في اجتماع عام».

د- الأسلوب العادي: وهو الأسلوب الذي يستعمله الأصدقاء فيما بينهم أو الذي يتخذه جماعة من الناس تناقش موضوعا مألوفا لديهم جميعا. وهذا الأسلوب يفترض خلفية من المفاهيم والمعلومات المشتركة بين المتحادثين ويستعمل فيه كثير من اللغة العامية حتى عندما يكون المتحادثون عن المثقفين كما تستعمل فيه اللغة الخاصة بمهنة أو فئة معينة من الناس إذا كان المشاركون في الحديث ينتمون إلى مهنة أو رابطة اجتماعية معينة. وهذا الأسلوب تكثر فيه المناقشة ومقاطعة المتكلم والتعليق المتكرر على الحديث إلى غير ذلك من الأمور التي تجعل اتخاذ القرارات السريعة ممكنا. كما تكثر فيه الجمل الناقصة وأشباه الجمل والإجابات بكلمات مفردة أو حتى بالإيماء والإشارة.

أسلوب الألفة الشديدة: وهو أقل الأساليب رسمية ويتألف عادة من أشباه جمل ومفردات وإيماءات، وتستعمل فيه عادة اللغة العامية جدا، بل كثيرا ما تستخدم فيه عبارات ومفردات خاصة بأسرة معينة، أو بشريحة اجتماعية صغيرة جدا. ويبدو أن وظيفة هذا الأسلوب تختلف عن وظائف

الأساليب الأخرى وكأن المقصود منه التعبير عن الأحاسيس أو العواطف اكثر من نقله للأفكار أو المعلومات. وهو الأسلوب المستعمل بين الأحباب والأزواج وأفراد الأسرة الواحدة-وان كان الوضع يختلف من أسرة إلى أخرى باختلاف الحضارات المختلفة-والمجموعات التي تعمل عملا دقيقا هاما كمجموعة الجراحين-والمساعدين والممرضين المشتركين في عملية جراحية. أو أفراد فريق كرة القدم أو أفراد عصابة وأمثالهم.

هذه هي الأساليب الرئيسية الخمسة التي يستخدمها الناس فيما بينهم. ومن ليس هنالك من الناس من يستعمل أحد هذه الأساليب في جميع المناسبات. أن اختيار الأسلوب أو الشكل اللغوي محكوم اجتماعيا ويتوقف على نظرة المجتمع ككل إلى الأشكال المختلفة من اللغة والى وظيفة كل من تلك الأشكال. أن مدى قرب الشكل اللغوي الذي يستعمله فرد من الأفراد أو بعده عن الشكل الوسط من اللغة، أي الكل المقبول اجتماعيا لدى الأغلبية العظمى من الناس وخاصة المثقفين منهم، ومدى توفق ذلك الفرد في استعمال ذلك الشكل أو عدم توفقه يعتمد على عوامل منها: خلفيته الأسرية، الإقليم الذي ينتمي إليه، مستواه الثقافي ومعتقداته السياسية والاجتماعية كما يتوقف على الموضوع الذي يجرى البحث فيه. ويكون ذلك الاستعمال مقبولا إذا كان مناسبا للمقام الذي يقال فيه الكلام فإذا تحدث رجل الدين باللغة العربية الفصحى في مناسبة عقد قران مثلا فان كلامه مقبول جدا، ولكنه إذا فعل ذلك مع البقال أو الجزار، فان المقام يعتبر غير مناصب لذلك، ويمكن أن يجد المتكلم نفسه في موضع الهزء والسخرية.

وكثيرا ما يحدث الانتقال من شكل أو أسلوب لغوي إلى شكل أو أسلوب آخر في نفس المناسبة وفي نفس الكلام، لكي يؤدي الأسلوب الجديد وظيفة أخرى مغايرة للأسلوب المستخدم في الكلام عموما. فالدارس لخطب الرئيس الراحل جمال عبد الناصر مثلا-وقد درست خطبه فعلا من هذه الزاوية-يلاحظ أحيانا انتقالا مفاجئا من اللغة الرسمية التي تستعمل فيها اللغة الفصحى والمعدة إعدادا جيدا إلى اللهجة المصرية التي يتكلمها كل مصري بالسليقة ويفهمها بسهولة ويسر كبيرين. والهدف من ذلك في الغالب هو الاقتراب من الجماهير، وبخاصة غير المثقفة، التي تعجب باللغة العربية الفصحى ولكنها لا تتجاوب معها تماما. ومحاولة الوصول إلى

أعماق شعورها والتأثير فيه، وأشعار المستمعين بأن الحاكم «منهم وفيهم» أي انه واحد منهم يشعر معهم ويشاركهم الإحساس بما ينفعهم وما يضرهم.

وكثيرا ما يقرر المتكلم أن يستعمل أسلوبا معينا بغض النظر عن المقام ويكون هذا أما لإثبات هوية المتكلم وانتمائه بالنسبة للمستمعين، وغالبا ما يكون ذلك بقصد التعالي أو أشعار المستمعين بأهمية المتكلم. أو يقرر أن يستخدم المستوى اللغوي الخاص بأبناء الطبقة أو الشريحة الاجتماعية التي تحلوه مباشرة بقصد التشبه بهم، كأن يستعمل حديث الثراء غير المثقف لغة المثقفين تشبها بهم فيعرض نفسه بهذا العمل للهزء والسخرية.

يقول لابوف (Labov)[8]، وهو من اكثر الباحثين اهتماما بعلاقة اللغة بالمجتمع أن شعور الناس بالنسبة للانتقال أو التحول الاجتماعي له أثر كبير للغاية على الأشكال اللغوية التي يختارونها. فقد رأينا أن الناس الذين يطمحون للانتقال إلى طبقة اجتماعية أعلى من طبقتهم يتخذون لغة تلك الطبقة. أما إذ كان التحول الاجتماعي قليلا جدا في المجتمع، فان الصفة الغالبة على ذلك المجتمع هي الثبات على المعايير المستعملة بين الأغلبية. بينما يتميز التحول إلى أسفل أي إلى طبقة أدنى برفض كثير من الأساليب والاستعمالات المتعارف عليها، بالإضافة طبعا إلى رفض أية استعمالات لها علاقة بالطبقة الأعلى، وهذه الظاهرة هي الملاحظة بين المراهقين إجمالا، والهبيين بوجه خاص في الوقت الحاضر.

إن كل ما قلناه حتى الآن عن علاقة اللغة بالتباين الاجتماعي، لا يعني فردا معينا أو أفرادا معينين بالذات. فان من اشق الأمور التنبؤ بالتصوت اللغوي للفرد الواحد. ولكن جل ما نريد قوله أن لدى الأفراد في مجتمع معين وعيا لتلك الفروق اللغوية الموجودة بين أفراد المجموعات أو الشرائح أو الطبقات المختلفة في ذلك المجتمع. وان أولئك الأفراد، يستعملون في أحاديثهم وكلامهم أساليب تختلف باختلاف المستمعين، وباختلاف المقام، وباختلاف موضوع البحث. وان القاعدة هي هذا الانتقال من أسلوب إلى أسلوب بينما الثبات على أسلوب واحد يعتبر شذوذا على تلك القاعدة. ولنأخذ بضعة أمثلة أخرى على ما نقول:

في بلد كبلجيكا مثلا تستعمل لغتان في آن واحد: اللغة الهولندية واللغة الفرنسية ولكن يبدو أن هنالك أنماطا منتظمة للمناسبات التي تستعمل

فيها كل من اللغتين: فقد لوحظ أن موظفي الحكومة في العاصمة بروكسل الذين هم من اصل فلمنكي لا يتكلمون الهولندية باستمرار فيما بينهم حتى عندما يكونون جميعا متمكنين من تلك اللغة وقادرين على التحدث بها بنفس الطلاقة. فهنالك مناسبات يتكلمون فيها اللغة الفرنسية فيما بينهم. بل هنالك مناسبات يتحادثون فيها باللغة الهولندية الفصحى ومناسبات أخرى يتحدثون فيها بشكل أو بأخر من اللهجات الهولندية الإقليمية. علاوة على ذلك فان بعضهم يستعملون أشكالا مختلفة من اللغة الفرنسية فيما بينهم، شكل منها زاخر بالمصطلحات الحكومية الرسمية، وشكل آخر يشبه الفرنسية المستعملة في المحادث ة بين المثقفين والطبقة الراقية في بلجيكا. بشكل ثالث هو اللغة الفرنسية العامية الخاصة بالفلمنكيين من سكان بلجيكا(9).

وهذا القول لا ينطبق فقط على المجتمعات ثنائية اللغة أي التي تتكلم لغتين في وقت واحد كبلجيكا وكندا أو التي تستعمل ثلاث لغات كسويسرا أو عدة لغات كالهند، بل ينطبق أيضا على المجتمعات ذات اللغة الواحدة وربما كان أوضح مثال على ما نقول هي اللغة التي ننادي أو نخاطب بها الناس وسنختار الأمثلة هنا من اللهجة المصرية بشكل خاص لغزارة المفردات المستعملة فيها لهذا الغرض. فعلى الرغم من الإلغاء الرسمي للألقاب غي مثر واستعمال كلمة«سيادة» في الكلام الرسمي الموجه حتى لرئيس الجمهورية، فلا زالت التعابير التالية تستعمل للخطاب والمناداة أو سابقة للاسم أو المنصب الرسمي، بعضها يستعمل في اللغة الرسمية والبعض الآخر في لغة المثقفين ومعظمها في اللغة الدارجة وبين معظم طبقات الشعب.

فمن التعابير الرسمية التي مازالت مستعملة التعابير التالية:

جلالة الملك، صاحب السمو أو سمو الأمير/ولي العهد، فضيلة القاضي، سماحة المفتي، نيافة المطران، دولة أو سعادة الوزير، جناب المدير الخ.

وهذه لا زالت مستعملة في أكثر من بلد عربي مع بعض الاختلافات الجزئية. أما الألفاظ التالية فجميعها تستعمل في اللغة العامية المصرية للمناداة، ويتوقف اختيار إحداها على المنادي أو المخاطب، وعلى العلاقة الاجتماعية بين المتكلم والمخاطب وعلى المقام الذي يجرى فيه الخطاب،

وان من أمتع الأمور دراسة تلك الظروف التي تستخدم فيها كل من هذه العبارات:

يا بيه، يا أفندي، يا سيد، يا سيدنا، يا أستاذ، يا دكتور، يا باش مهندس، يا كابتن، يا حج، يا عم/ يا عمي، يا خال/ يا خالي، يا أخ، يا أخي، يا أسطه، يا ريس، يا معلم، أنت، يا محمد، يا بو حميد، يا ولد.....

وهذه جميعها تخص الذكور وهنالك عبارات خاصة بمخاطبة الناس جديا أو ممازحة أو مغازلة أو توبيخا الخ. كما أن هنالك عددا كبيرا آخر من العبارات تستعمل لمخاطبة الذكور عندما تكون الحالة النفسية للمتكلم غير عادية، كأن يكون غاضبا أو سعيدا أو متضايقا الخ.

إن اهتمام علم اللغة الاجتماعي بدراسة هذه الظواهر حديث العهد ولا زال في مرحلة الوصف في الوقت الحاضر، والمأمول أن يتمكن الباحثون من مواصلة جهودهم الرامية إلى تقعيد هذه الظواهر، أي التوصل إلى القواعد التفصيلية التي تحكمها.

8- اللغة والسن:

تتغير لغة الفرد وتتطور في أثناء نموه، ولا تتوقف عن ذلك أبدا. ولكنها تكون في أوج تطورها في المرحلة الأولى من العمر. وقد رأينا سابقا كيف يبدأ الطفل بفترة المناغاة ثم ينتقل إلى تكوين الجمل المؤلفة من كلمة واحدة ثم من كلمتين ثم من عدة كلمات. وفي هذه الفترة يساعد الأبوان أطفالهم على التكلم بلغة خاصة هي ما تسمى «لغة الأطفال» (baby talk) كأن تستخدم كلمة «نبو» للدلالة على الماء، «ومح» للدلالة على اللحم، «وكخ» للدلالة على القذارة، «ودح» للدلالة على الشيء الجديد، «ودادى» للدلالة على المشي وهكذا، ومثلها الكلمات,, bow wow (bye, tummy, doggy, wabbit)= rabbit باللغة الإنكليزية. وهذه ظاهرة ملاحظة في معظم بلدان العالم ويقصد الأبوان تسهيل الأمور على أبنائهم باستعمالهم مثل هذه اللغة وتشجيع أطفالهم على استعمالها، إلا أن لها أحيانا بعض الأضرار.

وبعد سن الخامسة أو السادسة يكون الطفل قد تمكن من قواعد لغته واكتسب عددا كبيرا من المفردات قبل أن يدخل المدرسة. وهنا يطرأ على لغته تغير كبير، فهو من ناحية يبدأ بتعلم اللغة الرسمية المقبولة اجتماعيا

لدى أغلبية الناس وخاصة المثقفين منهم، ومن ناحية أخرى يبدأ احتكاكه بأقرانه من الأطفال القادمين من مجتمعات مختلفة، وتتأثر لغته تأثرا كبيرا بما يسمعه منهم. ففي فترة الصبا مثلا نلاحظ في لغة الفتيان والفتيات كثيرا من الألفاظ المغرقة في العامية (slang) التي كثيرا ما تميز أفراد مجموعة معينة عن غيرها، وهذه المجموعات (gangs) يكثر تكوينها في هذه المرحلة وفي مرحلة المراهقة التي تليها. ثم تتطور لغة الفرد في فترة النضوج وتتخذ طابعا فيه شيء من الثبات وبخاصة بعد أن ينهي الفرد تعليمه ويتخذ مكانه في المهنة والمجتمع.

وبما أن اللغة تتطور مع سن الفرد فان لكل من تلك الأعمار صفات لغوية تميزها عن غيرها، ويمر بها كل فرد في أثناء نموه من الطفولة حتى يصل إلى النضوج الكامل. كما أن أفراد المجتمع يعرفون القواعد التي تحكم استعمال اللغة في الأعمار المختلفة، فإذا حدث أن خرق أحد الأفراد إحدى تلك القواعد، فان ذلك الخرق يكون واضحا للجميع وعرضة للتعليق أو النقد أو الاستلطاف أو الاستهجان الخ بحسب الغرض الذي يرمي إليه خرق تلك القاعدة والاستعمال غير العادي، كأن يتكلم رجل في الأربعين وكأنه شاب مراهق، أو يتكلم شاب مراهق وكأنه ابن العشرين أو يتكلم صبي في السابعة وكأنه طفل رضيع وهكذا.

إن تقيد الفرد باللغة الخاصة بكل سن يعمل به في المجتمعات التقليدية المحافظة اكثر من المجتمعات المفتوحة. ففي مجتمع يشجع الشباب ويحاول أن يبدو شابا باستمرار كالمجتمع الأمريكي مثلا ليس من المستهجن أن نسمع ابن الأربعين يتكلم وكأنه ابن الأربعة عشر ربيعا ولكن هذا ليس مقبولا في أي مجتمع تقليدي محافظ حتى في القارة الأوروبية.

9- اللغة والجنس:

ونقصد بالجنس هنا أن يكون الفرد ذكرا أو أنثى. وتختلف اللغة بعض الاختلاف بين الجنسين. فمن الفروق الملحوظة مثلا إن أصوات النساء في المادة أكثر حدة وأعلي طبقة من أصوات الرجال وذلك لأسباب بيولوجية معروفة، كما أن النساء أكثر وضوحا في النطق من الرجال واكثر منهم حرصا على النطق السليم للمفردات والجمل. والنساء أيضا محافظات في

استعمال اللغة أكثر من الرجال وهذه صفة عامة تميز النساء عن الرجال، لذلك فهن لا يتقبلن التجديد في اللغة بسهولة. وهن أيضا يكثرن من استعمال اللوازم مثل «أليس كذلك؟» كل يستخدمن أنماطا من تنغيم الجملة تزيد في العدد عما يستعمله الرجال.

هذا من ناحية عامة، أما فيما يتعلق بالمفردات بشكل خاص فان النساء يستعملن بعض المفردات التي لا يستعملها الرجال عادة أو يستعملن بعضا منها استعمالات تختلف عما يفعله الرجال. ومن أوضح الأمثلة على ذلك استعمال النساء لعدد أكبر من الألوان مثل: الموف، والتركواز، والبيج، والزهر، واللبني الخ وهي الكلمات التي نادرا ما يستعملها الرجال. كما أن لغة النساء تزخر بالصفات التي تعبر عن قوة العاطفة سواء كانت حقيقية أم تستعمل من باب المجاملة فقط.

وتزداد هذه الفروق في الاستعمال كلما زاد انعزال المرأة عن الرجل وكلما زاد انزواؤها في مجتمعها الخاص بها، بينما تقل تلك الفروق كلما انطلقت المرأة إلى المجتمع الواسع وشاركت الرجل في حياته وعمله وأفراحه وأتراحه على قدم المساواة. إن دراسة لغة النساء في مجتمعاتنا العربية يجب أن تقوم على أساس كل مجتمع على حدة، لان تلك الاستعمالات الخاصة لن تفهم إلا في إطار ذلك المجتمع وباللهجة العربية المستعملة فيه، ولكن من المؤكد أنها من أمتع الدراسات لأنها تلقى ضوءا قويا على مكانة المرأة في المجتمع، وتطور تلك المكانة مع تطور وانفتاح ذلك المجتمع.

كما أن في كثير من اللغات ما يعتقد بأنه تحيز للرجل ضد المرأة. ويقولون هذا حتى عن اللغة الإنكليزية ويستشهدون بقاعدة التغليب التي نعرفها في اللغة العربية والتي تقضي باستعمال ضمير المذكر للإشارة إلى الأسماء المذكورة سابقا إذا كانت تشمل المذكر والمؤنث معا. ولكن يبدو أن هذه القاعدة موجودة في كثير من اللغات ولا يقصد بها إلا تيسير الكلام والإشارة. ولكنهم يوردون من الإنكليزية مفردات وعبارات أخرى تشير إلى ذلك التحيز، كقولهم: He is a professional ويقصدون بالعبارة أن الرجل ينتمي إلى إحدى المهن المحترمة كالطب والمحاماة وأمثالها، بينما قولهم She is a professional يشير إلى أن المرأة مومس محترفة كما يستشهدون بأن كلمة master مثلا تعني «سيد» بينما مؤنثها mistress تعني «عشيقة» وهكذا،

ويوردون غيرها من الأمثلة. فإذا كان الأمر كذلك في لغة شعب تحررت المرأة فيه تحررا كبيرا كاللغة الإنكليزية-وإن كان من الممكن تفسير كل ذلك على أسس أخرى-فما بالك بلغات الشعوب التي بقيت فيها المرأة محرومة حتى من نور الشمس كما حدث للمرأة العربية على مدى مئات السنين. لا شك أن دراسة اللغة العربية من هذه الناحية ستعطي بعض الأدلة الواضحة جدا على المكانة الحقيقية للمرأة في المجتمعات العربية المختلفة في فترات التاريخ المتتابعة.

ولا زالت اللهجات العامية في معظم البلدان العربية تزخر بالأمثلة التي تشير إلى أن نظرة الرجل إلى المرأة لا زالت متخلفة جدا. فلا زلنا نسمع إشارات إلى الزوجة يستعمل فيها الرجل عبارات: «الجماعة» أو «أهل البيت» أو «العيال» أو حتى «بعيد عنك» وان كانت هذه آخذة بالانقراض مع انتشار التعليم وانفتاح المجتمعات لتدخلها المراد من أوسع أبوابها.

١٥-اللغة والعرق أو الجنس البشري:

لقد حاول البعض في الماضي أن يربطوا بين اللغة والجنس البشري وان يدعوا بأن لغة الشعوب الآرية مثلا من ذوي الشعور الشقراء والعيون الزرقاء لغة راقية لان من يتكلمها شعب راق متقدم عن غيره. بل اتخذوا من ذلك الادعاء بالسمو ذريعة لاستعمار البلدان الفقيرة واستعباد شعوبها الجاهلة المتخلفة عن ركب الحضارة وقد أخذ بهذه النظرية في عصرنا الحاضر النازيون في ألمانيا والفاشيون في إيطاليا وصنفوا الشعوب ولغاتها تصنيفهم المعروف فأتى العرب في ذيل القائمة.

لقد ثبت الآن بالدليل القاطع أنه ليس هنالك مثل هذه العلاقة وان أي شعب قادر على اكتساب أية لغة من لغات الأرض، كما أنه ليس للغة فضل على لغة أخرى إلا بما اكتسبته خلال العصر الحاضر من تفوق في المفردات الدالة على العلوم والتقنيات الحديثة التي تتميز بها الحضارة الغربية، وهو فضل موقت ينمحي في وقت قصير إذا استطاعت اللغات الأخرى اللحاق بركب الحضارة بالسرعة المطلوبة.

ومع ذلك فإننا نلاحظ في لغة المتكلمين باللغة العربية مثلا ممن هم من أصل تركي أو شركسي أو إيراني أو أرمني بعض المواصفات التي تميز أبناء

كل من تلك الأجناس عن أبناء الجنس الآخر. وهذه المواصفات تشمل النطق كما تشمل المفردات وأبنية اللغة المختلفة. وهذه الظاهرة ملاحظة بوضوح في الولايات المتحدة الأمريكية في بعض العبارات الخاصة بلغة اليهود والهولنديين وفي لغة الفئات التي من اصل أسباني أو برتغالي ولكنها أوضح ما تكون في لغة السود. فهل هذه الاختلافات التي تميز لغة فئة عن أخرى ناتجة عن انتماء هذه الفئة أو تلك إلى جنس بشري معين؟

يبدو أن البحث العلمي لا يؤيد هذا إطلاقا، بل يعزو هذه الظاهرة لأسباب كثيرة أهمها الأسباب الاجتماعية.

فنحن نلاحظ مثلا أن هذه الظاهرة واضحة بين أبناء الجيل المخضرم من أي من تلك الفئات، أي بين أبناء ذلك الجيل الذي يهاجر من بلد إلى آخر وقد تمكن من لغته الأصلية، وأصبحت لديه عادات لغوية قوية يصعب التخلص منها في المجتمع الجديد، ولذلك فان من الطبيعي أن تلون لغته الجديدة المكتسبة في وقت متأخر من العمر بلون لغته الأصلية. فإذا ما نشأ أبناؤه في البيئة الجديدة ودرسوا في مدارسها واختلطوا بأقرانهم ممن يتكلمون اللغة الجديدة، فانهم يكتسبون تلك اللغة بنفس الشكل الذي يستعمله أبناء المجتمع الجديد، ولا يستطيع أحدنا التفريق بينهم وبين أبناء البلاد الأصليين.

ولكن هنالك شرطا أساسيا لاندماج أبناء المهاجرين في البيئة الجديدة والمجتمع الجديد، هو أن تكون الأبواب مشرعة أمامهم، والسبل ميسرة لهم، والنية منعقدة لديهم على ذلك الاندماج. فإذا وقعت عوائق وعقبات دون ذلك أو كانوا هم غير راغبين في الذوبان في المجتمع الجديد، فان نوعا خاصا أو لهجة خاصة من اللغة تنمو بينهم متأثرة بحضارتهم ولغاتهم الأولى وتحافظ بل ربما تزيد من أوجه الخلاف بينها وبين لغة ذلك المجتمع المتعارف عليها والمقبولة اجتماعيا، وما نشوء وتطور ما يسمى بلغة السود (Black English) في الولايات المتحدة الأمريكية إلا مثل على ذلك أما لغة أولئك الذين ينحدرون من أصل أسباني أو برتغالي فلاختلافها عن اللغة الإنكليزية المتعارف عليها أسباب أخرى منها قرب هؤلاء واستمرار اتصالهم ببلدان أمريكا الوسطى الجنوبية وبجزر البحر الكاريبي التي لا يزال معظم أهلها يتكلمون إحدى تلك اللغتين.

١١ - الكلام المحصور اجتماعيا:

سنختم كلامنا في هذا الفصل بالحديث عن الاستراتيجية التي يستعملها أبناء مجتمع معين لتجنب استعمال الألفاظ التي لا يقرها ذلك المجتمع. وهذه الظاهرة، ظاهرة الكلام المحظور اجتماعيا (taboo) شائعة في جميع المجتمعات ومنها تخف في الحدة في المجتمعات المفتوحة، وقد شاهدنا في السنوات الأخيرة اتجاها واضحا في الغرب لبعض الأدباء من ناحية وللشباب والمراهقين والهيبيين من ناحية أخرى والفتيات عموما على العودة إلى استعمال معظم الكلمات المحظورة اجتماعيا بشكلها الأصلي ودون حياء أو خجل. ويعتبر هذا بالنسبة لمعظم المجتمعات تطرفا شديدا يقف على النقيض من التزمت الشديد الذي كان سائدا في إنكلترا مثلا في العصر الفيكتوري عندما لم يكن من المقبول أن يقول الفرد-وخاصة الفتاة-: كسرت رجل الطاولة، لان كلمة رجل كانت من الكلمات المحظورة على الاستعمال.

لقد ذكرنا في عدة مناسبات سابقة أن استعمال اللغة محكوم بقواعد وهذه القواعد نوعان، نوع يتعلق بتركيب اللغة نفسها: أصواتها وقواعدها، ونوع آخر يتعلق بالاستعمال الفعلي، وهذه القواعد الأخيرة في معظمها قواعد اجتماعية وضعية تختلف في المادة من مجتمع إلى آخر حتى لو كان المجتمعان يستعملان نفس اللغة وعلى الفرد الذي يعيش في مجتمع ما أن يتقيد بهذه القواعد إذا كان راغبا في أن يبقى عضوا مقبولا في ذلك المجتمع. وبعض هذه القواعد، كما رأينا، تنظم استخدام الأساليب المختلفة في المقامات المختلفة، بينما يحظر بعضها الآخر استخدام بعض الكلمات أو العبارات على اعتبار أنها كلمات أو عبارات غير مهذبة أو بذيئة وهذه القواعد ليست، كما يتصور البعض، مقصورة على المجتمعات الراقية ودالة على الرقي والتأدب ورهافة الحس والذوق، بل هي موجودة حتى في أكثر المجتمعات بدائية. فلدى قبيلة الهنود الحمر المسماة «زوني» قواعدها الخاصة لاستعمال الأساليب اللغوية المختلفة ولحظر استعمال بعض الكلمات. فلديهم ثلاثة أساليب للكلام: أسلوب الحديث العادي، وأسلوب الكلام المقدس، وأسلوب العبث واللهو. ولكل من هذه الأساليب مقاماتها المختلفة التي يجب أن تستعمل فيها، كما أن لديهم بعض الكلمات المحظور استعمالها مثل كلمة «تكة» التي تعني «ضفادع» والتي يحظر التفوه بها في

أثناء القيام ببعض الطقوس الدينية مثلا، كما يحظر استعمال الكلمة التي تدل على الأمريكي الأبيض في نفس المناسبات.

أما أسباب الحظر فليس من السهل الاهتداء إليها، فان أي كلمة ما هي إلا مجموعة من الأصوات البريئة التي يضفي عليها المجتمع معنى معينا لحاجته إلى ذلك المعنى. أما متى وكيف تصبح تلك الكلمة الضرورية المفيدة كلمة بذيئة في نظر المجتمع، فأمر محير فعلا. لان الأمر الغريب أن الكلمة البديلة التي تستعمل كلفظة لطيفة بالنسبة للكلمة المحظورة كثيرا ما تصبح هي الأخرى قبيحة في نظر المجتمع نفسه، بعد عدد من السنين، فيحظر استعمالها وتستبدل بغيرها ثانية.

إن بعض العلماء لا يرى في حظر استعمال بعض كلمات اللغة دلالة على الإحساس المرهف والذوق الرفيع، بل على العكس فهم يعتقدون أن مثل هذا الحظر له مساوئه الكثيرة، فان المجتمع عندما يعزل عددا من الكلمات التي تتملق بأمور طبيعية جدا كالجماع أو الأعضاء التناسلية أو التبول وما إليها، يكون قد ساعد على إنزال تلك الأعضاء والعمليات إلى الحضيض بحيث تصبح حتى الإشارة إليها شيئا معيبا يتجنبه الأفراد، مع أن الوضع الطبيعي أن ينظر إليها نظرة عادية صحية. كما أن هذا الحظر يفتح المجال لمخالفته واستعمال تلك الكلمات لأغراض خاصة منها النكتة المبتذلة ومنها ما هو أخطر من ذلك.

إن الكلمات المحظورة تقع عادة في واحد من عدد محدود من الموضوعات، أهمها الخرافات والأساطير التي تنمي الخوف من بعض الكلمات أو مما تشير إليه تلك الكلمات، ثم موضوع الموت الذي لا يحبه ولا يحب ذكره أحد، ثم موضوع النسل والتناسل وما يتصل بهما وكل ما يتصل بالأعضاء التناسلية من حيض-وجماع، ولواط وغيره.

ففي بعض المجتمعات لا يجوز ذكر الشيطان أو العفاريت لأنها ربما أتت عند سماع اسمها، ومثل هذا حاصل في بعض مجتمعاتنا العربية حتى اليوم، حين يذكر «الأسياد» بدلا من الجن أو العفاريت أو حين تذكر البسملة بدلا من ذكر هؤلاء كقول بعضهم «شفت بسم الله الرحمن الرحيم». بل أن هنالك بعض المجتمعات كالمجتمعات المسيحية الأوروبية مثلا التي تحظر استعمال اسم الجلالة في الأحاديث العادية وتقصر ذلك على المناسبات

الدينية وقراءة الكتاب المقدس والصلوات وأمثالها، بينما يقف المجتمع الإسلامي على النقيض من ذلك، ففي ذكر الله في كل مناسبة بركة ورحمة وهو أمر يشجع عليه الدين.

أما موضوع الموت فانه مكروه في كل المجتمعات ولذلك فان الناس في البلدان المختلفة يستبدلون كلمة «مات» بكلمات أخرى تبدو ألطف على الأذن وأخف على النفس، كما نقول نحن مثلا: انتقل إلى جوار ربه أو: توفاه الله أو: أسلم الروح أو: قضى نحبه، أو رحمه الله، وأمثالها من العبارات. ومثل هذا أيضا عدم الإشارة إلى الأسماء الصريحة لبعض الأمراض المعدية أو القاتلة كالسل والسرطان والجدري والحميات الأخرى في الماضي، ويحدث هذا بخاصة في المجتمعات التي تربط بين الأمراض والجن مثلا كما كان الحال عندنا حتى عهد قريب، بل وفي بعض المجتمعات العربية حتى اليوم.

أما تحريم كل ما له علاقة بالأعضاء التناسلية والعملية الجنسية فأمره معروف لدينا وهو شائع في جميع المجتمعات تقريبا وبدلا من استعمال الكلمات الأصلية الدالة عليها، يستعمل كل مجتمع كلمات بديلة أخرى تكون مقبولة لدى الأغلبية العظمى، وان كانت هذه الكلمات الجديدة تتبدل من جيل إلى جيل. ولا يقتصر الأمر على تلك الأعضاء وعلى العملية الجنسية نفسها بل ينسحب الحظر أحيانا على كثير من الكلمات التي توحي لفظا أو معنى بعضو من الأعضاء التناسلية أو بالعملية الجنسية كأن يتقارب اللفظان أو يتشابهان. فحتى عهد قريب كان الناس في جنوب الولايات المتحدة يتجنبون استعمال كلمة «ثور» في أحاديثهم ويستعيضون عنها بعبارات أخرى مثل «ذكر البقر» أو «ذكر الحيوان». وكثيرا ما يستعمل مجتمع ما كلمة أجنبية بدلا من كلمة محظورة ولا يجد غضاضة في ذلك، كما نفعل نحن عندما نستعمل كلمة «تواليت» إشارة إلى المرحاض أو عندما تستعمل قبائل النيوب (Nupe) في غرب أفريقيا كلمات عربية مثل «جماع» و «قفا» بدلا من الكلمات الدالة على نفس المعاني في لغتهم وبسبب المعاني التي توحي بها كلمات مثل (ass, cock) بالنسبة للأمريكيين فقد امتنعوا عن استعمالها واستعاضوا عنها بالكلمات , donkey) (Rooster مع أن الكلمتين الأوليين لا تزالان مستعملتين في المجتمع البريطاني، ويبدو أن اللغة الإنكليزية الأمريكية من أغنى اللغات بالكلمات البديلة لكلمة «حيض» فقد أحصى بعضهم أكثر

من مائة من تلك الكلمات البديلة.

كما أن هنالك بعض الحيوانات كالكلب والحمار والخنزير مثلا بالنسبة لنا يعتبر استعمالها إهانة كبيرة إذا أشير بأسمائها إلى الإنسان، بينما لا ينطبق هذا على حيوانات أخرى، وهذا الأمر يختلف في تفاصيله من مجتمع إلى آخر.

ومما يعتبر من السباب أيضا ويحظر استعماله، التمييز بالعيوب الجسمانية كالعرج والعمى والحول وأمثالهما، وكذلك محاولة اللعب بحروف اسم الفرد بحيث يصبح لفظه مشابها للفظة بذيئة، والإشارة إلى الضعف العقلي كالجنون والغباء والعبط والهبل وغيرها.

وما دامت هنالك قوانين تحظر استعمال بعض العبارات فان من الطبيعي أن يوجد من يخالف أو يكسر تلك القوانين، ويستعمل البذيء من القول. ولسنا هنا في معرض دراسة هذا الموضوع؟ ولكنا نشير فقط إلى بعض الأغراض التي يقصد إليها من يستعملون البذيء من القول.

إن واحدا من الأغراض الواضحة هي إهانة المخاطب ويحصل هذا كثيرا بين العامة عندما يحصل شجار بينهم، بينما يحاور المثقفون تجنبه حتى في مثل تلك الظروف. ومن أغراضه أحيانا لفت الانتباه إلى المتكلم وخاصة عندما يتوافر جمع غفير من الناس يريد المتكلم أن يشدهم إليه ليستمعوا إلى ما يقول فهو يحاول هزهم هزة قوية باستعمال بعض الكلام المحظور على شكل نكتة أو تعليق أو ما شابههما. وكثيرا ما يهدف المتكلم إلى تحدى المفاهيم المتعارف عليها في مجتمعه أما بسبب من يأسه من النجاح وشعوره بالإحباط الشديد ونقمته على ذلك المجتمع، أو كما يفعل الشباب المراهق والشباب الثائر على الأوضاع السائدة وعلى بنية المجتمع وبنية الحكم، والهبيون افضل مثل على ذلك. كما أن من الممكن أن يكون غرض المتكلم هو الهزء من أولئك الذين يمثلون السلطة كالشرطة ورجال الدين والآباء والمدرسين والسياسيين الخ. بالتعرض لهم من الناحية الجنسية والقول أنهم عاجزون عن ممارسة الجنس بالشكل الطبيعي.

وقد نتج عن حظر استعمال بعض العبارات في المجتمعات المختلفة أن ازدهرت تجارة «النكات الحادقة أو القبيحة»، بل وأصبح لكل شعب أسلوب معين في النكات التي يستمتع بها اكثر من غيره. فالألمان مثلا يضحكون

كثيرا للنكات التي تحكي عن التبول وما إليه، والفرنسيون يطربون لنكات الجنس والزنا وانتهاك العرض، والبريطانيون تعجبهم نكات اللواط وسفاح القربى والأمريكيون تعجبهم النكات التي تدل على إذلال المرأة.

هذه هي أهم الموضوعات التي تتعلق باللغة والمجتمع وهي موضوعات شيقة للغاية ولكن صعوبة الكلام فيها أنها تختلف من مجتمع إلى آخر، وأن البحث فيها قليل جدا بالنسبة للمجتمعات العربية المختلفة، ولذلك فان الأمثلة التي يمكن إيرادها ليست بالكثيرة.

وهنا يجب أن ننتقل إلى الفصل الأخير من هذا الكتاب وهو الفصل الذي سنذكر فيه ببعض التفصيل شيئا عن الاتجاهات الحديثة في دراسة أنظمة اللغة المختلفة.

الهوامش

(1) Edward Hall: The Silent Language,(N.Y. Doubleday) Several impressions

(2) تستعمل هنا كلمة حضارة مرادفة لكلمة (culture) باللغة الإنكليزية وبالمعنى الواسع جدا الذي يضفيه عليها علماء الأنثروبولوجيا في العصر الحاضر بحيث تشمل «طريقة أو أسلوب الحياة بجميع مقوماتها وتفاصيلها».

(3) انظر أنواع اللغات صفحة 275 بأدناه.

(4) هذه العبارة وردت فهو المقال التالي Sapir: "The Status of Linguistics as a Science", LANGUAGE, vol.5(1929), pp. 207-214.

(5) انظر آراء بنيامين وورف في مجموعة مقالاته B.Lee Whorf: Language, Thought and Reality: (M.I.T. Press),1956.

(6) انظر: كتاب الدكتور إبراهيم أنيس: في اللهجات العربية، (مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة) عدة طبعات.

وكتاب الدكتور عبد الرحمن أيوب: العربية ولهجاتها، (جامعة الدول العربية: معهد البحوث والدراسات العربية) 1968.

(7) انظر كتابه:

Martin Joos: The Five Clocks (Bloomington: Publication Of the Research Center in Anthropology, Folklore and Linguistics), No22,1962.

(8) انظر كتاب:

William Labov: Sociolinguistic Patterns, (University of Philadelphia Press),1972.

(9) هذا الكلام مأخوذ عن جوشوا فيشمان وهو من اكبر علماء النفس الاجتماعي المعاصرين: لمزيد من الدراسة والتفاصيل انظر كتابيه التاليين:

1- Joshua Fishman: The Sociology of Language, (Rowley: Newsbury House),1971.

2- (Ed.) Advances in the Sociology of Language,(The Hague: Mouton)1971.

5 تركيب اللغة وأنظمتها المختلفة

مقدمة:

لقد حاولنا في جزء من الفصل الثاني من هذا الكتاب أن نشير بإيجاز شديد إلى مدى تعقيد اللغة، فقدمنا صورة سريعة لما يحصل بالفعل عندما يقول الإنسان كلاما ما وذكرنا المراحل المختلفة التي يمر بها الكلام (أو الحدث اللغوي، كما يحب اللغويون أن يسموه) من المؤثر الخارجي-إن وجد-إلى تكوين الفكرة في الذهن، إلى إصدار الأمر إلى أعضاء النطق لتتحرك بطريقة معينة، إلى الكلام الفعلي الذي ينطلق من تلك الأعضاء، ثم تابعنا سيره على شكل موجات تسبح في الهواء إلى أن يصل إلى أذن السامع فيطرق طبلتها ويهزها فتحمله الأعصاب إلى دماغ السامع الذي يقوم بتحليل تلك الاهتزازات وإعادة تركيبها إلى أصوات متشابهة لتلك التي أطلقها المتكلم، ومن ثم يتمكن من فهم مضمونها.

وقد حاولنا في الفصل الثالث إلى نعطي فكرة عما توصل إليه الباحثون بالنسبة لطبيعة اللغة والطريقة العقلية التي يمكن إلى يستخدمها كل من المتكلم والسامع في تكوين الرسالة أو فك رموزها.

وعلى الرغم من إلى النتائج التي تم الوصول إليها حتى الآن لا ترقى الإنسان منزلة العلم الأكيد، نظرا الإنسان إلى جميع هذه الدراسات حديثة العهد جدا إلا إلى جل همنا كان منصبا على إعطاء صورة عن المنهج العلمي الذي يتخذه علماء اللغة والنفس في أيامنا هذه، في دراسة هاتين الظاهرتين والظواهر الأخرى التي تتصل بالجوانب العقلية أو النفسية من مظاهر اللغة المتعددة المتشعبة.

وسنحاول في هذا الفصل إلى ندرس الرسالة اللغوية نفسها من جوانبها المتعددة، من اللحظة التي تبدأ أجهزة النطق بإطلاق الرسالة أصواتا إلى أن تصل إلى أذن السامع فيفهم معناها. وربما كان هذا هو المجال الأصلي لعالم اللغة، ولكننا سنرى في الحال كيف أن هذا المجال نفسه ليس مقصورا عليه، بل يشاركه فيه علماء آخرون ذوو اختصاصات أخرى.

فنبدأ أولا بتحديد ما نريد بحثه. نحن بصدد دراسة كلام البشر لكل عام. ومن أي شكل من الكلام ينبض تسليط الضوء عليه بالدرجة الأولى. اهو الكلام المنطوق أم الكلام المكتوب؟

لقد درجت الدراسات اللغوية في معظمها وحتى عهد قريب على الاهتمام باللغة المكتوبة وبالتراث الأدبي على وجه الخصوص وتحليلها وبناء قواعد اللغة على أساسها، ولذلك أسباب كثيرة، أحدها انه لم يكن بالإمكان حتى سنوات قليلة مضت تسجيل الكلام المنطوق لإخضاعه لأنواع الدراسات اللغوية المتنوعة. كما لم تكن الأجهزة الإلكترونية المختلفة التي يمكن استخدامها في تلك الدراسات متوفرة. ولكن لم يكن توفر تلك الأجهزة هو السبب الرئيسي في التحول الحديث عن الاهتمام باللغة المكتوبة إلى لغة الحديث أو «الكلام» (كما سنطلق عليه من الآن فصاعدا). بل كانت هنالك أسباب أخرى أهم، وما كانت تلك الأجهزة إلا وسيلة لتحقيق حلم قديم كان دائما يراود علماء اللغة ولا يستطيعون تحقيقه لقصر ذات اليد. فقد لاحظ هؤلاء منذ مدة طويلة اختلافا واضحا بين الكلام وبين اللغة المكتوبة من حيث أن ما يستطيع الكلام أن يعبر عنه لا من المعاني العامة فحسب بل ومن الأحاسيس والمشاعر الشخصية بصفة خاصة، تعجز عنه اللغة المكتوبة عجزا جزئيا أو عجزا كليا. وقد حاولوا أن يعوضوا ذلك النقص باستحداث علامات الترقيم أو الوقف كعلامة الاستفهام، والنقطة، والشولة وخلافها.

كما قاموا في وقت متأخر باستحداث أبجدية صوتية خاصة لتسجيل الكلام بالطريقة التي ينطق بها فعلا.

وربما كان أهم من ذلك كله أن اللغة أساسا كلام لا كتابة فليس في العالم كله إنسان عادي (أي غير مصاب بعاهة تمنعه من النطق) لازم لغة قومه على الأقل بيسر وسهولة. ومن ملايين البشر في عالمنا هذا لا يقرؤون ولا يكتبون، كما أن الكلام يستغرق من وقت الإنسان الأمي والمتعلم على السواء، أضعاف ما تستغرقه القراءة أو الكتابة. ثم أن الكلام مهارة يتعلمها الطفل أولا، ثم يذهب إلى المدرسة، أن ذهب، لكي يتعلم القراءة والكتابة، وهل هنالك أدنى شك في أن الكلام سابق للغة المكتوبة بآلاف بل ربما بملايين السنين؟ أو في أن ظروف الكلام والسماع هي التي هيأت التطور اللغوي بوجه عام وتطور لغة بعينها على مدى العصور؟ علاوة على ذلك كله فقد دلت الدراسات التي أجريت على لغات المجتمعات الأمية التي ندعوها بالمجتمعات البدائية، على أن تلك اللغات التي لم تكتب قط، لا تختلف في ثرائها وتعقيدها وإمكانياتها على التعبير عن حاجات تلك المجتمعات، عن أية لغة تتكلمها المجتمعات التي نسميها متحضرة أو راقية.

وما دام الأمر كذلك فينبغي أن يعطى الكلام الأفضلية من حيث الدراسات اللغوية على اللغة المكتوبة، بدون أدنى تردد. وهذا هو بالضبط ما يفعله علماء اللغة المحدثون. ولكن هذا لا يعني مطلقا إلا تكون هناك أبحاث خاصة باللغة المكتوبة وأبحاث خاصة بالمقارنة بين مظاهري اللغة الواحدة.

وعلى هذا الأساس يمكننا البدء بدراسة الكلام بقولنا انه عبارة عن أصوات نستطيع عن طريقها أن ننظم علاقاتنا، نحن بني الإنسان وان نتعاون على فهم هذا العالم وعلى العيش فيه، كما نستطيع بواسطتها أن نعبر عن خلجات نفوسنا وبنات أفكارنا، بطريقة وعلى مستوى لم يصل إليه أي كائن حي آخر يدب على ظهر الأرض، ولن يصل إليه حي لو شاء، إلا أن يشاء الله.

نعم هي مجرد أصوات ميز الله بها خلقه من بني البشر، ولكن هنالك أمورا مذهلة حقا تتعلق بهذه الأصوات البشرية..

يقول أحد علماء اللغة المحدثين: «هل تستطيع أن تدلني على أحد يستطيع أن يستغل النفايات بطريقة أخرى وأكثر كفاءة وأهمية من استعمال

الإنسان لنفايات عملية التنفس؟»[1] والجواب «لا» طبعا. فليس الكلام في واقع الأمر إلا اعتراضا لسبيل الهواء الفاسد المطرود من الرئتين والمشبع بثاني أكسيد الكربون في أثناء صعوده في المجاري الهوائية، واستغلال هذا الهواء الفاسد افضل استغلال. وهذا لا يكلفنا الكثير من العناء، فالهواء الفاسد هذا لم يعد ينفع الجسم، وهو خارج منه شئنا ذلك أم أبينا؟ وكل ما نفعله هو أن نعترض سبيله أما عند الحنجرة أو ما فوقها حتى الأسنان والشفتين ونصنع منه معجزة الكلام التي وهبها لنا الله.

وفوق ذلك فتلك الأعضاء التي ندعوها أعضاء النطق هل هي أعضاء للنطق فعلا أم أن لكل منها في الأصل وظيفة عضوية أخرى تتعلق ببقاء الإنسان على قيد الحياة؟ إذا نظرنا في هذا الأمر مليا، وجدنا انه ليس لأي من تلك الأعضاء وظيفة كلامية أساسية على الإطلاق بل جميعها ضرورية أما لعملية الأكل أو لعملية التنفس أو لكليهما وهما عمليتان لا يستطيع الإنسان العيش بدونهما.

والأكثر إعجازا من ذلك كله. أننا نجد عند تحليل الكلام (كما سيأتي تفصيله بعد قليل) أننا نستخدم عددا محدودا جدا من الأصوات التي لا معنى لأي منها على انفراد لتركيب عدد لا يحصى من الوحدات الصوتية ذات المعنى.

وما دمنا قد ذكرنا كلمة «المعنى» فلنكمل الحديث عن الكلام.

لقد ذكرنا قبل قليل أما الكلام عبارة عن أصوات، وهنا نضيف قائلين أنها أصوات تؤدي معاني. فنحن إذا نستعمل الأصوات وسيلة للوصول إلى نتيجة هي المعاني التي نريد التعبير عنها. فهذان، إذا، هما القطبان أن المظهران الرئيسيان للكلام الأصوات التي يمكن سماعها، كما يمكن دراستها دراسة فيزيائية لأنها شئ محسوس، والمعاني التي هي أمور مجردة لا نفهمها إلا بالعقل. فالأصوات هي الشكل أن الصورة التي تعبر عن المعاني وعلى هذا فان علينا أما ندرس المظهرين، لكي نستطيع أما نفهم الطريقة التي يعبر بها المظهر عن المخبر، أن الشكل عن المعنى.

ولكن هل تكفي دراسة هذين المظهرين لنصل إلى غرضنا؟ أم أما هنالك وسيطا آخر يساعد الشكل على التعبير عن المعنى؟

نحن نعلم جميعا أما الأصوات المنفردة ينتظم كل عدد منها بطرق معينة،

بحيث تصبح كل منها مجموعة نسميها كلمة، وان كلا من هذه الكلمات تدل على معنى معين بالذات نعرف الكثير منه ونستدل على غيره من المعاجم المختلفة. ولكنا نعلم أيضا أما هذه الكلمات بحد ذاتها لا تكون كلاما له معنى، بل يجب أما تنتظم هذه الكلمات في حلقات متصلة وفي نماذج معينة، هي ما نسميها جملا، لكي تؤدي الوظيفة المطلوبة منها في التعبير عن المعاني. ولكن كيف تنتظم؟ وكيف نعرف العلاقات بين تلك الكلمات في الجمل المختلفة؟ بل كيف نفرق بين جملة وأخرى؟ لا بد أما هنالك قوانين أن قواعد تحكم ترتيب تلك الكلمات وعلاقاتها بعضها ببعض. وما هذه القوانين إلا ما نسميها بالعربية قواعد اللغة (من نحو وصرف) وهي التي تكون صلة الوصل أن الوسيط بين اللفظ والمعنى. وهي، إذا ركن ثالث وهام من أركان الكلام. يجب أما يتطرق إليها البحث لتكتمل الصورة بالنسبة لنا، وهذا هو ما سنقوم بتفصيل بعضه أو أهمه في الصفحات التالية.

2- النظام الصوتي للغة:

إن الاهتمام بدراسة الأصوات اللغوية اهتمام قديم، وقد خطت تلك الدراسات خطوات واسعة في الاتجاه العلمي الحديث نظرا إلى أن الأصوات شيء محسوس، بينما الجوانب الأخرى من اللغة معظمها جوانب تجريدية. ونظرا إلى أن تلك الأصوات هي المادة التي تتألف منها اللغة، فهي أول ما يقدم العلماء على تناولها بالفحص والتحليل.

وللأصوات اللغوية جوانب ثلاثة على الأقل تستحق النظر فيها:

أولها: جانب النطق بتلك الأصوات، ويشمل هذا الجانب الناحية الفسيولوجية ووظائف أعضاء النطق المختلفة، وطريقة تحركها بحيث تصدر الأصوات المختلفة، والصفات الخاصة بكل من تلك الأصوات والتي تميز صوتا عن آخر رغم ما يكون من تشابه كبير فيما بينهما، إلى غير ذلك من الأمور.

ثانيها: جانب انتقال تلك الأصوات في الهواء، ويشمل هذا الطبيعة الفيزيائية للأمواج الصوتية والصفات المميزة لكل نوع من تلك الأمواج وقياسها والإفادة منها.

وثالثها: الجانب المتعلق باستقبال الصوت أو الجانب السمعي ويمتد

هذا الجانب من اللحظة التي تستقبل فيها طبلة الأذن تلك الأصوات والذبذبات التي تحدثها في أجزاء الأذن المختلفة إلى أن تنتقل عن طريق الأعصاب إلى الدماغ. ويشمل هذا الجانب ناحيتين: الناحية العضوية أو الفسيولوجية والناحية النفسية. أما الأولى فتتعلق بدراسة طبيعة الجهاز السمعي ووظائف كل جزء منه والطريقة التي يجري فيها انتقال الصوت من الأذن الخارجية إلى الدماغ، وهذا مجاله علم ووظائف الأعضاء بشكل رئيسي. وأما الناحية النفسية فقد أشرنا إليها سابقا وهي ما يتعلق بطريقة فك الدماغ لرموز الرسالة التي تحملها الأعصاب إليه، وقد رأينا أن علماء اللغة وعلماء النفس يتعاونون فيما بينهم في محاولة للتوصل إلى تحليل كنه تلك العملية العقلية البالغة التعقيد.

إن الجانب الثاني المتعلق بالأمواج الصوتية أصبح الآن أساس علم كامل يتفرغ لدراسته كل من له علاقة بوسائل الاتصال بين البشر من فيزيائيين ومهندسين للاتصالات السلكية واللاسلكية ولفيف كبير من العلماء الآخرين. وقد أفادوا من دراسة هذا الجانب فائدة هائلة في عصر تلعب فيه الاتصالات دورا كبيرا للغاية وفي زمن يحاول الإنسان فيه استكشاف معلم الفضاء الخارجي.

وعلى الرغم من اهتمام علماء اللغة بهذه الجوانب الثلاثة على حد سواء فقد تركوا أمر دراسة الجانبين الآخرين لمن هم اكثر اهتماما منهم بهما ولمن تتوافر لديهم الخلفية العلمية الخاصة والأجهزة العلمية اللازمة لهذا النوع من البحث وركزوا اهتمامهم على الجانب الأول الذي لا يستعصي على الملاحظة والوصف، وان كان التقدم العلمي الحديث قد أسهم كثيرا في الكشف عن بعض غوامضه. ولذلك فقد كان هذا الجانب أقدم جوانب الدراسات الصوتية (أو ما يسمى بعلم الأصوات) لدى اللغويين وأكثرها تقدما.

وعلى الرغم من أن اللغويين قد حصروا بحوثهم تقريبا في جانب واحد من الدراسات الصوتية هو الجانب النطقي إلا أن عملهم لم ينحصر فيما ذكرناه من وصف وتحليل وتصنيف لتلك الأصوات، بل تعداها إلى دراسة الأمر الأساسي الآخر الذي يهمهم ما دام تركيزهم منصبا على دراسة الكلام الإنساني ألا وهو علاقة هذه الأصوات بالكلام البشري أو الوظيفة

التي تؤديها في حمل المعاني المختلفة إلى السامع وكيف يتم ذلك. ولهذا فقد اصبح لهذا العلم فرعان رئيسيان يتصل أحدهما بالآخر اتصالا وثيقا وهما:

أولا: ما اصطلحوا على تسميته بعلم الفوناتيكا (Phonetics) ويتعلق بدراسة الأصوات من وجوهها المختلفة على اعتبار أنها مادة الكلام.

ثانيا: ما اصطلحوا على تسميته بعلم الفونولوجيا (Phonology) وهو الذي ينحو إلى التجريد، فسيتخلص من الدراسات المادية تلك القواعد التي بموجبها تنتظم تلك الأصوات في سلاسل ذات معنى وبذلك تؤدي وظيفتها الأساسية في الكلام بالنسبة للغة معينة بالذات. كما يتطرق إلى أمور أخرى.

وسنبدأ أولا بالفرع الأول الذي اهتم به الدارسون منذ آلاف السنين وهو المتعلق بالأصوات الفعلية التي يصدرها الإنسان عندما يتكلم.

الشق الأول:

يتعلق بأعضاء النطق وصفها وبيان وظيفة كل منها والطريقة التي يعمل بها.

أما الشق الثاني:

فيتعلق بالأصوات التي يمكن أن تصدرها تلك الأعضاء، وكيفية صدورها وبيان الصفات الخاصة بكل منها.

وبما أن معظم هذا البحث ليس جديدا، وبما أن المؤلفات فيه التي يمكن أن يطلع عليها القارئ المهتم متوافرة بكثرة، لذلك فسنعرض لأهم عناصر هذا البحث عرضا سريعا جدا ربما عن طريق إعطاء أمثلة فردية بدلا من أن نحاول، دون طائل تغطية الموضوع المتشعب من جميع جوانبه.[2]

يبين الشكل التالي الأجهزة المختلفة (عدا الرئتين) التي تستخدم في عملية النطق، ويظهر فيه أن تلك الأجهزة تتألف بشكل رئيسي من الحنجرة ووتريها الصوتيين والحلق وتجويف الفم (بما يحويه من لسان وحنك وأسنان وشفتين) بالإضافة إلى التجويف الأنفي. أما التقسيمات التي ترى في الشكل للسان والحنك فأنها تعود إلى الوظيفة التي يؤديها كل قسم منها في نطق الأصوات المختلفة.

١- الشفتان 1- Lips

2- الأسنان	2- Teeth
3- أصول الثنايا (أو مقدم الحنك)	3- Alveolar Ridge
4- الحنك	4- Palate
5- اللهاة	5- Uvula(Velum)
6- اللسان	6- Tongue
7- الحلق	7- Pharynx
8- لسان المزمار	8- Epiglottis

9- الحنجرة وفيها الوتران الصوتيان 9. Larynx

10- القصبة الهوائية 10. Windpipe

11- التجويف الأنفي 11. Nasal Cavity

وفيما يلي بعض الملاحظات السريعة على هذه الأجهزة:

أولا: من الملاحظ أن معظم هذه الأجهزة ثابت لا يتحرك، ولعل أهم الأجزاء المتحركة هي الوتران الصوتيان واللهاة والشفتان واللسان ويلعب الأخير أهم دور على الإطلاق، مما جعل كثيرا من اللغات تطلق اسمه على اللغة نفسها.

ثانيا: معظم الأصوات تخرج من تجويف الفم فيما عدا ثلاثة أو أربعة يستعمل التجويف الأنفي في نطقها لكل رئيسي.

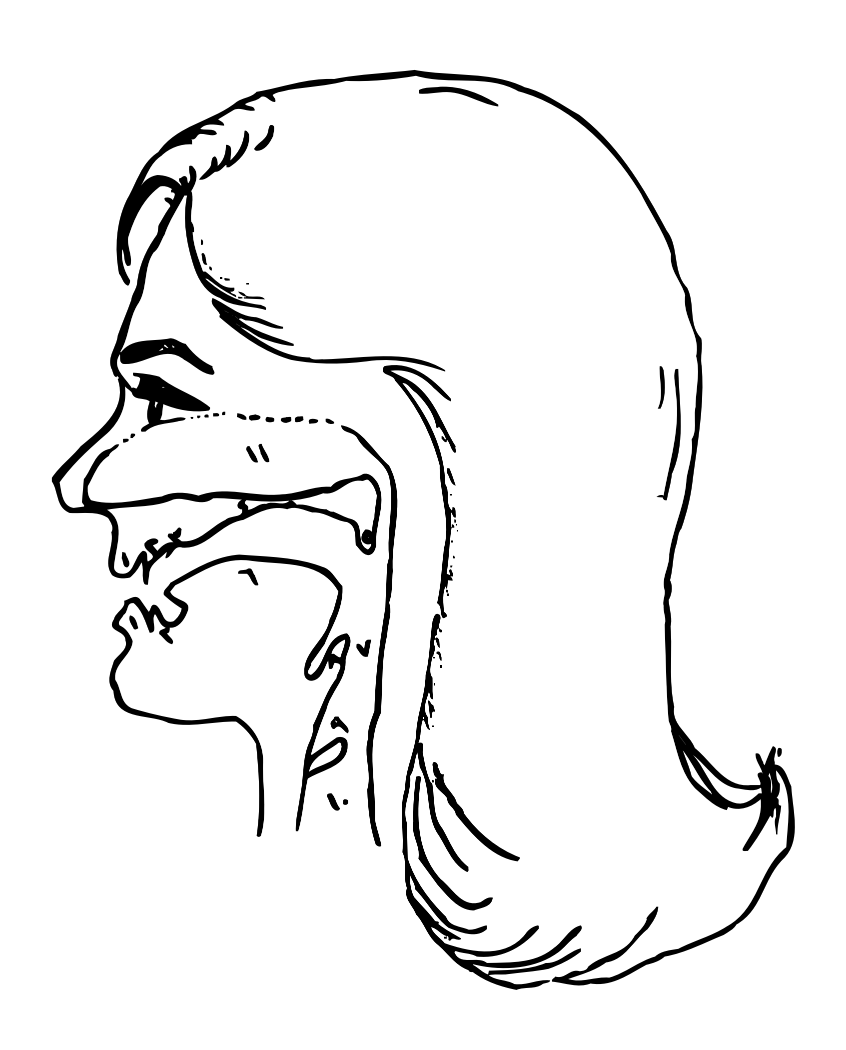
ثالثا: إذا طرأ خلل على أحد هذه الأجهزة تأثر إصدار الأصوات قليلا إلى أن يتعطل كلية في حالة تعطل الوترين الصوتيين مثلا.

أما دراسة الأصوات من حيث طريقة نطقها والأجهزة المستخدمة في ذلك فان التصنيف الأول لها يقسمها إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأول:

ويشمل تلك الأصوات التي تصدر عن الإنسان عندما يمر الهواء الخارج من الرئتين في القصبة الهوائية والوترين الصوتيين فيحدث فيهما ذبذبة ثم يتابع سيره ديون أن يعترض سبيله أي عائق، إلى أن يخرج إلى الهواء الخارجي. أما الذبذبة فهي التي تعطي الهواء صفة الصوت وهو ما نسميه بالجهر. وأما اختلاف أحد هذه الأصوات عن الآخر فالمسؤول عنه هو حركة اللسان في الفم بالإضافة إلى شكل الشفتين.

هذه الأصوات يطلق عليها الأصوات الصامتة (vowels) وهي تشمل ما


١١
٦
٧
٩
١٠

نشير إليها باللغة العربية بحروف المد أو اللين أي الألف والواو والياء، كما في الكلمات التالية:

الألف في وسط الكلمة: راح

الألف في آخر الكلمة: سرى

الواو في وسط الكلمة: نور، سرور

الواو في آخر الكلمة: قالوا

الياء في وسط الكلمة: نير، سرير

الياء في آخر الكلمة: قاضي

وجميعها أصوات طويلة، يقابل كلا منها صوت قصير نشر إليه باللغة العربية بالحركة أي الفتحة والضمة والكسرة والأمثلة على ذلك كثيرة ومعروفة.

أما القسم الثاني: بموجب هذا التصنيف فيشمل جميع الأصوات الأخرى، كأصوات الباء والسين والقاف الخ التي تسمى بالأصوات الصامتة (consonants) وهذه منها المجهور (voiced) (الذي تصاحبه ذبذبة في الأوتار الصوتية) ومنها المهموس (voiceless) (الذي لا تصاحبه مثل تلك الذبذبة) وهذه الأصوات تحدث عندما يعترض سبيل الهواء الخارج من الحنجرة عائق فيسد عليه طريق الخروج سدا كاملا ثم يسمح له بالخروج خروجا قوى الاندفاع فيصحبه ما يشبه الانفجار كما يحدث عندما ننطق صوتي الدال أو الكاف مثلا. أو يسد ذلك العائق طريق الخروج سدا جزئيا يسمح بمرور الهواء الذي يخرج عندئذ محدثا احتكاكا كما يحصل عندما ننطق أصوات السين والشين والفاء والذال الخ. وربما سدت منافذ الفم جميعا على الهواء الخارج بحيث لا تترك له سبيلا للخروج سوى التجويف الأنفي كما يحصل عندما ننطق صوتي الميم والنون مثلا.

وهكذا فأننا نستطيع أن نصف الأصوات الصامتة مثلا بذكر الأعضاء أو أجزاء الأعضاء التي تشترك في نطقه والطريقة التي ينطق بها، وفيما إذا كان الصوت مجهورا أو مهموسا. ونكتفي هنا بإعطاء مثل واحد على ذلك. فإذا أردنا أن نصف صوت الدال مثلا نقول: انه صوت انفجاري (plosive) (بالمعنى المذكور سابقا عن طريقة نطقه) وهو في اللغة الإنكليزية لثوي (alveolar) بينما في العربية لثوي أسناني (alveo-dental) بمعنى أنه

ينطق في اللغة الإنكليزية بأن يرتفع طرف اللسان ليلتصق باللثة (وفي العربية ليلتصق باللثة وخلف الأسنان) ليفسد مجرى الهواء قبل السماح له بالخروج على شكل انفجار. وهو بالإضافة إلى ذلك صوت مجهور بمعنى أن الأوتار الصوتية تهتز عند النطق به. وهكذا نكون قد ذكرنا أهم مميزات هذا الصوت.

ولكن هذا لا يعني أن هذه الصفات هي التي تميزه عن جميع الأصوات الأخرى فنحن نحتاج إليها جميعا لنميزه عن صوت الفاء مثلا الذي ليس صوتا انفجاريا، بل احتكاكيا (fricative) كما أن طريقة نطقه مختلفة بأن تشترك فيها الأسنان العليا مع الشفة السفلى، وهو صوت مهموس أي غير مجهور. ولكننا نحتاج إلى واحدة فقط من تلك الصفات لكي نميز صوت الدال عن صوت التاء مثلا فهذان الصوتان يشتركان في نقاط النطق، كما يشتركان في طريقة النطق والفارق الوحيد بينهما هو أن الدال صوت مجهور بينما التاء صوت مهموس.

وهذا الفرع من علم الأصوات أي علم الفوناتيكا لا يكتفي بهذا القسط من دراسة الأصوات التي لم نذكر منها إلا النزر اليسير اليسير، ولكنه يتعدى ذلك إلى تعداد الصفات الأخرى جميعها التي يمكن أن يتصف بها كل صوت في السياقات المختلفة أو حسبما تنطقه مجموعات معينة داخل مجتمع لغوي كبير. أي أن هذا الفرع يعمل على الإحاطة بكل ما يتعلق بالأصوات (إما في لغة معينة أو في لغات الأرض جميعا) سواء كان لذلك أهمية من حيث معاني الكلمات أم لم يكن. ولذلك فسنقف هنا لنحجم عن الخوض في هذه التفصيلات التي لا تهم القارئ غير المختص، ونكتفي بذكر بعض الملاحظات التي تهم القارئ العربي بوجه خاص.

أما الملاحظة الأولى فهي أن في كل لغة من لغات الأرض عددا محدودا من الأصوات مختارة من بين عدد يكاد يكون غير محدود مما يمكن لأجهزة النطق عند الإنسان أن تصدره. إلا أن الصفات التي ذكرنا بعضا منها سابقا والتي تتصف بها الأصوات المختلفة متشابهة في تلك اللغات إلى حد كبير. كما أن باستطاعة المجتمع الذي تكلم لغة معينة أن يركب من ذلك العدد المحدود من الأصوات المميزة أعدادا ضخمة للغاية من المفردات أو الكلمات وصلت في اللغة الإنكليزية سيلان إلى نصف مليون مثلا. ولنعطي

مثلا بسيطا. لو فرضنا أن عندنا (20) صوتا صامتا في لغة ما و (10) أصوات صامتة ونريد أن نركب من هذه الأصوات كلمات ثلاثية أي ذات ثلاثة أصوات فقط اثنان منها صوتان صامتان والثالث صوت صائت على أن يكون ترتيب تلك الأصوات الثلاثة في الكلمات على أي نظام فان عدد الكلمات الثلاثية التي يمكن أن نركبها من ذلك العدد المحدود من الأصوات يبلغ 400 ,11 كلمة. ويمكننا بعد ذلك أن نتصور تلك الأعداد من الكلمات الرباعية أو الخماسية أو السداسية التي يمكن تركيبها من ذلك العدد المحدود جدا من الأصوات. وخاصية الابتكار اللغوي هذه هي التي سنراها أيضا عندما نأتي إلى بحث قواعد اللغة أي أساليب تركيب الجمل فيها، وهي خاصية تتميز بها لغة الإنسان فقط وتجعل من تلك اللغة عالما رحبا لا حدود له.

أما الملاحظة الثانية التي تستحق الذكر فهي أن في بعض اللغات المكتوبة أبجديات اخترعت وطورت للدلالة على تلك الأصوات التي تتألف منها الكلمات، ولكن جميع هذه الأبجديات ناقصة من حيث تأدية هذه الوظيفة، ففي بعض اللغات حروف من الأبجدية تنطق بأكثر من طريقة واحدة كما هو الحال في حروف (c) و (g) و (f) ومعظم الحروف الصائتة مثل (a) و (e) و (I) الخ. باللغة الإنكليزية بحيث تصبح هنالك هوة واسعة بين نطق الكلمة وتهجئتها. وفي اللغة العربية مثلا لا توجد حروف تدل على بعض الأصوات كصوت الفتحة أو صوت الضمة أو صوت الكسرة، بل أن استعمال الحركات نفسها في اللغة حديث المهد نسبيا. بالإضافة إلى أن بعض الخصائص الصوتية الهامة بالنسبة لمعاني الجمل وفي بعض الأحيان لمعاني المفردات كالنبر (stress) والتنغيم (intonation) ليست في الأبجديات أية رموز تدل عليها. هذه وأمور أخرى كثيرة جعلت الدارسين في العصر الحاضر يولون الكلام عناية تفوق بمراحل عنايتهم باللغة المكتوبة.

وما دمنا قد أتينا على ذكر الحركات باللغة العربية، يجدر بنا أن نشير هنا إلى أنها لم تلق من اللغويين العرب الاهتمام الجدير بها، وربما، كما قلنا، لأنها لم تكن موجودة في الكتابة بل أضيفت فيما بعد على يد أبي الأسود الدؤلي ثم الخليل بن أحمد في شكلها الحالي. وهذا الأمر جعل أولئك اللغويين يركزون اهتمامهم على الحروف الصامتة بوجه خاص.

بالإضافة إلى هذا فقد خلط بعض اللغويين العرب بين حروف المد واعتبروها نوعا واحدا بينما هي في الواقع نوعان مختلفان. فلقد أتينا عند بحثنا للأصوات الصامتة بأمثلة على أصوات المد في أواسط الكلمات العربية وأواخرها، ولم نأت بأمثلة عليها في أوائل الكلمات، وكان ذلك عن عمد. لانا إذا نظرنا إلى الأمثلة التالية ونطقناها:

ولد، يلعب، أحمد

نجد اختلافا بينا بين صوت الواو في ولد وذلك الصوت الموجود في كلمة حوت أو كلمة يقول مثلا، وكذلك بين صوت الياء الموجود في يلعب وذلك الصوت الموجود في كلمة فيل مثلا، وبين صوت الهمزة الموجود في كلمة أحمد وذلك الصوت الموجود في وسط كلمة قال. وقد صنفها علماء اللغة الغربيون تصنيفا مختلفا بينما لم يفعل ذلك سوى بعض مشاهير اللغويين العرب من أمثال الخليل وابن جني. وقد أساء معظمهم فهم صوت الهمزة بالذات الذي صنفوه مع حروف المد مع أنه في الواقع صوت صامت وذلك لاعتمادهم على الكلام المكتوب لا المنطوق في دراساتهم.

وهذا لا يعني أبدا أن العرب لم يسهموا بقسط وافر في الدراسات الصوتية، بل أن العكس هو الصحيح ومن يطلع على تلك الأبحاث التي قدمها سيبويه والخليل بن أحمد وابن جني وغيرهم يجد فيها لا مادة وعلما غزيرين فحسب بل يجد أيضا نظرا ثاقبا ونتائج رائعة بعضها لا يختلف كثيرا عما توصل إليه علماء الغرب بمناهجهم ومعداتهم الحديثة بعد تلك العصور بقرون. بل انه يبدو من الثابت أن الدراسات اللغوية العربية الخاصة بعلم الأصوات التي وصلت إلى أوروبا وترجمت إلى اللغات المختلفة كانت من العوامل المساعدة على ما توصل إليه الغرب من النتائج في العصر الحاضر.

لقد كان كلامنا حتى الآن متركزا على بعض مناهج البحث ونتيجة الدراسات في فرع واحد من فروع علم الأصوات هو ما يطلق عليه اسم الفوناتيكا وقد حان الوقت لكي ننتقل إلى الفرع الآخر الذي دعوناه الفونولوجيا.

لقد ذكرنا فيما سبق من الكلام وعلى سبيل التبسيط أن علم الفوناتيكا يقسم الأصوات البشرية بموجب معايير ثلاثة هي: مواضع النطق وطريقة

النطق واهتزاز الأوتار الصوتية، أو عدم اهتزازها. ولكننا أشرنا في موضع آخر، لتوخي الدقة، إلى أن هذا النوع من علم الأصوات لا يقتصر على ذلك بل انه يحاول ألا يترك شاردة أو واردة تتعلق بوصف الأصوات إلا تناولها بالبحث والدراسة. ولتوضيح الأمر، وما دمنا في صدد البحث في الفرع الآخر من علم الأصوات هو الفونولوجيا، فلا بد لنا أن نفرق بين المجالات التي يتطرق إليها كل منهما، لتتضح الصورة وضوحا كاملا.

من المعروف لدينا جميعا أن كلا منا يتكلم بطريقة مختلفة مميزة عن غيره، وذلك راجع للتكوين الفسيولوجي لكل منا وللعادات اللغوية المتعلقة بالنطق والتي نشأ عليها كل إنسان فتأصلت فيه وأصبحت جزءا من كيانه. ولو لم يكن ذلك صحيحا لما أمكننا تمييز أصوات الآخرين عندما يتكلمون في الهاتف من مسافات بعيدة أو عندما يتحدثون في المذياع أو من خلف أبواب مغلقة. وعلى هذا يمكننا القول بأن لكل منا لغته الخاصة به (idiolect). وهذا يعني أن الأصوات المحدودة العدد التي نقول بوجودها في لغة معينة لا تنطق بشكل واحد بل ينطقها أفراد المجتمع الذين يتكلمون تلك اللغة بطرق وأساليب مختلفة. ومع ذلك فأننا نستطيع تمييز الأصوات بعضها عن بعض رغم كل تلك الاختلافات وهذا يعني أن تلك الاختلافات ليست أساسية. ويحدث مثل هذا عندما نسمع كلام أحدنا عندما يكون مبهور الأنفاس، أو مخمورا أو مريضا أو غاضبا أو سعيدا أو كئيبا أو غير ذلك فان نطقه للأصوات التي ذكرناها لا شك سيختلف عنه عندما يكون في حالته العادية. ومع ذلك فإننا نفهم كلامه ونميز فيما بين الأصوات التي ينطقها رغم اختلافها عن الوضع الطبيعي. إذا هذه الاختلافات غير أساسية أيضا.

ثم أننا حتى في أحوالنا العادية لا ننطق الصوت الواحد بنفس الشكل في السياقات اللغوية المختلفة، فمواضع نطق حرف النون مثلا تختلف اختلافا بينا عندما نقول الكلمات التالية:

انقلب، انضبط، انطلق، انتشر، انسل

وذلك بتأثير الأصوات التالية لذلك الصوت. كما يختلف نطق الباء مثلا في كل كلمة من الكلمات التالية:

سبت، دبت، صبت

وذلك بتأثير الأصوات السابقة أو اللاحقة لذلك الصوت، ونفس الشيء نلاحظه في نطق حرف الألف عندما ننطق الكلمات التالية:

سار، فار، دار، طار

ومع ذلك كله فإننا نعرف أن الصوت في كل من هذه الحالات التي ذكرت واحد رغم الاختلاف في نطقه. إذن هذه الاختلافات ليست أساسية أيضا.

أن رفع الصوت أو خفضه عندما ننطق كلمة أو جملة باللغة العربية مثلا ربما يدل على حالة نفسية معينة ولكنه لا يغير شيئا من المعنى الأساسي لتلك الكلمة أو الجملة. ألا أن هذه الخاصية أساسية جدا في بعض اللغات كاللغة الصينية مثلا واللغات الأخرى التي تسمى باللغات التنغمية (tone languages) لان رفع الصوت أو خفضه أو رفعه ثم خفضه ثم رفعه على نفس الكلمة يعطي الكلمة معاني أربعة مختلفة تمام الاختلاف.

نخلص من هذا كله إلى القول بأن في كل لغة صفات أساسية مشتركة بين عدد من الأصوات تجعل من كل منها صوتا مستقلا يعرفه أبناء تلك اللغة رغم الاختلافات الكبيرة في الطريقة التي ينطق بها، ويميزونه عن غيره من الأصوات رغم وقوعه في السياقات المختلفة. ومن هنا نشأت نظرية الفونيم في الدراسات اللغوية ونشأ عنها فرع الفونولوجيا الذي نحن بصدده. وما دام أهم ما يعنينا في هذه الدراسات الوسائل التي تعبر بها الأصوات عن المعاني، فليكن همنا إذا أن ندرس تلك الأصوات المتميزة التي تستطيع أن تغير المعنى.

ولا نريد هنا أن نتطرق إلى النظريات المختلفة المتعلقة بطبيعة الفونيم ولكننا نستطيع أن نشرحه على الوجه التالي: إذا أخذنا زوجا من الكلمات المتشابهة في جميع الأصوات التي تتكون منها فيما عدا صوتا واحدا يختلف في واحدة عنه في الآخر ووجدنا أن المعنى قد اختلف، فان هذا يعني أن كلا من الصوتين المختلفين صوت متميز أو فونيم. مثال ذلك الكلمتان: طال وقال، فهما تظهران لنا أن كلا من صوت الطاء وصوت القاف، صوت مستقل متميز، أي أن كلا منهما فونيم مستقل. ومثال آخر الكلمات: من (بفتح الميم) ومن (بكسر الميم) وهما كلمتان تحمل كل منهما معنى مستقلا عن الآخر تماما. والفارق بينهما هو الفتحة في الأولى والكسرة في الثانية.

فكل من الفتحة والكسرة إذا صوت مميز مستقل أو فونيم، مثله في ذلك مثل أي صوت آخر لأي من حروف الأبجدية الأخرى والأمثلة كثيرة نحو:

تين/طين/قال/كال/سار/صار الخ

ولا شك أن أسلوب المقابلة هذا (contrast) هو نفسه الذي استعمله معظم علماء اللغة على مر الأجيال لاكتشاف وتثبيت ما دعوه بالحروف الأبجدية بالنسبة للغات التي تعتمد على هذا النظام. (رغم ما قصر عنه الحرب عندما تجاهلوا اعتبار الفتحة والضمة والكسرة من حروف الأبجدية الرئيسية).

وقد ذكرنا قبل قليل أن هذه الفونيمات تختلف من لغة إلى أخرى وتعتمد على الصفات المختلفة التي أشرنا إلى بعضها. فما يمكن أن يكون صفة مميزة لصوت من الأصوات في إحدى اللغات لا يجب بالضرورة أن يكون صفة مميزة لنفس الصوت في لغة أخرى. لقد أعطينا مثلا على ذلك من اللغة الصينية التي يجب أن نعتبر النغمات الأربع التي تمر معاني الكلمات فيها فونيمات أو أصواتا مستقلة. ونعطي هنا مثلا آخر من اللغتين العربية والإنكليزية. ففي الإنكليزية يختلف الصوتان (p) و (b) عن بعضهما بصفة الهمس أو الجو فحسب إلا أن هذه الصفة أو الخاصية، رغم أنها صفة مميزة تفرق صوت التاء عن صوت الدال مثلا إلا أنها لا تميز حرف الباء المجهور عن حرف الباء المهموس الذي نسمعه عندما ننطق كلمة سبت في اللغة العربية مثلا. فهذه الصفة إذن ليست صفة مميزة في هذه الحالة وعلى هذا فليس لدينا في اللغة العربية إلا صوت واحد مستقل أو فونيم واحد هو الباء فقط. (وهنا يجب ألا نخلط بين ما نتحدث عنه وما نلحظه من اختلاف في نطق بعض الأصوات العربية كالقاف والكاف مثلا بين لهجة عربية وأخرى، لان هذا يحتاج إلى نوع آخر من الدراسة يدخل ضمن علم دراسة اللهجات (dialectology).

إذن فالفونيم هو ذلك الصوت الأم-إذا صح هذا التعبير-الذي يندرج تحته عدد آخر من الأصوات التي تختلف عنه من الناحية الصوتية في بعض الصفات ولكنها مع ذلك تظل تعتبر أحد فروعه.

ولعل أهم الظروف التي تجعلنا ننطق نفس الصوت المميز أو الفونيم بأشكال مختلفة هي السياقات اللغوية التي يقع فيها والتي أعطينا بعض

الأمثلة عليها. وفرع الفونولوجيا يدرس تلك الظروف ويحاول إيجاد القواعد الثابتة لها. ومن أمثلة ذلك ما نعرفه عن قواعد التفخيم باللغة العربية التي تجعلنا نفخم صوتا عندما يسبقه أحد الأصوات المفخمة في الأمل كالضاد والطاء والصاد والظاء وما يحصل لبعض الأصوات من الإدغام عندما يتلوها صوت يصدر عن موضع من الأجهزة الصوتية قريب من موضع النطق بها، فنقارب فيما بين موضعي النطق بين الصوتين كما في الأمثلة التالية:

من م ـ مم

أن لا ـ ألا

وشبيه به ما يحصل عندما نضيف إلى الاسم ما نسميها ب (أل الشمسية) كما في الأمثلة التالية:

أل + طبل الطبل (ولفظها أطبل)

أل + شمس الشمس (ولفظها أشمس)

ثم أن الفونولوجيا تبحث أيضا في القواعد التي بموجبها تنتظم الأصوات المختلفة بعضها مع بعض في كلمات، وتدرس ما يمكن أن يلتصق من الأصوات وما لا يمكن. وما يمكن بدء كلمة به وما لا يمكن الخ.

فمن المعروف مثلا أننا لا نبدأ الكلمة بصوت صامت في اللغة العربية دون أن تتلوه حركة (أي صوت صائت) فإذا اضطررنا إلى ذلك كما في فعل الأمر مثلا نلجأ إلى الهمزة (التي يعتبرها اللغويون المحدثون صوتا صامتا) ونتبعها بحركة الكسرة مثلا، نحو:

ألعب / أسبح، اذهب

كما أننا لا نكون في اللغة العربية سلسلة من الحروف الصامتة (consonant cluster) دون أن يكون بعد كل واحد أو اثنين منها حرف صائت (يمكن أن يكون حركة طبعا) كما يحدث في اللغة الإنكليزية مثلا في مثل هذه الكلمات:

spring وفيها ثلاثة أصوات صامتة في أولها

strengths وفيها ثلاثة أصوات صامتة في آخرها

وهنا نجد ستة أصوات متتابعة، ثلاثة منها في آخر الكلمة next spring الأولى ومثلها في أول الكلمة الثانية.

ولذلك يجد العربي الذي يدرس اللغة الإنكليزية صعوبة كبيرة في نطق

أمثال هذه الكلمات أو العبارات.

ولكننا نجد قيودا أخرى في اللغة الإنكليزية على تنظيم الأصوات بعضها مع بعض: فلا نجد في هذه اللغة أن صوت الهاء (h) يقع في أواخر الكلمات، وإذا وجد في لغة الكتابة فهو لا ينطق، بل يستعاض عنه بعد الحرف الصامت الذي يسبقه كما في كلمة (hurrah) كما لا يمكن بدء الكلمات بالصوت المركب من الحرفين (n + g) أو (n + k) ولذلك يجد الإنجليز كما نجد نحن-ولكن لسبب آخر-صعوبة في لفظ اسم (Nkrumah) الزعيم الأفريقي وبالشكل السليم. كما لا يقع الحرفان (p + s) أو الحرفان (g + n) في أول الكلمات الإنكليزية فإذا وقعا في اللغة المكتوبة، يكون أولهما غير ملفوظ كما في الكلمات:

psalms psychology gnat gnaw

ويمكن الإتيان بأمثلة كثيرة من لغات متعددة جميعها تدل على أن تنظيم الأصوات في اللغات ليس عشوائيا بل يتبع نظاما وقواعد معينة خاصة بتلك اللغة.

نخلص من عرضنا السريع هذا للدراسات الصوتية بأنها قد أصبحت علما قائما بذاته، بعضه تجريبي يجري في المختبرات، الخاصة لمعرفة المزيد عن طبيعة الصوت البشري من جميع جوانبه، والبعض الآخر نظري وتطبيقي وجميعها تدل على أن لأصوات كل لغة نظامها الخاص الذي يعمل العلماء المختصون على استكشافه وتقعيده بشكل علمي دقيق.

3-النظامان الصرفي والنحوي:

أ- النظام الصرفي[3]

النظام اللغوي كله وحدة مترابطة متصلة، وعلى الرغم من حديثنا السابق عن النظام الصرفي، فإننا لا نقصد مطلقا إلى القول بأنه نظام منفصل مستقل، بل لقد رأينا فعلا كيف أن بعض القواعد التي عمل علماء الأصوات على اكتشافها تصل ما بين أصوات اللغة ومفرداتها أي بين النظام الصوتي والنظام العرفي للغة. وهذا الكلام ينطبق على النظامين الصرفي والنحوي. فبينما يمكننا القول أن علم الصرف يبحث في الهيكل أو البناء الداخلي للمفردات بينما يبحث علم النحو في علاقات المفردات بعضها ببعض في

الجمل المختلفة، لا بد من التنبيه بأن كلا من العلمين يرفد الآخر ويتصل به اتصالا وثيقا لان البنية الداخلية للكلمة تؤثر على علاقاتها مع الكلمات الأخرى في الجملة. فإذا استعملنا فعلا مثل قاتل في بداية إحدى الجمل فان المستمع يتوقع في الحال أن نتبع ذلك الفعل بفاعل يشير إلى من قام بالمقاتلة وبمفعول به يشير إلى من حصلت المقاتلة معه. أي أننا نتوقع جملة كهذه.

قاتل الرجل عدوه

فإذا ما طرأ على الفعل قاتل تغير داخلي (صرفي) بأن زدنا التاء المفتوحة في أوله، فأصبح تقاتل واستعملنا هذا الفعل في بداية إحدى الجمل فان تركيب الجملة (وهي ظاهرة نحوية) يتغير تبعا لذلك. فلا نعود نتوقع مفعولا به مثلا بل نتوقع فاعلا فقط كما نتوقع أن يكون الفاعل يشير إلى المثنى أو الجمع، أي أن الجملة الناتجة تكون شبيهة بهذه تقاتل الرجلان، أو تقاتل الرجال أو أن يكون الفاعل مفردا على أن نكمل الجملة بما يدل على اشتراك آخرين في العمل نحو:

تقاتل الرجل مع رفاقه

كما أن الصلة بين علمي النحو والمعاني واضحة تماما فالفرق في المعنى بين الجملتين التاليتين مثلا: أخذت الكتاب منه وأخذت الكتاب إليه.

واضح تماما رغم أن كل ما فعلناه، هو أننا استبدلنا حرف الجر من في الجملة الأولى بحرف جر آخر هو إلى في الجملة الثانية.

ولكن على الرغم من هذا الترابط الواضح بين أنظمة اللغة المختلفة، فان على الدارس أن يعالج كلا منها على انفراد في أحيان كثيرة تفاديا للتشابك الكبير القائم بينهما وتسهيلا للدراسة نفسها. وهذا ينطبق بوجه عام على معظم الدراسات اللغوية، ولا نستثني من ذلك هذه الدراسة التي بين أيدينا الآن.

لقد تطرقت، في الصفحات السابقة إلى المظهر الصوتي للغة، وهو آخر مظاهرها، بل هو مظهرها المحسوس الوحيد. وعلى الرغم من أن هذا المظهر يأتي في نهاية الخطوات الكثيرة التي تسبق الكلام الفعلي، فقد بدأنا بدراسته أولا لسبب واضح هو أنه المظهر الحسي الوحيد الذي يدل على المعنى، كما يشير إلى القواعد اللغوية الأخرى، التي استخدمت في

إخراجه.

ولكن هذا واحد فقط من مناهج الدراسة التي يمكن أن يتخذها الباحث في ظاهرة اللغة. فقد يبدأ منهج آخر من الطرف الآخر، وهو المعنى، ثم يتدرج في البحث إلى أن يصل إلى المظهر الحسي الأخير وهو الصوت. ومهما يكن من أمر، فان الحلقة الأخرى الملاصقة للصوت هي الكلمة، وهى المادة التي يبحثها علم الصرف.

لقد تأثر علماء اللغة في الغرب في النصف الأول من القرن الحالي بثلاثة عوامل هامة لا بد من الإشارة إليها لكي نلقى بعض الضوء على الاتجاهات والمناهج المختلفة التي ظهرت تباعا خلال القرن الحالي. وهذه العوامل هي:

أولا : اكتشافهم وقناعتهم بأن القواعد التقليدية للغات الأوروبية الحديثة التي كانت سائدة لقرون عديدة ليست بالقواعد الصالحة لهذه اللغات لأنها مبنية في الأساس على قواعد اللغتين اليونانية واللاتينية وكلاهما لغتان معربتان تختلفان اختلافا واضحا عن اللغات الحديثة التي تخلصت من معظم مظاهر الإعراب وأصبحت تعتمد على وسائل أخرى للتعبير عن التغيرات الصرفية في الكلمة أو العلاقات النحوية بين الكلمات في داخل الجمل. ولذلك كان على هؤلاء أن يكتشفوا قواعد لغاتهم من جديد غير متأثرين بالقواعد السابقة.

ثانيا : تأثرهم بالمدرسة السلوكية في علم النفس وهي المدرسة التي كانت نظرياتها سائدة في ذلك الوقت والتي كانت تقصر دراساتها على المظاهر الخارجية الحسية للسلوك البشري. ولذلك فقد جاءت دراسات اللغويين للغاتهم الحديثة وصفية مبنية على الكلام الذي يستعمله الناس فعلا، لا معيارية تضع القواعد لما يجب إليها تكون عليه اللغة بناء على نصوص مكتوبة منذ مئات السنين.

ونظرا لاستبعاد الدراسات العقلية من نطاق دراستهم، فقد اضطروا لاستبعاد المعاني من الدراسات اللغوية وحاولوا أن يدرسوا اللغات الحديثة من الناحية الكلية الظاهرة فقط.

ثالثا : في الولايات المتحدة بالذات كان عمل بعض علماء الأجناس في دراسة لغات الهنود الحمر التي لم تكتب قط ولم تكن قواعدها معروفة،

حافزا لهم على استنباط منهج علمي لوصف تلك اللغات وتقعيد قوانينها. وقد وجدوا في ذلك المنهج أداة صالحة لدراسة لغتهم الإنكليزية الحديثة لاستنباط القواعد التي تقوم عليها فعلا.

لهذا كله فقد انطلق العلماء المحدثون في أبحاثهم الصرفية من نقطة الصفر ولم يأخذوا أية مقولة سابقه كأمر مسلم به. فبدؤوا مثلا في محاولة تحديد مفهوم الكلمة (وهي الوحدة التي كانت منذ أيام الإغريق القدامى تعتبر أصغر وحدة لغوية) وإيجاد تعريف علمي دقيق لها. ولكنهم لم يوفقوا إلى ذلك رغم الجهود التي بذلت في هذا الموضوع حتى اليوم.

والعجيب في الأمر أن مفهوم الكلمة واضح وضوحا تاما بين الناس جميعا، عامتهم وخاصتهم، الأميين منهم والمثقفين. طلبت من أحد الناس أن يذكر مائة كلمة من كلمات اللغة العربية مثلا ثم عرضتها على إنسان آخر فانك تجد اتفاقا كبيرا جدا بينهما. ومع ذلك فلم يستطع حتى اليوم لا أصحاب المعاجم ولا علماء اللغة أن يجدوا تعريفا دقيقا لهذا التعبير. فقد نظروا في الكلمات التالية مثلا:

رجل: رجال

علي: معدي كرب: سر من رأى

ضرب: ضارب: تضارب

يعلموني: سيعلموني: أسيعلمونني: أسيعلمونيها ؟

وتساءلوا هل هذه جميعا كلمات من نفس النوع والمستوى؟ وقد كانوا في تساؤلهم هذا يبحثون عن أصغر وحدة لغوية ذات معنى، ولم يكن مفهوم الكلمة كما هو معروف لدى عامة إيناس، أو كما انحدر إليهم من القواعد التقليدية، ليوصلهم إلى بغيتهم. فكلمة رجال مثلا تفيد معنيين على الأقل (وذلك دون استعمالها في سياق لغوي) هما: معنى رجل بالإضافة إلى معنى الجمع الذي دل عليه إضافة صوت الألف مع تبديل في حركة الراء في أول الكلمة. أما كلمة يدرسون ففيها بالإضافة إلى معنى الدرس الأصلي عدة معان أخرى دلت عليها إضافات وتغييرات في بنية الكلمة الأصلية. ففيها ما يشير إلى الزمن الحاضر أو المستقبل وفيها ما يدل على أن الفاعل هو الغائب وفيها ما يدل على الجمع الخ. أما الكلمات الأخيرة في القائمة المذكورة أعلاه فكل منها جملة تامة في اللغة العربية.

إن أمورا كهذه، وان اختلف التعبير عنها من حيث الصوت والطريقة في اللغات المختلفة، قد حفزت العلماء إلى البحث عن مفهوم آخر للتعبير عن أصغر وحدة لغوية ذات معنى يمكن أن تصلح أساسا لتحليل جميع اللغات، وقد أطلقوا على هذه الوحدة اسم المورفيم الذي أشرنا إليه إشارة عابرة فيما سبق، وقسموا هذه الوحدة إلى نوعين: سموا النوع الأول «المورفيم الحر» (free morpheme) أي الذي لا يمكن استعماله بحرية كوحدة مستقلة في اللغة مثل: رجل، نام، كبير، إلى، حضارة الخ، ودعوا النوع الآخر: «المورفيم المقيد» (bound morpheme) وهو الذي لا يمكن استخدامه منفردا بل يجب اتصاله بمورفيم حر أو مقيد آخر، وأمثلة هذا:

الألف والنون: للدلالة على معنى المثنى، كما في كلمة «ولدان».

الواو والنون: للدلالة على معنيي الجمع والتذكير كما في كلمة «معلمون».

التاء المربوطة: للدلالة على معنى التأنيث كما في كلمة «صغيرة».

الألف والتاء: للدلالة على معنيي التأنيث والجمع، كما في كلمة «بنايات».

وغيرها كثير مما يعرفه تماما كل متكلم بهذه اللغة. كما قسموا هذه المورفيمات المقيدة إلى نوعين رئيسيين: منها ما يدخل في علم الاشتقاق (derivational morphemes) ومثله ما يطرأ على الفعل المجرد في اللغة العربية من إضافات وتغييرات لينتج عنه ما نسميه بالأفعال المزيدة مثل: كسرّ (من كسر) وانفجر (من خبر) وقاتل (من قتل). ومثله كذلك ما يطرأ على الفعل من تغييرات وزيادات لكي نكون منه عددا من الأسماء المشتقة كالمصدر واسم المرة واسم الهيئة واسمي الزمان والمكان وغير ذلك كثير مما لا يخفى على القارئ. أما النوع الثاني فيشمل ما يطرأ على الأفعال والأسماء والصفات الخ. بحسب موقعها في الجملة كالألف والنون والواو والنون والتاء المربوطة والألف والتاء التي أشرنا إليها أعلاه، وهذه كلها تدخل في باب التصريف وتسمى (infleeting morphemes) أي أنها متصلة اتصالا وثيقا بعلمي الصرف والنحو.

ثم أخذوا يستنبطون القواعد التي تحكم طرق اتصال هذه المورفيمات المختلفة بعضها ببعض ومعنى كل منها وخاصة تلك التي لا يمكن استخراجها من المعجم، وهي تلك التي ذكرناها في آخر الفقرة السابقة والتي تؤثر تأثيرا مباشرا في تركيب الجملة أي أنها تتصل اتصالا وثيقا بعلم النحو.

وعلى الرغم من تعرض المورفيم للنقد الشديد في الآونة الأخيرة، وعلى الرغم من بروز بعض الصعوبات في تطبيقه على الأنواع المختلفة من اللغات وحتى على اللغة الإنكليزية نفسها التي اخترع هذا المفهوم لخدمتها فلا زال أداة صالحة يمكن الاستفادة منها في التحليل الصرفي لبعض اللغات.

فالمعروف أن اللغات ليست كلها من نوع واحد من حيث التركيب الداخلي للكلمات ومن حيث الطرق المختلفة التي تستخدم لها للدلالة على مواقع الكلمات المختلفة من الإعراب في الجملة.

فهنالك مثلا اللغات التي تستخدم المورفيمات الحرة فقد بينما يدل نظام الكلمات في الجملة على العلاقات النحوية، كاللغة الصينية. وهنالك اللغات التي تستخدم فيها مقاطع منفصلة تلحق أواخر المورفيمات الحرة وتختلف عن اللواحق الصرفية في أنها يمكن أن تستعمل في بعض السياقات كمورفيمات حرة كاللغات التركية والهندية والهنغارية، ففي اللغة الأخيرة تعني عبارة (هزاكبان):[4] (في المنزل) وهي مؤلفة من «هاز» ومعناها «منزل» «وآك» ومعناها «الجمع» و«بان» ومعناها «في». وهناك اللغات التي تستخدم عددا من المورفيمات المقيدة يتصل بعضها ببعض لتكون عبارة أو جملة كاملة، ففي إحدى لغات الهنود الحمر تعني العبارة التالية:

جنا جلاسليزاكس[5]: أنا ابحث عن قرية

والعبارة تتألف من صوت الحرف «ج» ومعناه «أنا» و«ناجلا» وتفيد معنى «مقيم» و«سل» وهي تضفي على اللفظة السابقة معنى الاسمية ليصبح معناها معها «قرية»، وصوت الحرف «ي» وهو صوت يسبق الكلمة التالية ليجعل منها فعلا، و «زاك» ومعناها «ابحث عن» وأخيرا صوت «س» ويدل على الاستمرار. وليس لأي من هذه المورفيمات معنى محدد إذا استعمل منفردا. وأخيرا هنالك اللغات التي نسميها اللغات المعربة وهي التي تعبر عن العلاقات النحوية أما عن طريق الأصوات المنفردة أو المقاطع في أول المورفيم الحر أو في آخره أو عن طريق التغييرات الداخلية في هيكل الكلمة أو عن طريق اثنتين منها أو كلها معا. وهذا الكلام ينطبق على اللغة العربية مثلا.[6] كما أن من المعروف أيضا انه لا توجد لغة معينة تتبع كليا أحد الأنواع الأربعة المذكورة سابقا. لهذا كله واجه مفهوم «المورفيم» بعض الصعوبات عند تطبيقه حتى على لغة واحدة بعينها، ولنأخذ على ذلك أمثلة

من اللغتين الإنكليزية والعربية فقط لتوضيح الأمر.

فمن السهل مثلا تطبيق هذا المفهوم على الطريقة التي يصاغ فيها الجمع القياسي باللغة الإنكليزية وذلك بإضافة «s» أو «es» بثلاثة أصوات مختلفة وهي (س) و (ز) و (از) للمورفيم الحر أو أصل الاسم المفرد. كما يمكن تفسير حتى بعض الشواذ مثل ox وجمعها oxen و child وجمعها children أما عندما نصطدم بجمع مثل sheep للمفرد sheep بدون حصول أي زيادة أو تغير فان الإنسان يبدو سخيفا عندما يقول بأن المورفيم في هذه الحالة = صفر. وكذلك عندما نصطدم بتغيير في صوت العلة الداخلي للكلمة عند تحويلها من الأفراد إلى الجمع مثل tooth وجمعها teeth أو foot وجمعها feet فان من الصعب جدا تفسير هذه الظاهرة عن طريق مفهوم «المورفيم»، كأن نقول بأن المورفيم الحر أي جذر الكلمة مؤلف من الصوتين (ت) و (ث) في الحالة الأولى ومن (ف) و (ت) في الحالة الثانية-وليس أي منهما مورفيما حرا بالطبع وأننا نضيف صوت (أو) للمفرد و (أي) للجمع ونعتبر كلا منهما مورفيما مقيدا. فهذا التفسير غير مقبول لدى البعض في نطاق نظرية المورفيم.

وفي اللغة العربية أيضا يمكننا تطبيق مفهوم المورفيم على جملة كاملة تستخدمه استخداما كليا كالجملة التالية التي تبدو وكأنها كلمة واحدة فقط:

أستعلّمونيها؟

فهذه يمكن تقطيعها إلى المورفيمات التالية:

أ: ومعناها الاستفهام

س: ومعناها الاستقبال

ت: ومعناها المخاطب (المفرد أو المثنى أو الجمع)

علم: وهي المورفيم الحر، أصل الفعل[7]

ن: وتعني الجمع (وهي تشير أيضا إلى نوع الفاعل)

ي: وتعني المتكلم في حالة المفعول به

ها: وتعني الغائب المؤنث في حالة المفعول به أيضا

أما إذا أخذنا مثلا فعلا مبنيا للمعلوم وحولناه إلى صيغة المجهول مثل:

ضَرَبَ و ضُربَ

فإن من الصعب جدا تفسير هذا التغيير عن طريق مفهوم «المورفيم» لان ما حصل هو تغيير في الأصوات الداخلية للكلمة، وهي نفس المشكلة التي واجهناها في بعض أمثلة اللغة الإنكليزية المذكورة سابقا.

ولهذا السبب فان الباحثين في اللغات المختلفة اليوم يستفيدون من هذا المفهوم ومنهم لا يعتمدون عليه اعتمادا كليا، بل يضيفون إليه مفاهيم أخرى تناسب التركيب الصرفي الخاص بتلك اللغة المعينة التي يحاولون إيجاد وتقعيد النظام الصرفي لها.

أما الأمر الصرفي الآخر الذي عالجه اللغويون المحدثون بطريقة تختلف عن الطريقة التقليدية فهو ما يتعلق بأجزاء الكلام (parts of speech). فالنحويون العرب يقسمون الكلام إلى ثلاثة أجزاء فقط هي الاسم والفعل والحرف، ويحاولون تصنيف جميع مفردات اللغة العربية بموجب هذا التقسيم. وقد كان هذا هو نفس التقسيم الذي اعتمده قدماء اليونان. ولكن الرومان فيما بعد ثم لغويي القرون الوسطى في أوروبا توسعوا في هذا التقسيم إلى أن وصل إلينا بشكله الحاضر. وقد قسم هذا النظام كلمات اللغات إلى ثمانية أجزاء هي: الاسم والفعل والضمير والصفة والظرف وحرف الجر وحروف العطف بالإضافة إلى مجموعة محدودة العدد من الكلمات التي تعبر عن العواطف المختلفة. وقد اعتمد هذا التقسيم على معايير معينة إلا أنها لم تستخدم جميعها عند تعريف كل جزء من تلك الأجزاء، بل استعمل بعضها في تعريف بعض الإجراء بينما استعمل غيرها في تعريف أجزاء أخرى فقد عرف الاسم مثلا بأنه:

«تلك الكلمة التي تدل على إنسان أو حيوان أو جماد، وتقبل العلامات الدالة على الحالات الإعرابية-أي حالة الفاعلية أو المفعولية الخ.»

أما الفعل فقد عرف بأنه «الكلمة الدالة على حدث أو على حالة والتي تقبل تلك العلامات التي تشير إلى الزمن أو المتكلم/المخاطب/الغائب/ والعدد-أي الأفراد والتثنية والجمع-». وفي كلا التعريفين نلاحظ استعمال معيارين معينين.

أما حرف الجر فقد عرف بأنه: «كلمة توضع قبل أي جزء آخر من أجزاء الكلام سواء كان مفردا أم متصلا بغيره اتصالا نحويا» وهنا نلاحظ استعمال معيار ثالث مختلف عن المعيارين السابقين.

لقد استعمل علماء اللغة القدامى من الحرب والغربيين ثلاثة أنواع من المعايير أساسا لتقسيم الكلام إلى أجزائه، وهذه الأنواع هي:

المعيار الأول: وهو المعنى، أي علاقة الكلمة بالعالم الخارجي، كما ورد في تعريف الاسم والفعل بأعلاه.

المعيار الثاني: هو الشكل أو المبنى من حيث قبوله لحركات أو زوائد تدل على حالات إعرابية أو معان صرفية أو نحوية مختلفة. كما ورد أيضا بالتعريفين السابقين للاسم والفعل.

أما المعيار الثالث: فهو موضع الكلمة بالنسبة للكلمات الأخرى في التركيب اللغوي أو الجملة التامة.

لقد اخذ بعض علماء اللغة المحدثين على اللغويين التقليديين استخدامهم المعنى كأحد المعايير لتحديد ذلك الجزء من أجزاء الكلام الذي تنتمي كلمة ما إليه.

وكان هؤلاء هم أنصار المدرسة الوصفية التشكيلية (التي أشرنا إليها سابقا) الذين أصروا على أبعاد المعنى من أي تحليل لغوي، ولذلك فقد اعتمدوا في تعريف وتحديد أجزاء الكلام على المعيارين الثاني والثالث المذكورين أعلاه. وقد تجنبوا حتى استعمال التعابير-اسم، فعل، صفة، الخ- لكي لا يقود ذلك إلى اللبس واستبدلوها بالأرقام فسموها الجزء أعرابية (الأول المجموعة الأولى) والجزء الثاني (الأول المجموعة الثانية) وهلم جرا. وقد كان الأستاذ فريز من جامعة ميشجان اشهر من قام بهذا العمل. وقد كانت نتيجة دراسته انه احتفظ بأجزاء الكلام الرئيسية التي نعرفها وهي الاسم والفعل والصفة والظرف، إلا أن بقية الأجزاء التقليدية انقسمت إلى خمس عشرة مجموعة أخرى بموجب المعيارين المستخدمين[8].

ومع أن مدارس لغوية حديثة أخرى عالجت هذا الموضوع بطرق مختلفة، إلا أن الاتجاه الحديث متفق على ما يلي:-

أولا: لا يجوز أن يقسم كلام لغة معينة إلى أجزاء بناء على تقسيم لغة أخرى. فقد كان لطريقة تقسيم الكلام عند اليونان والرومان القدماء أثرها العميق على الطريقة التي استعملها الأوروبيون منذ العصور الوسطى حتى عهد قريب بناء على الاعتقاد الذي ساد تلك العهود بأن قواعد اللغات جميعا واحدة ولذلك فان ما يصلح للغة اليونان مثلا يجب أن يصلح لأية لغة

أخرى. وقد كان لهذا الاعتقاد أثره على اللغويين العرب أيضا الذين قسموا الكلام بحسب التقويم الذي إقامة علماء مدرسة الإسكندرية من قدماء اليونان (أي: اسم وفعل وحرف) ولا زال كذلك حتى وقتنا هذا، وان كان بعض اللغويين العرب المعاصرين قد قاموا بمحاولات جادة للإنعتاق من سيطرة التقسيم التقليدي، ومحاولة دراسة أجزاء الكلام العربي على أساس اللغة العربية نفسها وبالاستناد إلى المعايير المستعملة في عصرنا الحاضر. ولعل من افضل المحاولات في هذا المجال ما قام به الدكتور/تمام حسان في كتابه «اللغة العربية-معناها ومبناها» الذي توصل إلى سبعة أجزاء للكلام العربي وهي: الاسم والصفة والفعل والضمير والحالة، والظرف والأداة. ويستطيع من شاء الاطلاع على تفاصيل هذه الدراسة الجادة الرجوع إلى ذلك الكتاب.

ثانيا: (وهذه ملاحظة تعتمد على ما سبقها) ليس من الضروري أن تتشابه أجزاء الكلام في لغة ما مع لغة أخرى، سواء من حيث عددها أو من حيث الكلمات التي تندرج تحتها. فكلمتا / قبل وبعد في اللغة العربية مثلا تعتبران ظروفا بينما مثيلاتها تعتبر حروف جر في اللغة الإنكليزية. كما انه ليس في اللغة الصينية مثلا جزء من الكلام يشمل ما نسميه بحروف الجر وان أقرب ترجمة لهذه الكلمات إلى اللغة العربية مثلا تستخدم الأفعال لا حروف الجر. كما أن كثيرا من الصفات باللغة الإنكليزية مثلا عندما تترجم إلى اللغة اليابانية تبدو تابعة لما نسميه بالفعل. وربما كانت الظاهرة الوحيدة الموجودة في جميع لغات العالم هي المقابلة بين الاسمية والفعلية، أي أن هذا التقسيم بين الكلمات الدالة على الاسمية وتلك الدالة على الفعلية يمكن ملاحظتها في جميع لغات الأرض.

ثالثا: إن المصطلحات الفنية «اسم/فعل/صفة ضمير الخ» التي تسمى بها أجزاء الكلام المختلفة، ليست كلها كلمات مستعملة استعمالا-عاديا بين أصحاب اللغة وهذا ينطبق انطباقا تاما على اللغة الإنكليزية مثلا فالكلمات (adverb, adjective, verb, noun الخ) ليست من مفردات اللغة العادية، بل هي مصطلحات خاصة مستعملة في التحليل اللغوي (ويشبه هذا في اللغة العربية المصطلحات التالية إلى حد ما: مفعول لأجله، تمييز، حال، نعت الخ). ولذلك فإننا يجب ألا نستعمل هذه التعابير للدلالة على ذلك الجزء أو

تلك المجموعة من الكلام التي تم تصنيفها سابقا في لغة معينة بالذات. بل يجب أولا أن نقوم بالتصنيف بطريقة علمية ونحدد المعايير التي نستند إليها في تصنيفنا، ولا يهم بعد ذلك أن نستعمل التعبير القديم للدلالة على تلك المجموعة التي تم تصنيفها.

رابعا: وهنا نكرر ما ذكرناه سابقا من أن الفصل بين أنظمة اللغة المختلفة غير طبيعي وهو يتم بقصد تسهيل عمليات التحليل والدراسة فقط. فكما وجدنا أن النظام الصوتي أساس للنظام الصرفي فان النظام الصرفي أساس للنظام النحوي، بل أن ارتباطهما شديد للغاية حتى أن أحد المعايير المستعملة في تعريف أجزاء الكلام، وهو موضع الكلمة في الجملة، معيار نحوي لأن هذا الموضوع يؤثر تأثيرا كبيرا أو قليلا-حسب نوع اللغة التي تحت الدراسة-في وظيفة تلك الكلمة في الجملة سواء كانت فاعلا أو مفعولا به أو نعتا أو منادى الخ.

ولذلك نجد من الضروري أن ننتقل الآن إلى بحث النظام النحوي في اللغة.

ب- النظام النحوي

لقد كان النظام النحوي لب الدراسات اللغوية في هذا القرن على اعتبار انه قلب الأنظمة اللغوية جميعها وواسطة العقد بينها، فهو الذي يصل بين الأصوات والمعاني. وما النظام الصرفي الذي يبحث بين أمور أخرى كيف تنتظم الأصوات المفردة للتعبير عن المعاني المفردة، إلا إحدى الوسائل التي يستعملها النظام النحوي للتعبير عن المعاني الكلية.

وربما كان استعمالنا لعبارة المعاني الكلية غير دقيق تماما هنا، فان المعنى الكلي للكلام لا يحكمه النظام النحوي وحده. لأننا إذا اعتبرنا الكلام المتصل (discourse) أو حتى ما يسمى بالقول (utterance)-الذي يمكن أن يشمل أجزاء من جمل، أو عدة جمل معا-مادة بحثنا اللغوي، علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أمورا أخرى كثيرة، بعضها لغوي صرف، ولكن للبعض الآخر علاقة بالأساليب المختلفة في الخطاب، وله علاقة بوظائف اللغة المتعددة، كما أن له علاقة بالمقام الذي يقال فيه الكلام. أي أن علينا أن نوسع البحث اللغوي بحيث يشمل نواحي اجتماعية ونفسية وحسية كثيرة.

وعلى الرغم من أن هذا هو بالضبط ما تحاول احدث مدرسة لغوية أن

تفعله، إلا أن هذا الاتجاه لا يزال في بداية عهده، وهو اتجاه متشابك مع علمي النفس والاجتماع تشابكا كبيرا وسيتطلب وقتا طويلا قبل أن ترسى قواعده على أسس علمية صلبة-إن كان ذلك ممكنا-وقبل أن يتبلور وضعه بالنسبة للمناهج الأخرى التي سادت القسم الأكبر من القرن الحالي.

ونظرا لصعوبة البحث اللغوي العلمي في الكلام المتصل فقد اتخذت غالبية المدارس اللغوية التي ظهرت منذ الربع الثاني من القرن الحالي، الجملة وحدة لغوية مناسبة للدراسة ولم تتعداها.

إلا أن مفهوم الجملة ليس مفهوما واضحا كما قد يتبادر إلى الذهن، ولذلك فان تعريفها من أشق الأمور. دعونا ننظر إلى الحوار التالي:

- هل تذكر قريبي الذي حدثتك عنه أمس؟
- ماذا حدث له؟
- تزوج
- ممن؟
- من صديقة قديمة
- أليس هو الرجل نفسه الذي كان قد فسخ خطوبته قبل مدة؟
- بلى

ولنسأل أنفسنا الآن: هل نعتبر كلا من هذه الأقوال جملة أم نفرق بينها؟ وما هي المعايير التي سنستخدمها لتبرير أجابتنا مهما كانت هذه الإجابة؟ إن ظاهر القول يعطينا صورا مختلفة جدا عن طريقة تركيب كل قول منها، ومع ذلك فقد أدت كل منها معنى فهمه المخاطب ورد عليه بطريقة فهمها المتكلم الأصلي وهكذا، والنتيجة نموذج من الحوار المفهوم.

أما الصور المختلفة فهي:

- العبارة الأولى مؤلفة من شقين يبدو كل منهما شبيها بالآخر من حيث التركيب: في كل منهما فعل وفاعل ومفعول به. ولكن يبدو أن الشق الثاني: «الذي حدثتك عنه أمس» لا يستطيع الوقوف على قدميه منفردا بينما يستطيع ذلك الشق الأول «هل تذكر قريبي؟».
- العبارة الأخرى هي: «تزوج» وتتألف من فعل مفرد وفاعل
- العبارة الثالثة هي: «ممن؟» وتتألف من حرف جر واسم استفهام.
- العبارة الرابعة هي: «من صديقة قديمة» وتتألف من حرف جر واسم

مجرور وكلمة تصف هذا الاسم هي كلمة: «قديمة» (أي شبه جملة).

- العبارة الأخيرة هي: «بلى» وهي كلمة تفيد الموافقة على كلام سابق، وتظهر كشكل ثابت في كل سياق تقع فيه.

أما إذا اعتبرنا كلا من هذه التعابير «جملة» بناء على معيار معين، ولنفرض انه «المعنى» فان علينا عندئذ إلا نعتمد على الشكل الخارجي الظاهر لهذه العبارات فحسب. بل نلجأ إلى طرق أخرى لتبرير قرارنا الذي اتخذناه.

هذه إحدى الطرق التي يمكن استخدامها في الوصف والتحليل اللغويين؟، وهى تتلخص في أن نبدأ البحث بتعريف للجملة ثم نحاول أن نخضع دراستنا لهذا التعريف ونقيدها به. ولكن هذه ليست بالطريقة السليمة، لان للجملة عددا هائلا من التعاريف المختلفة التي طلع بها علماء اللغة من أيام أفلاطون حتى يومنا هذا، ومع ذلك فقد كانت تلك التعريفات قيوداً على البحث لا عوامل مساعدة له.

من الناحية الأخرى ففد شغل علماء اللغة الغربيون أنفسهم لسنوات طويلة في النصف الأول من القرن الحالي بمحاولة إيجاد وسائل ومناهج للكشف عن عناصر الجملة المختلفة وطريقة ترابطها وللكشف عن أنواع الجمل المختلفة، (وهو ما سنبحثه بشيء من التفصيل بعد قليل) فتاهوا عن الهدف الأساسي للبحث في خضم الأمور الإجرائية الشكلية التي وجدوا أنفسهم منغمسين فيها.[9]

ولذلك فقد اقتنع علماء اللغة المعاصرون بأن أفضل طريقة للبحث اللغوي العميق هو الأخذ بالمفهوم العام للجملة كأساس للدراسة وإعطاء هذا المفهوم تعريفا مبدئيا كأن نقول أن الجملة هي «شكل لغوي مستقل» أو أنها «تتألف من مسند ومسند إليه» مثلا نقوم بتعديل هذا المفهوم بناء على نتائج البحث والدراسة. أي أن يكون التعريف الفعلي للجملة هو نتيجة البحث كله، لا مقدمة له.

هذا هو منهج البحث المعاصر، ولكن سبقته-كما ذكرنا مناهج أخرى، مهدت له، وزودته بخبرة جيدة من النواحي الإجرائية لا زال أثرها واضحا حتى اليوم.

لقد أشرنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب إلى المدرسة الوصفية

التشكيلية التي كان بلومفيلد رائدها الأول في أمريكا، والتي سيطرت دراساتها ونتائج أبحاثها على الجو العام في أوروبا وكثير من أنحاء العالم الأخرى لسنوات طويلة بلغت ذروتها في الخمسينات من هذا القرن ولكنها لا زالت ذات أثر حتى وقتنا الحاضر. ولكي نستطيع أن نفهم ردة الفعل العنيفة ضد هذه المدرسة التي ظهرت في ربع القرن الماضي، لا بد أن نطلع على ما قدمته للدراسات اللغوية، مما كان يعد ثورة حقيقية في ذلك الوقت.

لقد ذكرنا في الفصل الثاني، وفي الجزء الرابع من ذلك الفصل على وجه التحديد، أمرين هامين يتعلقان بهذه المدرسة:[10].

أولهما: أنها كانت ردة فعل لجميع الدراسات السابقة التي تسمى بالدراسات التقليدية والتي ذكرنا أهم خصائصها في الفصل المذكور.

وثانيهما: أن أنصار هذه المدرسة كانوا متأثرين بنظريات علم النفس السلوكي التي كانت سائدة في ذلك الوقت. والتي كانت تقتصر دراساتها على ظاهر الأشياء فقط.

ولذلك فقد اصطبغت أعمال هذه المدرسة بأثر هذين العاملين.

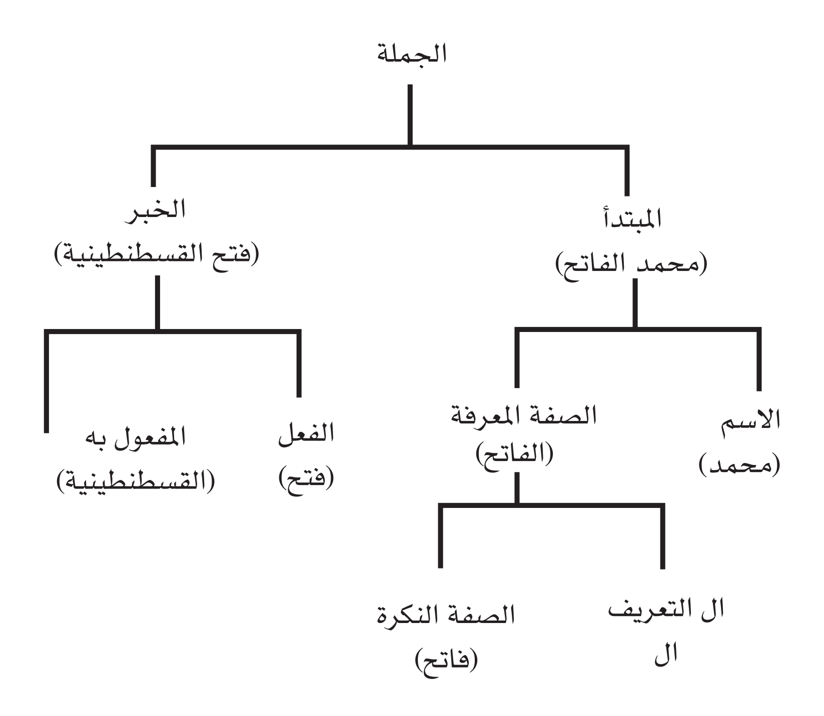
فما هو المنهج الذي اتخذته سبيلا لها، وأين وصل بها ذلك المنهج؟

لقد تميزت هذه المدرسة وخاصة في أول عهدها بخصائص ثلاث:

أولاها: الإصرار على تحليل كل من الأنظمة الثلاثة الظاهرة للغة: النظام الصوتي والنظام الصرفي والنظام النحوي، على حدة بمعزل عن النظام الآخر.

والخاصية الثانية: الإصرار على استبعاد المعنى استبعادا كليا من التحليل اللغوي، ليس لأنه لا أهمية له. بل لإيمان أصحاب هذه المدرسة بأن المعنى لا يمكن إخضاعه لنوع الدراسة الوصفية العلمية الدقيقة التي يمكن أن تخضع لها الأنظمة الظاهرة الأخرى-وسنعود لهذه النقطة قريبا.

أما الخاصية الثالثة: التي سنبحثها بشيء من التفصيل الآن فهي اتخاذ هذه المدرسة منهجا وأساليب محددة اكثر وضوحا ودقة مما كان معروفا حتى ذلك الوقت في الدراسات اللغوية التقليدية. أما المنهج الرئيسي الذي اتبعوه لتحليل الجمل فهو ما يدعى «بالتحليل إلى المكونات المباشرة» (Immediate Constituent Analysis) الذي يمكن بموجبه تحليل الجملة ليس على أساس أنها مؤلفة من كلمات مرصوفة بعضها بجانب بعض أفقيا،



هكذا:

محمد/الفاتح/فتح/القسطنطينية

بل على أساس أنها مؤلفة من طبقات عن مكونات الجملة بعضها أكبر من بعض إلى أن يتم تحليلها إلى عناصرها الأولية من الكلمات وحتى المورفيمات، وهكذا:

وقد كان هذا المنهج في تقطيع الجمل وسيلة لتحليلها إلى العناصر التي تتألف منها ومعرفة أي جزء من أجزاء الكلام يتبع كل عنصر، وذلك بموجب سلوكه اللغوي في الجملة، والاهتداء إلى علاقات الكلمات بعضها ببعض. فنحن عندما نقوم بالتقطيع الأول لهذه الجملة إلى الجزأين الكبيرين المباشرين (محمد الفاتح) و (فتح القسطنطينية)، ونجري نفس العملية على

جمل كثيرة أخرى، نستنتج أن نموذجا واحدا على الأقل من نماذج الجملة العربية يتألف من هذين الجزأين اللذين يمكن أن نسميهما ما شئنا: «مبتدأ وخبرا» أو «مسندا ومسندا إليه» أو خلافهما. فإذا أردنا معرفة العناصر التي يمكن أن يتألف منها المبتدأ استعملنا نفس الأسلوب في تقطيعه في عدد من التراكيب المشابهة في عدد آخر من الجمل، وصلنا إلى النتيجة بأنه يتألف بشكل رئيسي من كلمة مثل «محمد» في جملتنا الحالية، يمكن أن نسميها «اسما» وبأن هذا الاسم يمكن أن يوصف بعناصر أو تراكيب مختلفة يمكن الاهتداء إليها وتصنيفها، وهي في جملتنا الحالية كلمة «الفاتح» التي يمكن أن ندعوها صفة أو نعتا أو ما شئنا من الأسماء المناسبة. وباستعمال نفس الطريقة يمكننا أن نعرف أن الخبر يتألف (في إحدى نماذج الجملة باللغة العربية وفي جميع نماذج الجملة باللغة الإنكليزية) من فعل هو «فتح» في الجملة الحالية، وربما عنصر آخر شبيه بالعنصر الأساسي في المبتدأ هو «القسطنطينية» في هذه الجملة، وهو ما أطلقنا عليه تعبير الاسم. كما أن هذا التحليل يبين لنا العلاقات التي تقوم بين كل من الأجزاء الكبيرة ثم الأصغر منها ثم الصغرى بعضها ببعض-وان لم يهتم أنصار هذه المدرسة بتسمية أو تحديد طبيعة تلك العلاقات، كما سنذكر بعد قليل.

لقد استخدم هذا المنهج ليس لتحديد وتصنيف أجزاء الكلام فحسب، بل ولتصنيف أنواع النماذج الجملية الأساسية الموجودة في اللغة الإنكليزية وإذا طبقنا أسلوبهم في التحليل اللغوي على اللغة العربية مثلا: خرجنا، على طريقتهم، ببعض نماذج الجملة المتوفرة في اللغة العربية والمذكورة فيما يلي:

النموذج الأول: اسم معرفة + اسم نكرة

علي طبيب

النموذج الثاني: اسم معرفة + صفة نكرة

زيد مريض

النموذج الثالث: اسم معرفة + ظرف (أو شبه جملة بمعنى الظرف)

محمد هناك

أو سمير تحت الشجرة

أو سمير في البيت

النموذج الرابع: اسم معرفة + فعل لازم
علي سافر
النموذج الخامس: ظرف (أو شبه جملة بمعناه) + اسم نكرة
في البيت رجل
النموذج السادس: اسم معرفة + فعل متعد لمفعول
أحمد غادر البلدة
النموذج السابع: اسم معرفة + فعل متعد لمفعولين
محمد أعطاني كتابا

وهذه جميعا نماذج لما نسميها بالجملة الاسمية، ويمكننا أن نفعل الشيء نفسه بالنسبة للجملة الفعلية مثل:

النموذج الثامن: فعل + اسم (معرفة أو نكرة)
سافر علي (رجل)

وهلم جرا، إلى أن نتوصل إلى جميع النماذج الأساسية للجملة في اللغة العربية. والمقصود بالجملة الأساسية الجملة المجردة من الزوائد كالصفات وما في حكمها والظروف التي تتبع الفعل وما في حكمها. لان باستطاعتنا أن نطيل كل نموذج من تلك النماذج من طرفيه: طرف المبتدأ وطرف الخبر، إطالة كبيرة، بل ونظريا إلى ما لا نهاية كأن نقول:

المبتدأ: الرجل الذي يقف على ناصية الشارع رافعا يده اليمنى طالبا من السيارة التي تسير على يسار الشارع أن تقف لتوصله إلى مكان عمله الخ.

الخبر: يفعل ذلك كل صباح منذ أن تعرفت به في بيتكم الجديد الواقع في الضاحية الشرقية من المدينة منذ عامين. الخ.

وقد توصلوا بمنهجهم هذا إلى حصر جميع الجمل في اللغة الإنكليزية مثلا تحت نماذج تسعة أو عشرة أساسية تنبثق عنها إضافات وتعديلات كثيرة تصل بها إلى مئات الأشكال. وعهدنا ليس ببعيد بسلاسل لتعليم اللغة الإنكليزية يطلق عليها عنوان «English 900» أو «English 901» إشارة إلى النماذج التسعة الأساسية وأشكالها المختلفة التي تصل إلى تسعمائة أو تزيد قليلا.

لقد أشرنا قبل قليل إشارة عابرة إلى أن أنصار هذه المدرسة اللغوية لم

يهتموا كثيرا بتحديد العلاقات بين عناصر الجملة وتراكيبها الفرعية. وإحقاقا للحق نقول بأن المتأخرين منهم من أمثال بايك[11] فطنوا إلى هذه النقطة وأدخلوا عنصر الوظيفة اللغوية في منهجهم التحليلي وجمعوا ما بين جزء الكلام ووظيفته في الجملة، بأن أخذوا يقسمون الجملة إلى إطارات كإطار المبتدأ الذي يمكن أن يملأ أما بأحد أجزاء الكلام كالاسم أو الضمير أو الفعل (ومثالهم على الفعل جملة شبيهة بهذه الجملة العربية: أن تصوموا خير لكم): أو بجملة فرعية (clause) مثل جملة:«أن محمدا رجل أمين أمر معروف للجميع». وفعلوا الشيء نفسه بالنسبة لإطار الخبر وهكذا.

وعلى الرغم من جميع التعديلات التي أدخلت على منهج هذه المدرسة اللغوية فيما بعد، فان علماء اللغة المعاصرين مقتنعون بعدم جدوى هذا المنهج في التحليل اللغوي لأسباب كثيرة يمكن إجمالها فيما يلي:

أولا: انه لم يكن بالإمكان تطبيق هذا المنهج في التحليل على جميع أنواع الجمل أو الأجزاء الرئيسية من تلك الجمل. فليس من الممكن مثلا على المكان الذي نقطع فيه مبتدأ مثل: الغلام النشيط المجد اللطيف هذا .....

فإذا أجرينا القطع الأول ما بين كلمتي الغلام وما بعدها، وهو مكان معقول للقطع فأين يجري القطع التالي والتالي الخ ؟ لقد دفعت هذه المشكلة العلماء المعاصرين إلى القول بأن هذا الأسلوب لا يبدو أسلوبا صحيحا لفهم التركيب النحوي للجملة، وانه لا يعدو أن يكون منهجا لا غير، منهجا بدائيا للتصنيف ليس إلا، وهذا يقودنا للسبب الثاني.

أما السبب الثاني فهو أن هذا المنهج غير ملائم وغير كاف لفهم التراكيب اللغوية فماذا نعني بهذا ؟ المقصود أن هذا المنهج غير قادر على إبراز وتفسير عدد كبير من العلاقات اللغوية ومثال ذلك: العلاقات بين الجمل. فإذا أخذنا جملتين مثلا الفعل في إحداهما مبني للمعلوم بينما في الجملة الأخرى الفعل مبني للمجهول، مثل:

قتلت الحرب آلاف البشر

و: قتل آلاف البشر في الحرب

أو أخذنا جملة خبرية وأخرى استفهامية مثل:

ذهب الرجل إلى السوق

و: إلى أين ذهب الرجل ؟

فان أقصى ما يستطيع هذا المنهج فعله أن يحلل كلا من الجملتين الأولين أو اللاحقتين على حدة وبنفس الطريقة السابقة دون أن يشير ولو إشارة عابرة إلى أية علاقة تربط كلا من الزوجين. ومن الواضح أن منهجا من هذا النوع لا يستطيع أن يزودنا بالقواعد اللازمة لتحويل جملتين مترابطتين واحدة إلى الأخرى ليس بالمنهج المفيد أو المقنع. إن اللغة بأسرها علاقات وترابطات مختلفة، ومنهج من هذا النوع يبدو ساذجا إذا طمع أصحابه في أن يكون بمقدوره أن يعطي التفسيرات المناسبة لكل من تلك العلاقات.

لقد ذكرنا في بداية هذا البحث في المدرسة الوصفية التشكيلية إن إحدى خصائصها أنها استبعدت المعاني استبعادا كليا من مجال دراستها، وركزت اهتمامها كله على الشكل الخارجي للغة. ولم يكن سبب هذا فقط ما أشرنا إليه من صعوبة إخضاع المعاني للتحليل العلمي الصارم على اعتبار أن الفكر في رأي علماء النفس السلوكيين ليس إلا كلاما غير مسموع، أي أنه من حيث المبدأ أحد أشكال السلوك الظاهري. وعلى هذا فلم يكن المعنى الذي يعبر عنه تركيب لغوي، في رأي اتباع هذه المدرسة السيكولوجية، إلا «المقام الذي يقال فيه الكلام والاستجابة التي يستدعيها من المستمع» مما يجعل تحليله تحليلا علميا أمرا بالغ الصعوبة.[12] ولكن بالإضافة إلى ذلك، فقد كان استبعاد المعنى أيضا ردة فعل للقواعد التقليدية التي استخدمته استخداما سيئا في التحليل اللغوي.

إن الكلام عن التحليل اللغوي من غير إشارة إلى المعنى هو كمن يصف طريقة صنع السفن من غير إشارة إلى البحر-بحسب تعبير أحد اللغويين المعاصرين-[13]. لقد أشرنا سابقا إلى ضرورة إدخال المعاني ضمن الدراسات اللغوية بل كجزء أساسي منها (بشرط إخضاعها للمنهج العلمي الصارم) وذلك لشرح العلاقة بين الجمل التي تحمل نفس المعنى بينما تكون تراكيبها الخارجية مختلفة: كالمعلوم والمجهول والجمل الخبرية والاستفهامية والمنفية الخ. وهنا نضيف أن إدخال دراسة المعاني ضرورية أيضا عند محاولة تحليل بعض الجمل الغامضة نحو:

النساء والرجال المسنون غير قادرين على الأعمال الشاقة.

فنحن لا نستطيع عند محاولة فهم هذه الجملة أن نحكم فيما إذا كانت

صفة «المسنون» نصف الرجال والنساء معا، أم أنها مقصورة على الرجال فقط. وبهذا يكون للجملة معنيان مختلفان.

أو كالجملة التالية:

هذه إحدى نكات مطاعم لندن القديمة

فيمكن أن تكون كلمة القديمة صفة لإحدى النكات أو للمطاعم، وهذا أيضا يعطينا معنيين مختلفين لنفس الجملة. أو كالجملة التالية:

شهادة الزور أضرت بك.

فليس من الواضح من تركيب هذه الجملة فيما إذا كان المخاطب هو الذي أدلى بشهادة الزور أو أن شخصا آخر هو الذي فعل ذلك. وأمثال هذه الجملة في اللغات كثيرة ولا بد لأية نظرية لغوية جيدة أن تعالج أمورا من هذا النوع والنوع الذي سبقه. ولكن منهج المدرسة الوصفية التشكيلية لم يكن قادرا على ذلك، كما أنه في آخر الأمر، لم يبد أكثر من مجرد منهج.

انه منهج أثبت جدارته وفائدته في الكشف عن قواعد بعض اللغات التي لم تكن مكتوبة وليس لها قواعد معروفة كلغات الهنود الحمر في أمريكا ولكنه ليس منهجا قادرا على الكشف عن قواعد لغات معروفة ومكتوبة جرت عليها كثير من الدراسات السابقة كاللغات الحديثة مثلا، كما أنه بالتأكيد ليس نظرية لغوية متكاملة.

لقد دعا هذا الأمر علماء اللغة إلى التخلي تدريجيا ثم نهائيا عن هذا المنهج واستبداله بنظرية أكثر عمقا وشمولا. ولم يكن من قام بأعمال هذه المدرسة اللغوية إلا واحدا من أبنائها هو تشومسكي (Chomsky) الذي ذكرناه على استعجال في الفصل الثاني من هذا الكتاب والذي سنعرض لنظريته هو وأنصاره بشيء من التفصيل الآن.

لقد كان تشومسكي أحد تلامذة هاريس (Harris) الذي كان قطبا من أقطاب المدرسة الوصفية التشكيلية ومؤلف افضل كتاب يعرض لمنهج تلك المدرسة في تحليل اللغات.[14] ولذلك فقد كان التلميذ في أول حياته أحد أتباع تلك المدرسة تمرس في منهجها حتى أتقنه اتقانا تاما وكانت أول كتاباته لا تخرج عن الخط الذي اتبعه أنصارها. ولكن ما أن أتى عام 1957 الذي طلع على العالم فيه بكتابه المسمى التراكيب النحوية (Syntactic Structures) حتى كان قد بدأ يبتعد ابتعادا واضحا عن ذلك الخط، وانفصمت

عرى العلاقة بينه وبين تلك المدرسة عندما خرج عام 1965 بكتابه التاريخي الآخر اوجه النظرية النحوية (Aspects of the Theory of Syntax) ومن قبل أن نعرض لهذه النظرية التي شغلت اللغويين منذ بروزها حتى الآن لا بد من الإشارة إلى أن من المحتمل أن تشومسكي ما كان ليتوصل إلى تلك النظرية لو لم يتتلمذ على يد هاريس ولو لم يتمرس تمرسا كاملا بالمنهج العلمي الذي اتخذه أعضاء تلك المدرسة اللغوية وسيلة لعملها.

كما أن من المهم أن نذكر أيضا أن نظرية تشومسكي قد تطورت تطورا كبيرا ليس على يديه فحسب بل وعلى أيدي عدد آخر من تلاميذه ومساعديه، فانبثقت عنها فروع متعددة شغلت معظم علماء اللغة في العالم كله حتى اليوم وأصبح من العسير جدا حتى على اللغوي المتخصص متابعة آخر التطورات التي تطرأ على الفروع المتعددة. ولذلك فلن نستطيع هنا-حتى لو أردنا-أن نأتي على تفاصيل نظرية واحدة ناهيك عن الفروع المتعددة. وجل ما يمكننا تقديمه هو فكرة عامة عن الأسس التي تقوم عليها النظرية الأساسية وأوجه الاختلاف الرئيسية بينها وبين النظريات السابقة وبخاصة أعمال المدرسة الوصفية التشكيلية التي أتينا على ذكرها بإيجاز في الصفحات القليلة السابقة، ثم التطورات الهامة التي طرأت على النظرية في السنوات الأخيرة.

لقد عرضنا في الفصل الأول بشيء من التفصيل النقد الذي وجهه تشومسكي إلى إنجازات المدرسة اللغوية الوصفية التشكيلية والى الأسس السيكولوجية التي بني عليها منهج تلك المدرسة والذي بين فيه عدم كفاية ذلك المنهج لتفسير السلوك اللغوي وأن أنصار تلك المدرسة لم يقدموا بالفعل نظرية لغوية بالمعنى الصحيح كما بينا أيضا في عدة مناسبات سابقة وجهة نظر تشومسكي القائلة بأن أية نظرية متكاملة للغة لا يمكن أن تبنى على الكلام الفعلي مهما بلغ حجم العينة من ذلك الكلام الذي تجرى عليه الدراسة وان هدف أية نظرية لغوية يجب أن يكون التوصل إلى القواعد التي تمكن أصحاب لغة معينة من توليد أو خلق جميع الجمل الصحيحة في تلك اللغة وعلى عدم خلق أية جمل غير صحيحة (إلا إذا حصل خطأ في تطبيق تلك القواعد).

كما تطرقنا بكثير من التفصيل في الفصل الثاني إلى نظرية تشومسكي

بالنسبة للقدرة الفطرية الكامنة (innate competence) التي تخلق مع الطفل عند ولادته وذكرنا التجارب العديدة التي أجريت ولازالت تجرى لإثبات أو دحض ما أتت به تلك النظرية.

وسنحاول هنا أن نعطي فكرة سريعة، لا بد أن تكون سطحية بعض الشيء، عن نظريته اللغوية التي بدأها منذ عام والتي تأثر بها جميع العلماء والدارسين حتى وقتنا هذا وهنا لا بد من توضيح بعض المصطلحات الفنية التي استعملها تشومسكي بمعان مختلفة عما هو معهود عنها.

فهو يعتبر أن موقع النحو (Syntax) من اللغة هو بمثابة القلب من جسم الإنسان أما كلمة «القواعد» (grammar) فهي عنده تشمل النحو بالإضافة إلى الصرف كما تشمل النظام الصوتي ونظام المعاني أيضا. فهي بهذا اصطلاح شامل جدا لجميع القواعد التي لها علاقة بجميع وجوه اللغة المختلفة.

وربما كان أهم ما قدمه تشومسكي في نظريته اللغوية هو الدقة والوضوح المتناهيان اللذان استعملهما في القواعد التي وضعها، فقد حاول أن يجمل تلك القواعد مماثلة من حيث الدقة والوضوح للقوانين الرياضية التي كان متأثرا بها إلى حد كبير.

وربما كان أفضل ما يبدأ به البحث في نظرية تشومسكي اللغوية (التي أصبحت تدعى بالقواعد التحويلية التوليدية. (Generative Transformational Grammar) هو أن نبحث عن الهدف الذي وضعه هو لعلم قواعد اللغة. فقد عرف هو نفسه في وقت مبكر «قواعد اللغة» بأنها جهاز أو وسيلة لتوليد جميع الجمل الصحيحة لغة معينة ولا جمل غير تلك الجمل الصحيحة-أي المتمشية مع القواعد[15] وما يلفت النظر في هذا التعريف أمور ثلاثة:

الأمر الأول: أن هذا الاتجاه في البحث موجه بشكل رئيسي للجملة على اعتبار أنها الوحدة اللغوية الأساسية، أما أشباه الجمل الفرعية الأخرى، (Phrases and clauses) فهي تبحث ضمن نطاق مفهوم الجملة.

والأمر الثاني: هو الإصرار على أن القواعد يجب أن تكون قادرة على توليد أو خلق الجمل الصحيحة فقط. وهنا لا بد أن نميز بين هذا النوع من القواعد والقواعد التقليدية لان الشبه بين الاثنين يبدو كبيرا إذا نظرنا إليهما نظرة سطحية ولكن الواقع أن الفرق شاسع. فالقواعد التقليدية

كانت معيارية بمعنى أنها تفرض الصواب والخطأ بالنسبة للكلام الفعلي الذي يستعمله الناس ولكن قواعد النظرية الجديدة لا هي بالمعيارية بهذا المفهوم ولا هي وصفا للكلام الفعلي، بل هي قواعد للجملة على أساس أنها شكل تجريدي نظري، ولذلك فلا علاقة لها بالصواب والخطأ بالنسبة للاستعمال الفعلي للغة.

كما أن علينا أن نفهم المعنى الآخر الذي يقصده تشومسكي من كلمة (Generate) أي يود أو يخلق، ومن الصفة (generative) التي توصف بها نظريته اللغوية بالإضافة إلى المعنى المفهوم منها حتى الآن مما سبق من الكلام عنها.

فهو يقصد من هذه العبارة معنى الدقة والوضوح التامين اللتين تعبر عنهما الكلمة في العلوم الرياضية التي تأثر بها تشومسكي تأثرا كبيرا. ولكي يتضح هذا المعنى، نأخذ مثلا من العلوم الرياضية. فلو نظرنا إلى هذه المعادلة الجبرية البسيطة:

3 س + 4 ص-ع = ؟

وأردنا أن نستبدل الرموز بأعداد صحيحة لإيجاد قيمتها، لوجدنا أن باستطاعتنا توليد عدد من القيم لا نهاية لها. فإذا كانت قيمة س = 1، ص = 2، ع = 3 مثلا كانت القيمة الناتجة = + 8. فإذا أصبحت س = 2، ص = 3، ع = 4 مثلا كانت القيمة الناتجة =+ 14، أما إذا كانت قيمة س = 3، ص= 4، ع = 30 مثلا كان الحاصل =-5 وهكذا. وبهذا يمكننا القول أن + 8، + 14 , -5، هي بعض من القيم التي يمكن أن تولدها هذه المعادلة، تلك القيم التي يمكن أن تمتد إلى ما لا نهاية. وهذه القدرة على توليد القيم هي التي كانت في ذهن تشومسكي عند تفكيره بنظريته اللغوية التي تحاول أن تفسر القدرة اللغوية على التوليد والخلق، أي أنها تفسر ما دعاه (competence). أما إذا قام إنسان بحل المعادلة الجبرية المذكورة أنفا، وحصل على الجواب الخاطئ فذلك مثل من أمثلة التصرف الفردي، وهو ما يمكن أن يحصل بالنسبة للكلام الفعلي.(Performance)[16]

أما الأمر الثالث: فيتعلق بالتعبير جميع الجمل الصحيحة الذي ذكر في التعريف السابق. وهذا يعني أن القواعد يجب أن تكون قادرة على توليد جميع الجمل الممكنة في تلك اللغة. وبما أن من المفروض أن عدد الجمل

التي يمكن توليدها عدد غير محدود أي لا حصر له نظريا، ولكن عدد القواعد في أية لغة محدود جدا، فلا بد إذن من وجود نوع من القواعد المتكررة (Recursive Rules) أي الأمر يمكن تطبيقها مرة بعد أخرى بحيث يمكن إحالة الجملة نظريا إلى ما لا نهاية ولهذا السبب يمكن تكوين جمل جديدة في كل مرة، بحيث يصبح عدد الجمل التي يمكن توليدها في كل لغة غير محدود من الناحية النظرية. ومن تلك القواعد مثلا القاعدة المتعلقة بالصفات الأمر يمكن أن تتبع الاسم. فان عدد هذه الصفات لا نهاية له، ولا يقف عند حد إلا بسبب من ظروف واقعية تمنع ذلك عمليا عند القيام بعملية الكلام. ومثال ذلك قولنا: قل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الحي القيوم الرحمن الرحيم الجبار المتكبر المهيمن السلام الخ-إلى أن ننتهي من ذكر جميع الصفات التي يمكن أن يتصف بها المولى عز وجل.[17]

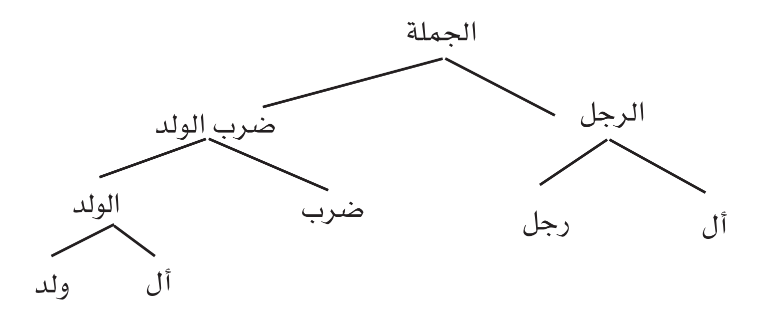
ومن أمثلة هذه القواعد أيضا: القاعدة التي تسمح بتكوين الجمل الفرعية داخل الجملة الرئيسية كالجمل التي يطلق عليها اسم «الجمل الموصولة» التي تظهر في المثال التالي:

هذا هو الرجل الذي يسكن البيت الذي اشتراه من جاره الذي تركه إلى البيت الآخر الذي يقوم على قمة التلة التي تقوم على الطرف الشرقي من المدينة التي تقع شمالي القصر الكبير الذي يسكنه بعض أفراد الأسرة المالكة الذين يقضون فيه فصل الصيف-الخ.

لقد أشرنا سابقا أيضا إلى أن منهج المدرسة اللغوية الوصفية التشكيلية قد استبعد المعاني من التحليل اللغوي وأن هذا كان أحد العيوب الرئيسية التي أخذت على ذلك المنهج. وعلى الرغم من أن نظرية تشومسكي في أوائل عهده أعطت دراسة المعنى مكانا ثانويا، إلا أنها تطورت على يديه وعلى يدي زملائه وتلامذته بحيث أصبح المعنى جزءا رئيسيا من تلك النظرية، بل أن بعض تلامذته حاولوا فعلا التقدم بنظرية كاملة عن نظام المعاني في اللغة وربطوه بالنظرية الأساسية للقواعد التحويلية التي بدأها هو.[18]

وقد وردت أول إشارة إلى حتمية استعمال المعاني في التحليل اللغوي في أول مجموعة من القواعد التي اقترحتها هذه النظرية وهي ما سميت بقواعد التحليل النحوي الأولى (Phrase Structure Rules) وهذه أولى الخطوات

أو الطبقات للقواعد الكاملة للغة وهذه القواعد لا تختلف كثيرا عن طريقة تحليل المدرسة السابقة للجملة إلا من حيث أنها تقعد بشكل دقيق طريقة التحليل. فبدلا من أن نحلل «الرجل ضرب الولد» بالشكل التالي فقط:



كما رأينا سابقا، فان النظرية الجديدة تنظم هذا التحليل على شكل القواعد التالية:

القاعدة رقم 1: الجملة مبتدأ + خبر

القاعدة رقم 2: المبتدأ: أل + اسم

القاعدة رقم 3: الخبر فعل + اسم

القاعدة رقم 4: أل أل التعريف

المفردات:

الاسم رجل، ولد

الفعل ضرب

وميزة الطريقة الجديدة هي أنها ترتب أو تنظم الخطوات التحليلية وتربطها معا باعتماد كل خطوة منها على خطوة سابقة لها، كما أنها تعطينا صورة واضحة عن التركيب الهرمي «الأفقي» للجملة بالإضافة إلى هذا فان باستطاعتنا بواسطة هذه المجموعة من القواعد البسيطة وبواسطة عدد من الكلمات لا يزيد عن الخمس أن نركب لا جملة واحدة فقط بل جملتين اثنتين هما:

1- الولد ضرب الرجل   2- الرجل ضرب الولد

وبهذا نطلع على صفة هامة من صفات القواعد اللغوية وهي القدرة على الخلق أو التوليد. فإننا إذا أضفنا فعلا آخر أو فعلين واسما آخر أو اسمين نضاعف أعداد الجمل التي يمكن أن نركبها أو نولدها باستعمال هذه القاعدة. فإذا وصل عدد الأسماء إلى ألف وعدد الأفعال، إلى ألف أمكننا أن نولد بليونا من الجمل باستعمال هذه القاعدة البسيطة للغاية.

كما أننا عن طريق هذه القاعدة نتوصل إلى البنية الداخلة أو العميقة للجملة التي تتألف من العناصر التالية:

أل + اسم + فعل + أل + اسم

كما أن القاعدة تفسر معرفتنا كأصحاب للغة بأن الاسم الذي نبدأ به الكلام هو الفاعل (الحقيقي) في هذه الجملة والثاني هو الذي يقع عليه الفعل أي المفعول به)-وهذه العناصر بحسب هذه النظرية هي التي تؤلف البنية الداخلية أو العميقة للجملة (وهي التي تحمل معاني المفردات والعلاقات بين المفردات أيضا). وهذا ما يسمى (deep structure) أي البنية العميقة وهي فكرة وان لم تكن جديدة تماما، إلا أنه لم يسبق أن قام أحد قبل تشومسكي بتوضيحها ووضع القواعد الكاملة لها.

إذا قواعد من هذا النوع تحلل أية جملة إلى عواملها الرئيسية في البنية الداخلية أو العميقة. فهل هنالك قواعد تساعدنا على تشكيل جمل على السطح أي جمل فعلية ظاهرية تحمل نفس المعنى ولكنها تختلف من حيث التركيب الخارجي؟ مثلا لو أردنا أن نطلق الجملة السابقة في صيغة المجهول بدلا من صيغة المعلوم أو في صيغة الاستفهام بدلا من صيغة الأخبار ماذا نفعل؟ نضع لها قواعد إضافية من نفس نوع القواعد السابقة؟

جواب هذه المدرسة اللغوية أننا يجب أن نفترض ونجد مجموعة أخرى من القواعد نستطيع بواسطتها تحويل المعلوم للمجهول أو الأخبار للاستفهام أو النفي مستخدمين نفس العناصر الأولية المتوفرة لدينا في البنية الداخلية، مادام المعنى الأساسي واحدا. وقد توصلوا فعلا إلى مجموعة من القواعد التي تؤدي هذه المهمة و سموها بالقواعد التحويلية. (Transformational Rules) واعتبروا هذه المجموعة من القواعد هي المجموعة الثانية والتالية من حيث ترتيب التطبيق للقواعد السابقة.

إن ما سميناها حتى الآن بالبنية الداخلية صورناها على شكل غير

دقيق، لان العناصر التي تتكون منها هذه البنية، في الواقع تبدو بشكل أكثر تفصيلا وتجريدا ولذلك فسنعطي مثلا آخر على ذلك. فجملة مثل:

الأولاد يلعبون الكرة

إذا طبقت عليها المجموعة الأولى من القواعد نخرج بالعناصر التالية في البنية الداخلية:

(أل + ولد + مذكر + جمع +) + (لعب + مضارع + مذكر + جمع + غائب) + أل + كرة + مفرد).

ولكي تتحول هذه العناصر إلى جملة فعلية تحمل الأصوات والأشكال الصرفية المعروفة في اللغة، لا بد إذا من مجموعة ثالثة من القواعد الصوتية التي تحولها بالشكل التالي:

أل + ولد + مذكر + جمع الأولاد

لعب + مضارع + مذكر + جمع + غائب يلعبون أل + كرة + مفرد الكرة

فتصبح الجملة النهائية (بعد تطبيق قواعد نحوية معينة) الأولاد يلعبون الكرة.

ولإيجاز ما سبق الكلام فيه، نورد فيما يلي شكلا يبين المنهج والمجاميع الثلاثة من القواعد التي اقترحت بشكل أولي لتفسير الظواهر اللغوية.

العناصر الأولى للجملة

القواعد النحوية الأولية

↓

القواعد التحويلية

↓

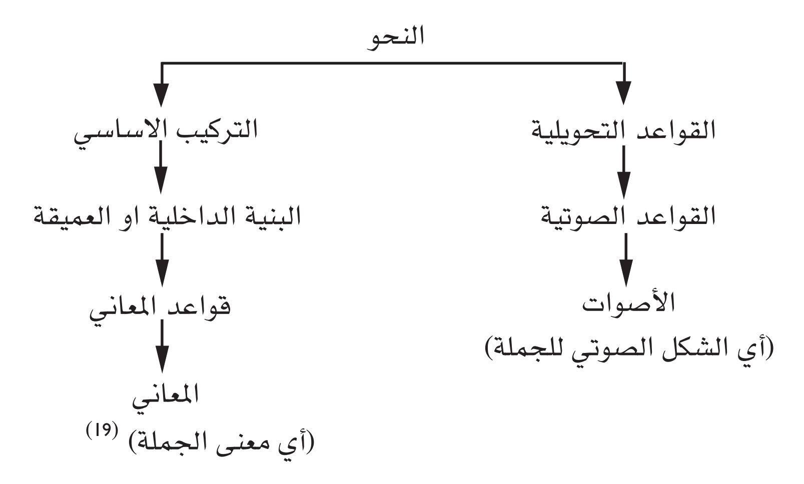
القواعد الصرفية الصوتية

↓

الشكل الصوتي النهائي للجملة

ولكن هذه النظرية سرعان ما عدلت بحيث أدخل عنصر المعنى بشكل أعمق في قواعد اللغة فأصبحت طريقة. التحليل حسبما هو مبين في

الشكل التالي:



وهكذا فان العلاقة بين البنية الداخلية للجملة والمعنى من جهة والشكل الصوتي من جهة أخرى أصبحت اكثر وضوحا، وان كان علماء اللغة قد لاقوا مشقة كبيرة في ربط المعاني بشكل علمي واضح بالتحليل النحوي والصوتي للغة، إلا أن الصورة أصبحت واضحة من حيث وظيفة كل نظام من الأنظمة اللغوية المختلفة:

فالنظام النحوي يزودنا بالمعلومات عن تركيب الجملة الأساسي والعميق والقواعد التحويلية تزودنا بالمعلومات عن الشكل الخارجي أو البنية الخارجية للجملة، أما النظام الصوتي فانه يزودنا بالمعلومات عن الطريقة التي تنطق بها الجملة بينما يدلنا نظام المعاني على معنى تلك الجملة. وهكذا أصبحت «قواعد اللغة» تعني: العلاقة بين الأصوات والمعاني. وقد كان أهم ما قدمته تلك المدرسة اللغوية هو محاولة وضع هذا المفهوم القديم في صورة علمية دقيقة تكاد تبلغ مبلغ الرياضيات من حيث الدقة والوضوح.

وحالما شعر علماء اللغة مختلفو المشارب والاتجاهات بأهمية المعنى في أية نظرية لغوية بدءوا يوجهون اهتمامهم إليه وحاولوا الخوض فيه بشكل علمي متحررين من الانطباعات السابقة التي كانت سائدة عن هذا النوع من الدراسة حتى تلك الوقت، ومتأثرين تأثرا كبيرا بالمنهج العلمي الرياضي الدقيق الذي بدأه تشومسكي. فقام بعض زملائه مثل كاتس وفودر (Katz

andFodor) بإكمال هذا الجانب من النظرية وربطه بالنظرية الأساسية[20] ولكن عملهم لم يكن مقنعا للكثيرين مما حدا بغيرهم لتقديم نظريات جديدة نذكر واحدة أو اثنتين منها باقتضاب شديد. فقد قال مكولي (McCawley) مثلا[21] بإمكانية ربط المعنى مباشرة بالبنية النحوية الأساسية للجملة دون حاجة إلى افتراض البنية الداخلية أو العميقة التي جعلها تشومسكي وتلاميذه خطوة متوسطة بين التركيب والمعنى، وبإمكانية بحث المشاكل المتعلقة بالمعنى (كغموض بعض الجمل، والمعاني المختلفة لجملتين تركيبهما الخارجي واحد-كما أشرنا إلى ذلك في حينه) التي افترض وجود بنية عميقة لتفسيرها، داخل ذلك الجزء من الجملة الذي يتعلق بالمعنى ودراساته مباشرة دون وسيط. وقد امتدت نظرية مكولي فشملت الوسيط الآخر الذي اقترحته مدارس سابقة وهو الفونيم (الذي بحثناه بشيء من التفصيل في بداية هذا الفصل) وبوساطة القواعد الخاصة لهذا النظام الصوتي. أي أن مكولي قام باختصار خطوات التحليل اللغوي وبربط التركيب النحوي للجملة مباشرة بالمعنى من جهة وبأصوات اللغة من جهة أخرى.

وقد كان للمقالتين الاثنتين اللتين شرح فيهما مكولي أفكاره، والمشار إليهما من قبل، تأثير كبير على الدراسات اللغوية حتى يومنا هذا فقد بدأ العلماء يعيدون النظر في نظرية تشومسكي من أساسها ويحاولون استبدالها بنظريات جديدة اقل تعقيدا وأقرب إلى الحس اللغوي البديهي. ولعل أهم هذه النظريات الجديدة هي تلك التي أتى بها العالم فلمور (Charles Fillmore) كتعديل جذري لنظرية تشومسكي والتي تستحق اكثر من إشارة عابرة، لما كان لها من الأثر على التفكير اللغوي المعاصر.[22]

لقد دعا فلمور نظريته «قواعد الحالة (الإعرابية)» (Case Grammar) وهو لا يعني بالحالة (الإعرابية) المفهوم القديم للتعبير الذي يشير إلى ما يطرأ على الاسم من التغيرات الصرفية عند وقوعه فاعلا أو مفعولا به، بل هو يقصد مجموعة المفاهيم التي تمكن الإنسان من إصدار بعض الأحكام المختلفة عما يدور حوله من أحداث كمعرفة من يقوم بعمل ما، ومن يقع عليه حدث ما، وما الذي حدث ومتى وقع ذلك الحدث وأين الخ. ويعطى، فلمور الأمثلة التالية على جمل يشعر الإنسان أنها متشابهة في المعنى رغم اختلاف تركيبها الخارجي:

1- فتح علي الباب.
2- فتح المفتاح الباب.
3- انفتح الباب على يدي علي.
4- فتح علي الباب بالمفتاح.
5- استخدم علي المفتاح لفتح الباب.

أما في الجملة الأولى فان الفاعل الظاهري هو علي ولكنه المفتاح في المجملة الثانية والباب في الجملة الثالثة، إلا أن العلاقة الحقيقية لكل من هذه الأسماء الثلاثة بالفعل تختلف من جملة إلى الأخرى ففي الجملة الأولى نرى أن عليا هو الفاعل الحقيقي، وفي الجملة الثانية «المفتاح» هو الأداة التي فتح بها الباب أما في الجملة الثالثة فان الباب هو الذي وقع عليه الحدث بالفعل. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل أثرت الأشكال الخارجية المختلفة للجمل الثلاثة على العلاقات المعنوية بين الأسماء الثلاثة المختلفة وبين الفعل المستعمل في كل منها؟ ما دام ذلك لم يحصل، فان الأمر الذي يبدو مهما وجديرا بالدراسة هو هذه العلاقات المعنوية الأساسية في الجمل، ولذلك يجب أن تصبح هذه العلاقات هي النقطة المركزية التي يجب أن يعالجها التحليل اللغوي ويعمل على تفسيرها. ويعتقد فيلمور بأن هذه العلاقات العميقة تكون نظاما عاما ينطبق على جميع اللغات بغض النظر عما إذا كان الفاعل الشكلي في إحدى اللغات كالإنكليزية مثلا يسبق الفعل، بينما هو يتبع الفعل كما في اللغة العربية وغيرها من اللغات. وهذه النقطة نقطة خلاف رئيسية بين ما جاء به فلمور وبين النظريات الأخرى التي تفترض بنية عميقة لكل جملة كنظرية تشومسكي. ولكن نقطة الخلاف الأخرى هي أن هذه المفاهيم أو العلاقات التي يفترضها فلمور أعمق من تلك العلاقات التي أبرزها تشومسكي وتلاميذه فيما دعوه بالبنية العميقة للجملة بمعنى أنها علاقات معنوية لا نحوية. ولذلك فان الشكل العام لنظرية فلمور يضع المعاني (أي العلاقات المعنوية المشار إليها أعلاه في الدرجة الأولى من الأفضلية أي أنها تأتي أولا في التحليل اللغوي، ثم تتحول بوساطة قواعد نحوية وصرفية وتحويلية وصوتية إلى الشكل الخارجي الظاهر للجمل. وهكذا ترى أنه لم يمض قرن على الدراسات اللغوية الحديثة حتى أكمل الرقاص حركة كاملة من الطرف الواحد إلى الطرف الآخر

تماما، فبينما كان أنصار المدرسة الوصفية التشكيلية يبدءون تحليلهم من الصوت مرورا بالنظام الصرفي فالنحوي وصولا إلى المعاني، انقلبت الآية تماما وأصبح هذا التحليل يبدأ من المعنى مرورا بتلك الأنظمة إلى أن يصل إلى الأصوات الفعلية للجمل. وأصبحنا نرى كتبا لقواعد اللغة الإنكليزية مثلا مصنفة حسب المفاهيم أو المقولات المشتركة التي بإمكان البشر، جميع البشر على سطح الأرض، التعبير عنها عن طريق اللغة ثم حسب الوظائف المختلفة التي يمكن للأشكال اللغوية المختلفة التعبير عنها، ثم تأتي الأشكال اللغوية المختلفة التي يمكن أن تعبر عن تلك المفاهيم وتقوم بتلك الوظائف وأخيرا تأتي المظاهر الصوتية المتعلقة بطريقة نطق تلك الأشكال اللغوية.[23]

فمن أمثلة المفاهيم العامة:

ا- الزمان النقطة الزمنية، المدة الزمنية، العلاقات الزمنية، التكرار، التتابع، الخ.

2- العدد والكمية: العدد المحدود وغير المحدود، الأعداد، العمليات العددية الخ.

3- المكان: الأبعاد، المكان الثابت، الحركة الخ.

4- العلاقات المعنوية: العلاقات المنطقية، الفاعل، المفعول، الباعث على العمل، المستفيد من العمل، الأداة، الإسناد الخ.

5- السياق والمقام: السياق الكلامي، المقام وعناصره المختلفة الشخصية والزمانية والمكانية الخ.

ومن أمثلة المفاهيم التي لها علاقة بالعواطف والمواقف الإنسانية:

ا- مدى التأكد: كالتأكد، والاحتمال، والإمكانية، والشك، والنفي، والتكذيب الخ.

2- النية: كالعزم، والميل والقصد والرغبة، والتفكير في عمل شيء أو التخطيط للقيام به والمسؤولية والولاء الخ.

ومن أمثلة الوظائف اللغوية:

ا- التقويم والحكم: كالتقويم والتقدير والحكم على الشيء صوابا أو خطأ، والاكتشاف، وإصدار الحكم، كالحكم بالبراءة أو الذنب، والإعفاء والموافقة وعدم الموافقة والرفض الخ.

2- التأثير على سلوك الآخرين: كالإقناع، والاقتراح، وتقديم النصح

والتوصية والإثارة، والتشجيع والإجبار والتسامح الخ.

3- الجدل: كتأكيد الخبر، والإعلان والنشر، والسؤال، والنفي والإفحام والوصف والموافقة أو المخالفة الخ.

4- العلاقات العاطفية: كالتحية بأنواعها، والتعارف وعرفان الجميل والمدح والتزلف والخصام الخ.

وجميع هذه أمثلة معدودات على هذه المفاهيم فمجال الفكر والعواطف والمواقف الإنسانية مجال رحب للغاية.

ولكن ما يجدر ذكره هنا أننا بهذه الطريقة نبدأ بالمعنى والوظيفة المحددة ثم نحاول إيجاد الطرق اللغوية المختلفة للتعبير عنها، بدلا من أن نسلك الطريق المعاكس الذي لا زال متبعا في معظم قواعد اللغة التي وضعت حتى الآن. كما أننا إذا استعملنا هذه الطريق فإننا نلاحظ أن هنالك أشكالا لغوية متعددة يختلف بعضها عن بعض اختلافا قليلا أو كثيرا يمكنها أن تعطي نفس المعنى أو تؤدي نفس الوظيفة وسأعطي مثلا واحدا على ما أقوله: فإذا أردنا أن نطلب من شخص ما بطريقة لطيفة أن يفتح النافذة مثلا، بإمكاننا أن نعبر عن ذلك بالطرق التالية (التي يمكن أن يضيف إليها القارئ عبارات أخرى من عنده).

- هل تسمح بفتح النافذة؟
- هل يضايقك أن تفتح النافذة؟
- أتحب أن تفتح النافذة؟
- هلا تكرمت (أو تلطفت) بفتح النافذة؟
- أيضرك أن تفتح النافدة؟
- هل تستطيع أن تفتح النافذة، من فضلك؟
- افتح النافذة من فضلك
- هل تمانع في أن تفتح النافذة؟
- هل لك أن تفتح النافذة؟
- الجو خانق داخل الغرفة. والنافذة مغلقة
- الجو جميل في الخارج. والنافذة مغلقة
- أن فتحت النافذة تجدد الهواء في الغرفة
- أتمنى أن تفتح النافذة

- ربما كان بإمكانك أن تفتح النافذة
- هل لي أن أزعجك بطلب فتح النافذة
- ليتك تفتح النافذة
- أكون شاكرا (أو ممتنا) لو فتحت النافذة

كما أن ما تجدر الإشارة إليه هنا أن الطلب يدخل عادة في القواعد التقليدية تحت باب الأمر. بينما لم نستعمل في الجمل السابقة إلا جملة واحدة فعلها في صيغة الأمر أما باقي الجمل فبعضها استفهامي وبعضها الآخر خبري من حيث التركيب الخارجي. إلا يحفزنا هذا على التفكير بان المعاني هي في الواقع أساس ما يجب دراسته في اللغات أما الأشكال الخارجية فما هي إلا اللباس الذي ترتديه تلك المعاني أو المفاهيم؟

ربما كان الأمر كذلك وعلى كل حال فان هذا الاتجاه يلقى رواجا كبيرا في أوروبا على وجه الخصوص حيث تألفت منذ عدة سنوات هيئة رسمية تسمى مجلس أوروبا (Council of Europe) مركزها في ستراسبورغ بفرنسا تهتم بهذه الدراسات ويشارك فيها أقطاب العلوم اللغوية من جميع جامعات أوروبا. وهذا لا يعنى أن أمريكا الشمالية بالذات بعيدة عن هذا الاتجاه، بل أن الواقع أنه بدأ هناك بالفعل حيث تنصب الدراسات في السنوات الأخيرة على ما تسمى العموميات اللغوية (Linguistic Universals) التي أشارت إليها النظرية التحويلية في اللغة للمرة الأولى بشكل واضح صريح. وهي تلك العناصر والقواعد التي يعتقد بأنها موجودة في جميع لغات العالم، والتي يحاول العلماء المعاصرون معرفة طبيعتها على وجه التحديد. فهم يتساءلون ويبحثون عما إذا كان في جميع اللغات مثلا تلك العناصر التي نسميها أسماء أو أفعالا أو حروف جر وما إلى ذلك، وعما إذا كانت البنيات الأساسية للجمل واحدة في جميع اللغات وغير ذلك من الأسئلة التي يؤمل أن تلقى المزيد من الضوء على الدراسات المتعلقة بأية لغة من اللغات التي يتكلمها البشر، ومن السابق لأوانه أن تقويم مدى فائدة مثل هذه الدراسات أو النتائج التي ستنبثق عنها.

أما وقد وصلنا إلى هذه المرحلة من البحث في النظام النحوي للغات وتبين لنا أن دراسة المعنى عنصر أساس لا غنى عنه، إن كان لهذه الأبحاث أن تؤتى بعض ثمارها، فلا بد لنا من الانتقال إلى البحث في نظام المعاني

لنلقى نظرة على تطور الدراسات فيه وخاصة في القرن الحالي والصعوبات التي يعانيها الباحثون في هذا النظام.

4- نظام المعاني:

إن دراسة المفردات ومعاني الجمل دراسة معقدة للغاية وعلى الرغم من وفرة الدراسات القديمة فان أيا منها لم يحاول أن تخرج بنظرية متكاملة عن العلاقات الكثيرة جدا التي تربط بين مفردات اللغة وتفسر نظام المعاني فيها بل كانت معظم الدراسات القديمة أما تاريخية تهتم بدراسة تطور معاني المفردات (etymology) أو تبحث في علاقة المفردات بالعالم الخارجي مما ينتج عنه الجدل القديم الجديد بين أصحاب النظريتين التوقيفية والاصطلاحية مما أشرنا إليه في أكثر من موضع في السابق-أو أنها كانت تتناول جوانب محدودة من المعاني كالترادف والتضاد وبعض النواحي البلاغية الخ دون أن تربط بينها جميعا برباط متصل وبسبب بعض هذه الدراسات فقد انحدر إلينا عدد من المفاهيم الخطط التي نجد صعوبة في التخلص منها إذا أردنا أن ندرس المعاني ونستنبط من هذه الدراسة نظرية متكاملة لها وذلك بالتجرد العلمي اللازم. وهذه هي إحدى الصعوبات التي واجهها علماء اللغة في العصر الحاضر.

أما الصعوبة الأخرى فهي متصلة بالأولى، وتكمن في أن دراسة المعاني لم تكن في يوم من الأيام مقصورة على عالم اللغة وحده بل هي باتساعها وتشعبها وتعدد أوجهها تكون نقطة التقاطع لعدد كبير من العلوم الإنسانية كعلم اللغة والفلسفة والمنطق وعلم النفس وعلم الأجناس وعلم الاجتماع وعلم الحيوان والتربية والآداب والنقد الأدبي والبلاغة وغيرها. وكل من هذه العلوم يتناول المعاني من زاوية معينة. كما أن الناحية التطبيقية من دراسة المعاني تهم رجل الأعمال وهو يصمم أعلانا للدعاية، ورجل السياسة وهو يعد خطبته السياسية ومدرس اللغات، والجغرافي، كما تهم المؤرخ والرياضي والطبيب النفساني والإنسان العادي ولنأخذ بعض الأمثل على ذلك.

فقد كان الفلاسفة ولا زالوا مهتمين بإحدى النقاط الرئيسية المتعلقة بالمعاني وهي العلاقة بين المفردات والعالم الخارجي وهي ما يسمونها

بالدلالة (reference) فهم يختلفون في النظر إلى تلك الجمل التي تشير فيها الأسماء مثلا إلى أشياء غير موجودة، كأن تقول مثلا :

- ملك الولايات المتحدة رجل وسيم

أو طرزان صديق للحيوانات

أو الغول مخلوق مخيف

فكل فئة من الفلاسفة تنظر إلى هذه الجمل وأمثالها نظرة مختلفة، ووجه الخلاف هنا أن هذه الجمل سليمة من حيث التركيب وتقال بالفعل، ولكن الاسم في كل منها لا يشير إلى شيء موجود فعلا في العالم الخارجي. فهل نقول إن هذه الجملة صادقة (true) أم أنها غير مناسبة (inappropriate) أم غير حقيقية (false) ؟

وسبب الخلاف كما ذكرنا أن الفلاسفة معنيون بشكل رئيسي بالدلالة على أنها رابطة مباشرة بين مفردات اللغة والعالم الحقيقي خارج اللغة. هذا مثل سريع جدا من الفلسفة.

أما في الأدب فان القوة بين مفردات اللغة والعالم الخارجي تتسع، على أساس أن معظم الأدب من نسج الخيال، وان كان بعضه ممكن الحدوث في عالم الواقع، ولذلك يستعمل الأدباء على اختلاف مشاربهم وسائل وأساليب مجازية مختلفة لبلوغ هدفهم وكلها كانت العبارة المجازية جديدة زاد ابتعادها عن عالم الواقع. كما يستخدم الأديب في بعض الأحيان لغة شخصية خاصة به (Subjective) ويترك للقارئ أن يفسرها على هواه، كما فعل جيمس جويس وغيره في رواياتهم-وهذا شبيه بما حدث في الرسوم السريالية المعروفة-.

ولنأخذ مثالا أخيرا من علم النفس فهذا العلم كالأدب يعني بالناحية الشخصية من المعاني، لان علماء النفس مهتمون بدراسة الإدراك (Perception) مثلا، و الإدراك مسألة شخصية تختلف، من إنسان إلى آخر. وقد توصل هؤلاء العلماء إلى بعض الأساليب الخاصة بالكشف عن كيفية إدراك الفرد لمعاني المفردات. كما أن علماء النفس يعنون أيضا بوجه عام بتحديد الصفات المعنوية للكلمات (Semantic Features) التي سنذكرها بشيء من التفصيل بعد قليل-وقد توصلوا أيضا إلى تعارف أفضل لبعض المفاهيم في علم المعاني كالترادف والتضاد والتشابه الصوتي وغيرها، وذلك لاستخدامها

في الدراسات النفسية العادية وفي تشخيص بعض الحالات النفسية المرضية. كما أن لعلماء النفس أيضا اهتمامات أخرى لها علاقة بالمعاني كطريقة اكتساب الطفل للغة، والفرق بين لغة الإنسان والحيوان، مما أتينا على تفصيل بعضه في الفصل الثالث من هذا الكتاب.[24]

أما الصعوبة الثالثة التي تواجه الباحث في علم المعاني فتتعلق بتحديد طبيعة المعنى. أي بما يجب بحثه في إطار نظرية متكاملة من جوانب المعنى المختلفة. هل تتركز الدراسة على دلالة الألفاظ المفردة خارج السياق ؟ أم على تحديد دلالة تلك الألفاظ في إطار السياق اللغوي ؟ أم على دراسة معاني الجمل؟ أم على هذه المعاني ضمن الإطار اللغوي المحض ؟ أم يدخل عنصر المقام أيضا بالإضافة إلى السياق اللغوي ؟ وماذا عن المعنى الاجتماعي للجملة ؟ أو المعنى الحضاري ؟ إلى آخر هذه الأسئلة التي تشعب الموضوع بحيث يصبح من غير الممكن حصره.

نستطيع أن نفهم إذا لماذا حاول اللغويون حتى عهد قريب جدا أن يتجنبوا البحث في هذا الموضوع الشديد التعقيد والمتعدد الجوانب. ومع ذلك فهم يحاولون هذه الأيام الوقوف أمامه وجها لوجه وإخضاعه للدراسة العلمية المنظمة أو دمجه في نظرية متكاملة للقواعد اللغوية الشاملة رغم أن هذه المحاولات لم تلق النجاح الكامل حتى الآن نظرا لحداثة عهدها.

لقد قلنا أن دراسة المعاني كانت في القديم تاريخية في معظمها باستثناء نقاط مضيئة تشع من هنا وهناك في بعض الأحيان. فقد وصلنا عن أرسطو مثلا بعض الأفكار عن تعدد معاني الكلمة الواحدة وتعدد الألفاظ الدالة على المعنى الواحد، كما وصلنا وضعه للكلمة وتعريفها على أنها أصغر وحدة لغوية ذات معنى، وكذلك تمييزه بين الكلمات ذات المعاني التامة-كالأسماء والأفعال والصفات مثلا-وتلك التي تنحصر وظيفتها في الوصل بين تلك الكلمات في الجمل وأشباه الجمل لتبيان العلاقات بينها-كحروف الجر وبعض الظروف وحروف العطف وأل التعريف وما إليها-بالإضافة إلى تقسيمه للاستعارة إلى أنواع مختلفة. كما وصلنا عن غير أرسطو أيضا آراء ودراسات مختلفة بعضها جدي وفيه شيء من الترابط كدراسات علم المعاني عند العرب، وذلك ضمن النواحي البلاغية في اللغة وكالدراسات المتعددة عن المترادفات والأضداد وغيرها. وهنا يجب ألا نخلط

بين هذا النوع من البحث وبين المعاجم التي يرجع تاريخها إلى عهود سحيقة، والتي كانت ولا تزال اجتهادات شخصية لشرح معاني المفردات بطرق مختلفة، لم تعتمد على نظرية سابقة لدلالات المفردات.

ولذلك فان الغربيين يؤرخون لعلم المعاني الحديث (Semantics) من الربع الأول من القرن الحالي، ويعترفون بتأثير سوسير الكبير على هذه البداية الجديدة لهذا النوع من الدراسة. وقد ظهر أثر سوسير في ناحيتين:

الناحية الأولى: أنه بابتعاده عن الدراسات اللغوية التاريخية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر وبتفريقه بين الدراسة التاريخية والدراسة الوصفية، لفت نظر الباحثين في علم المعاني إلى الاهتمام بالناحية الوصفية وفصلها عن الدراسة التاريخية.

أما الناحية الثانية: فهي أنه، بنظرته إلى اللغة كنظام متكامل أو كمجموعة واحدة مؤلفة من عدة أنظمة متشابكة ومتكاملة، قد ترك أثره الكبير على نشوء المدارس التشكيلية (Structural) في علم اللغة في عدد من البلدان الأوروبية مثل جنيف وبراغ وكوبنهاجن ولندن، كما تأكد هذا الاتجاه بنشوء مدرسة مشابهة لذلك في أمريكا بتأثير بلومفيلد، مما كان له أثره الخبير على دراسة المعاني أيضا. فبدأ الاتجاه الجديد قبل الحرب العالمية الثانية ولكنه توقف خلالها واستأنف بعدها في حوالي عام 1950، وكان ذلك على أسس جديدة تختلف عن الدراسات القديمة من عدة نواح:[25]

- فقد اتجهت دراسة المعاني إلى الناحية الوصفية وابتعدت عن الاتجاهات التاريخية كما أسلفنا.

- وأجرى عدد من الدراسات لمحاولة التوصل إلى معرفة التركيب الداخلي أو البنية الداخلية لمفردات اللغة جميعها لاكتشاف العلاقات المعنوية بينها.

- كما أصبحت الدراسات هذه تتجه إلى معالجة لغات معينة في أحيان كثيرة.

- وساعد ظهور علم دراسة الأساليب الأدبية (Stylistics) على اهتمام علم المعاني بالمعاني الانفعالية للكلام.

- وأصبح علم المعاني الحديث يهتم أيضا بالعلاقة بين اللغة والفكر تلك العلاقة التي اكتسبت دفعا جديدا بتأثير أبحاث عالم اللغة الأمريكي بنيامين لي وورف الذي ورد ذكره سابقا. علاوة على ذلك فقد بدأت الاستفادة من

المناهج المستخدمة في علمي الرياضيات والفيزياء (كنظرية الاحتمال التي ذكرناها سابقا) في دراسة المعاني كما ظهر مؤخرا تغير كبير في علاقة علم اللغة بالفلسفة وبدأ الفلاسفة المعاصرون يدرسون مشاكل المعاني من منطلق جديد فاستحدثوا اتجاهات خاصة بهم. فأصبح علم المعاني بالنسبة لإحدى مدارسهم فرعا من فروع علم المنطق الرمزي (Symbolic Logic)[26] كما أصبح بالنسبة لفئة أخرى وسيلة للبحث في كيفية تجنب إساءة استعمال اللغة وذلك عن طريق الاهتمام بمعاني المفردات وخاصة ذات الصبغة المجردة منها بهدف تحسين العلاقات بين البشر[27]. وقام آخرون غير هؤلاء بدراسة المعاني من الناحية الأدبية والبلاغية[28] كما فعل العرب عندما اعتبروا المعاني واحدا من فروع العلوم البلاغية.

ونظرا لتشعب دراسة المعاني إلى الحد الذي ذكرناه، بحيث أصبحت تؤلف فرعا من عدد من العلوم الإنسانية، سنحاول أن نقصر كلامنا هنا على دراسة اللغويين للمعاني، أي على دراسة المعاني من وجهة النظر اللغوية، مع أننا سنرى في ختام هذا البحث أن ذلك غير ممكن في النهاية لان هذه الدراسة، بد أن تلتقي أخيرا ببعض جوانب المعنى التي يتناولها الفلاسفة والمناطقة وعلماء النفسي وغيرهم.

فلننظر أولا في تأثير المدارس اللغوية الحديثة والمعاصرة على دراسة نظام المعاني في اللغة.

لقد رأينا سابقا كيف استعملت القواعد التقليدية المعنى كأحد المعايير في تحديد معاني بعض المصطلحات اللغوية، وتبين لنا أن هذا المعيار لم يستعمل بشكل منتظم ثابت بحيث يخدم الغرض الذي استخدمه من أجله.

كما رأينا أن أصحاب المدرسة الوصفية التشكيلية حاولوا تجنب دراسة المعاني كلية، ولم يستخدموها إلا عرضا عند تحديدهم لما يقصدونه من مفهومي الفونيم والمورفيم كأصغر وحدتين للأصوات والمعاني على الترتيب[29] وقد كان سبب تجنبهم هذا ليس عدم اعترافهم بأهمية المعنى في اللغة بل كان ناتجا عن نظرتهم إلى طبيعة المعنى، تلك النظرة التي كانت متأثرة إلى حد كامل تقريبا بالمذهب السلوكي في علم النفس. فقد عرف بلومفيلد رائد هذه المدرسة في أمريكا المعنى بأنه «الموقف أو المقام الذي يقوم فيه المتكلم بقول كلمة أو جملة ورد الفعل أو الاستجابة (response) التي

يتطلبها ذلك من المستمع»[30] وهو يلجأ في بحثه لدلالات المفردات إلى القول بأن الطريقة إلى معرفة تلك الدلالات تكون أما بالإشارة إلى الشيء نفسه الذي تدل عليه الكلمة أو بشرحه لكلمات أخرى أو بترجمته إلى لغة أخرى-أي هو يثير إلى الطريقة المستعملة إجمالا في المعاجم-. لقد كان تأثر هذه المدرسة أيضا بالاتجاه العلمي الذي ساد هذا القرن سببا في ابتعاد أنصارها عن دراسة المعاني. يتابع بلومفيلد كلامه دقيقا: «أن المواقف التي تدفع الناس للكلام تشمل كلى شيء وكل حدث في هذا الكون فإذا أردنا أن نعطى تعريفا علميا دقيقا لمعنى أي شكل من أشكال اللغة، يجب أن تتوفر لدينا معرفة علمية دقيقة بكل شيء في عالم المتكلم. ولكن مدى المعرفة البشرية محدود جدا بالنية لهذا الأمر. فنحن نستطيع مثلا أن نعرف معنى أحد الأشكال اللغوية بشكل دقيق عندما يتعلق الأمر بإحدى المواد المحسوسة التي توفرت لدينا المعرفة العلمية بها، فتستطيع مثلا أن نعرف أسماء المعادن بالرجوع إلى الكيمياء أو علم المعادن كأن نقول مثلا معنى كلمة ملح هو كلوريد الصوديوم ولكننا ليس لدينا طريقة لتعريف معاني كلمات مثل الحب والكره لأنها تتعلق بمواقف لم تصنف تصنيفا علميا دقيقا وأمثال هذه الكلمات تكون الأغلبية العظمى من مفردات اللغة»[31].

خلاصة القول أن هذه المدرسة اللغوية لم تساهم في دراسة المعاني ولم تكن لتستطيع ذلك حتى لو أرادت، بسبب تلك النظرة إلى طبيعة المعنى.

أما أنصار المدرسة اللغوية التحويلية التي بدأها تشومسكي، فقد رأينا أنهم وجدوا أن عليهم في النهاية أن يدخلوا المعنى كعنصر أساسي في تحليلهم أو وصفهم اللغوي إذا كانوا يطمحون إلى الوصول إلى نظرية متكاملة تشمل جوانب اللغة المختلفة، بل أن بعض المعاصرين منهم قد أخذوا يبدءون دراساتهم اللغوية بعنصر المعنى ومن هنالك ينطلقون إلى التركيب النحوي والصرفي للجمل ثم إلى التركيب الصوتي لها. وهم يحاولون أن يتوصلوا إلى معرفة النظام الكامل لدلالات المفردات أولا، ثم طرق اقتران بعضها ببعض لتكوين الجمل ذات المعنى المفهوم والمقبول، وذلك من خلال اللغة نفسها، أي بغض النظر عن الموقف أو المقام الذي تقال فيه تلك الجمل، ليس لان المقام غير ذي أهمية في تحديد معاني الجمل، بل لان هذا العنصر يضيف صعوبة إضافية لمنهج التحليل اللغوي المنظم، وهو

عنصر تصعب دراسته بشكل علمي، ولذلك فان دراسته تترك لفئة أخرى من علماء اللغة هم الباحثون في الجانب الاجتماعي منها، أي فيما أصبح يسمى الآن بعلم اللغة الاجتماعي.

لقد رأينا في الجزء السابق من هذا الفصل، عند نظرنا في النظرية اللغوية التي طلع بها أنصار المدرسة اللغوية التحويلية أنهم يحللون كل جملة إلى عناصرها اللغوية الأولية في مستوى دعوة بالمستوى أو التركيب العميق (Deep Structure) لتلك الجملة، كأن نقول مثلا أن الجملة التالية:

الرجال الموسرون العقلاء يتصرفون بحكمة

تتألف في المستوى العميق من العناصر اللغوية التالية:

(اسم + تعريف + تذكير + جمع) + (صفة + مطابقة للاسم) + (صفة + مطابقة للاسم) + (فعل + الزمن الحاضر+ ضمير+ مطابقة للاسم)+ حرف جر (+ (اسم + نكرة + أفراد)[32].

وهنا نلاحظ أن هذه العناصر عناصر لغوية مجردة، تحتاج لكي تصبح جملة حقيقية إلى ما يلي:

أولا: قواعد صرفية تجمع كل مجموعة منها موضوعة بين قوسين بحيث تتألف منها كلمة معينة.

ثانيا: قواعد نحوية تربط الكلمات بطريقة تظهر العلاقات بينها.

ثالثا: قواعد صوتية تحول كلا من تلك الكلمات إلى مجموعة من، الأصوات المتصلة (أي إلى طريقة نطق الكلمة فعلا).

رابعا: قواعد معنوية تعتمد على الكلمات ودلالاتها وعلى العلاقات بينها بحيث تعطينا معنى الجملة الكامل.

وقد نجح أصحاب هذه المدرسة في وضع عدد كبير مترابط من القواعد الأولى والثانية والثالثة، وأضافوا إليها القواعد التي سموها بالقواعد التحويلية التي يمكن أن تحول سلسلة العناصر المذكورة إلى جمل متشابهة من حيث المعنى ولكنها مختلفة من حيث البنية الشكلية الظاهرة، كالجمل التالية مثلا.

- الرجال الموسرون العقلاء يتصرفون بحكمة.
- أن الرجال الموسرين العقلاء هم الذين يتصرفون بحكمة.
- تصرف الرجال الموسرين العقلاء تصرف حكيم.

- أن التصرف الحكيم هو الذي يقوم به الرجال الموسرون العقلاء...

كما يمكن أن نحولها إلى صيغة الاستفهام، نحو:

- هل الرجال الموسرون العقلاء يتصرفون بحكمة ؟
- أو: هل يتصرف الرجال الموسرون العقلاء بحكمة ؟
- أو: من يتصرف بحكمة ؟
- أو: هل تصرف الرجال الموسرين العقلاء حكيم ؟

كما يمكن أن نحولها إلى صيغة النفي، نحو:

- الرجال الموسرون العقلاء لا يتصرفون بحكمة
- أو: لا يتصرف الرجال الموسرون العقلاء بحكمة

إلى غير هذا من الأشكال المختلفة من الجمل ذات المعاني المتشابهة. وقد قال هؤلاء، أن القواعد الكاملة للغة، إذا كان لها أية قيمة فعلا، وإذا كانت تعبر عن النظام الشامل للغة، ينبغي أن تتمكن من توليد جميع الجمل الصحيحة التركيب ولا جمل غيرها، كما يجب أن تولد الجمل ذات المعاني المقبولة فقط.

وقد واجهتهم مشكلة القواعد التي من النوع الرابع أي المتعلقة بالمعاني لان الأنواع الثلاثة الأولى من القواعد المذكورة أعلاه يمكن أن تولد جملا صحيحة لغويا، ولكنها غير مقبولة من حيث المعنى. وسبب عدم قبول بعضها أنها جمل لا معنى لها إطلاقا كالجملة التالية، التي أصبحت الآن مشهورة في علم اللغة:

الأحلام الخضراء العديمة اللون تنام بعنف

فهذه جملة تركيبها الصرفي والنحوي والصوتي لا غبار عليه، إلا أنها لا معنى لها إطلاقا مع أنها تتألف من كلمات عربية لكل منها دلالتها الواضحة بحد ذاتها، ولكنها أصبحت بدون معنى عندما انتظمت على الشكل المبين بأعلاه. وليس سبب انعدام المعنى صرفيا أو نحويا أو صوتيا مثلا كما في سلسلة الكلام التالية:

العديمة الأحلام تنام اللون الخضراء بعنف

التي تضطرب فيها العلاقات النحوية. أو كما في الجملة التالية:

الازلار الشفيلة الكريفة العجل ترام بهلب.

أو كبيت الشعر التالي:

قاصي التجين شحاله بتريه أل
فاخي فلم يستف بطاسيه البرن[33]

فكل من هذين المثلين يتألف من أصوات مفردة منظومة بشكل معين بحيث تتألف منها كلمات يمكن أن تكون في اللغة، ولكنها غير موجودة بالفعل.

ليست العلة في جملة:

الأحلام الخضراء العديمة اللون تنام بعنف

من هذا النوع. أنها لا معنى لها، لأنه ليس هنالك توافق بين معاني المفردات المنتظمة في الجملة. ولكن ماذا تعني كلمة توافق هذه؟ ألا تعني أن معنى كل كلمة في اللغة لا تتألف من عنصر واحد، بل من عدة عناصر أو مكونات صغيرة جدا أو بدائية، بعضها مشترك بين كلمات متعددة وواحد منها على الأقل يميز معنى كلمة عن أخرى ؟

لقد دفع مثل هذا السؤال علماء اللغة إلى محاولة تحليل معاني كلمات اللغة إلى؟لعناصر الصغرى التي يتألف منها المعنى الكامل للكلمة، وحاولوا أن يختاروا تلك العناصر الصغرى بحيث تشمل اكبر عدد من كلمات اللغة التي تنتمي إلى جزء معين من أجزاء الكلام، كالاسم والفعل والصفة وغيرها، لعلهم بذلك يصلون إلى استنباط ذلك النظام الذي يحكم جميع كلمات اللغة والذي كما سبق ذكره، يمكن أن يكون نظاما عالميا يشمل اللغات جميعا-.

هذا هو أحد الاتجاهات الرئيسية في دراسة المعاني، الذي بدأ يتبلور في النصف الثاني من القرن الحالي. وقد خطا الباحثون فيه خطوات كبيرة، بل أن بعضهم مثل فودور وكاتس (Fodor & Katz)، طلعا بما اعتقدا انه نظرية كاملة للمعنى تكفل نظرية القواعد التحويلية التي بدأها تشومسكي، وان كانت هذه النظرية تتعرض حاليا للنقد الشديد، على الرغم من التعديلات الكثيرة التي أجريت عليها في السنوات الأخيرة.

ولا بد هنا من إعطاء مثل على هذا الاتجاه. فهم يقولون مثلا أن كلمة رجل يتألف معناها من العناصر الأولية التالية:

اسم/ محسوس/معدود/حي/بشرى/ذكر/بالغ وبمقارنة هذه الكلمة بكلمة أخرى قريبة منها في المعنى مثل امرأة، نجد أن العناصر الأولية التي

تكون معناها هي:

اسم/ محسوس/محدود/حي/بشري/أنثى/بالغ فهي بهذا تختلف عن كلمة رجل بعنصر واحد مميز هو الجنس، بينما تشترك الكلمتان في جميع العناصر الأخرى.

فإذا أخذنا كلمة أسد مثلا، نجد أنها تتألف من العناصر الأولية التالية:

اسم/ محسوس/معدود/ حي/ غير بشرى/ ذكر/ بالغ فهي بهذا تختلف عن كلمة رجل بعنصر واحد مميز هو بشرى/ غير بشرى بينما تختلف بالإضافة إلى هذا عن كلمة امرأة بعنصر آخر مميز هو الجنس ذكر / أنثى.

أما كلمة حلم فإنها تتألف من العناصر الأولية التالية:

اسم/معنوي/معدود/غير حي/غير بشري/مذكر وقد استعمل هؤلاء اللغويون الإشارات (+) أي زائد، و (-) أي ناقص لتسجيل عملية المقارنة والاقتصاد في الكلام كما يتبين من الجدول التالي:

ويرون أننا إذا استطعنا تحليل معاني مفردات أية لغة بهذه الطريقة فإننا نستطيع أن نتبين الخلل في معاني بعض الجمل، كانعدام المعنى في الجملة المذكورة بأعلاه وهي:

الأحلام الخضراء العديمة اللون تنام بعنف

فهذه الطريقة تساعدنا أن نكتشف في الحال أن بعض العناصر الأولية المكونة لمعنى إحدى المفردات تتناقض مع عنصر واحد آخر على الأقل ولذلك ينتج عدم التوافق بينهما. مثال ذلك أن أحد العناصر الأولية لمعنى الفعل نام هو (+ حي) بينما أحد عناصر معنى كلمة حلم هو (-حي)، لذلك فان الكلمتين لا تتوافقان ولا ينتج عن ارتباطهما معا معنى مفهوم، كما هو الحال في الجملة السابقة. بينما نستطيع أن نقول:

الرجال ينامون/النساء ينمن/الأسود تنام

وبنفس الطريقة نستطيع أن نقول أن أحد عناصر معنى كلمة حلم هو (محسوس) بينما من عناصر معنى كلمة اخضر (+ محسوس) ولذلك فالكلمتان لا تتوافقان أيضا فلا نستطيع أن نقول أحلام خضراء.

لا داعي للاستطراد، فالنظرية طويلة وفي غاية التعقيد ولكننا أتينا بأمثلة بسيطة وواضحة للغاية، لنعطي فكرة عن النظرية والمنهج، وقد فصلنا

قليلا لان هذه النظرية لاقت اهتماما بالغا منذ ظهورها وحتى وقت قريب. إلا أنها اصطدمت بعقبات كبيرة منعتها من أن تصبح نظرية متكاملة للمعاني كما توقع أصحابها أن تكون.

وأول هذه العقبات أن اللغة لا تتكون من مفردات كلها أسماء أو كلها صفات وهكذا بل هنالك أجزاء أخرى للكلام ليس من السهل تحليل معانيها إلى عناصرها بهذه الطريقة، خاصة إذا كانت بعض تلك العناصر تتعلق بعلاقة هذه الكلمات بكلمات أخرى في الجملة. ولنأخذ الأفعال مثلا على ذلك.

فبعض الأفعال لا يحتاج إلى مفعول به، وبعضها الآخر يحتاج إليه. فإذا احتاج إليه فان الاسم الذي يأتي مفعولا به للفعل يجب أن تتوافر فيه مواصفات معينة تتوقف على مواصفات الفعل الذي يتطلبه. كما أن كثيرا من الأفعال تتطلب فاعلا من نوع معين، وبعضها يحتاج إلى شبه جملة من جار ومجرور وهكذا. ولننظر في مثل سريع على ما نقول:

فالفصل تفرق مثلا يحتاج إلى فاعل يدل على الجمع، أي أن أحد عناصر معناه (+ جمع) وان كان شكله مفردا فبإمكاننا أن نقول مثلا:

- تفرق الجمع أو الناس

ولكن ليس بإمكاننا أن نقول:

- تفرق الرجل أو التاجر

أما الفعل فرق فيمكن أن يكون فاعله مفردا أو جمعا في المعنى، ولكن مفعوله يجب أن يدل على معنى الجمع، فنقول:

- فرق الجيش الجمهور أو المظاهرة
- وفرق الشرطي الجمع

ولكننا لا نقول:

- فرق الجيش الرجل
- أو: فرق الشرطي الغلام

وهذان مثلان في غاية البساطة أيضا من بين الآلاف الأشد تعقيدا بمراحل.

ويتبع هذه المشكلة مشكلة أكبر. وهي أنه لا توجد في أية لغة مترادفات كاملة. هنالك كلمات متشابهة جدا أو متقاربة في المعنى، ولكنها لا تحمل

جميع العناصر الأولية للمعنى التي تحملها أية كلمة أخرى-ويمكن للقارئ أن يتأكد من هذا بأن يأتي بكلمتين يعتبرهما مترادفتين تماما ويحاول استعمالهما بالتبادل في جميع السياقات اللغوية المحتملة، وسيجد أن بعض تلك السياقات تقبل إحداهما وترفض الأخرى-. وما دام الأمر كذلك فان ما تطلبه هذه النظرية ومنهجها في البحث هو أن تحلل كل كلمة من كلمات اللغة إلى العناصر الأولية لمعناها. ولكن إلى كم عنصر من تلك العناصر الأولية يجب تحليل معنى كل كلمة بحيث تتميز عن جميع الكلمات الأخرى في اللغة ؟ يبدو أن هذا الجهد لا هو بالممكن ولا بالمفيد. وربما كان الأفضل منه أن نحاول التركيز على ذلك العنصر الأولى الذي يميز معنى كلمة معينة في سياق لغوي محدد، والذي يتنافر مع عنصر مميز آخر لكلمة أخرى تستعمل معها لكي نفسر بعض الاضطراب الذي يمكن أن يحصل في معاني بعض الجمل، أو نفسر عدم إمكانية تركيبها أصلا.

ومع كل ما يقال في هذه النظرية وهذا المنهج فان الأساس صحيح ومعروف منذ القدم وقد استفاد منه الفنانون من شعراء وكتاب، كما استفاد منه الظرفاء في مجالسهم وعامة الناس في حياتهم المادية. فقد كانت الكلمات التي تحمل معنيين أو اكثر مجالا واسعا للاستفادة منها في الأدب بأنواعه، وبين عامة الناس عندما يتلاعبون بمعاني الكلمات المختلفة، كما استغل بعض الشعراء والروائيين ظاهرة عدم التوافق واستخدموها عن عمد لإثارة مشاعر وأفكار خاصة عند القراء.

فالظاهرة إذا معروفة منذ أمد طويل، ولكن أصحاب النظرية التي ذكرناها هم أول من حاولوا تقعيد هذه الظاهرة وذلك سعيا وراء تكوين نظرية تفسر النظام الداخلي لمفردات اللغة بشكل علمي منظم، ودمج هذا النظام في النظام العام لقواعد اللغة الشاملة لجميع جوانبها. وهم ومن تبعهم يأملون في أن يخرجوا لنظرية تكون قادرة على ما يلي:

أولا: أن تعرض معاني المفردات والعلاقات بينها لشكل علمي منظم متكامل.

ثانيا: أن تبين كيف يتفاعل نظام معاني المفردات مع العلاقات الصرفية النحوية بحيث تنتج عنها معاني الجمل.

ثالثا: أن تعطى صورة تفصيلية لبنية الجملة من نواحيها المختلفة.

رابعا: (وهذا هدف لم نشر إليه من قبل) أن تتمكن من إيضاح علاقة معاني المفردات والجمل بالعالم الخارجي.

وأخيرا

إن التوصل إلى نظرية من هذا النوع لا هو بالسهل ولا بالقريب المنال، ولكن ربما كان أهم ما في الأمر في الوقت الحاضر هو أن اللغويين لم يعودوا يحاولون تجنب دراسة المعاني على اعتبار أنها غير قابلة للبحث، بل هم يواجهون المشكلة على صعوبتها بشجاعة وثقة وإيمان بأن من الممكن إيجاد حل معقول شامل لها في المستقبل، قريبا كان أم بعيدا.

لقد كانت المدرسة اللغوية التي طلعت بهذه النظرية هي أهم المدارس التي تمثل هذا الاتجاه في دراسة المعاني، ولكنها لم تكن الوحيدة، فقد كانت هنالك محاولات أخرى متعددة لدراسة العلاقات بين كلمات اللغة.

فمن هذه المحاولات ما قام به البعض من تحديد بعض حقول المعاني (Semantic Fields)، بمعنى دراسة بعض المجالات التي يكون فيها ترابط شديد بين الكلمات التي تنتمي إليها. وربما كان من أفضل الأمثلة على ذلك الكلمات الدالة على اللون والكلمات الدالة على أواصر القربى.

أما الألوان، فقد وجد أن الطيف الضوئي يقسم بطرق مختلفة في لغات مختلفة ففي بعض اللغات مثلا تشير كلمة واحدة إلى اللونين الرمادي والبني، وكلمة واحدة أخرى تشير إلى كل من الأزرق والأخضر، بينما وجدت في بعض اللغات كلمتان للدلالة على اللون الأسود، إحداهما تشير إلى سواد الليل والأخرى إلى سواد المواد كالفحم مثلا.

أما بالنسبة لأواصر القربى، فان توزيع الكلمات الدالة عليها يختلف اختلافا بينا من لغة إلى أخرى-ولهذا طبعا أسباب اجتماعية واضحة، فنحن نعلم مدى تفصيل هذه العلاقات في اللغة العربية مثلا بسبب اهتمام العرب بقضية الأنساب، ولكن هذا موضوع آخر ليس هذا مكان عرضه-. فاللغة المجرية مثلا لم تكن فيها كلمة مستقلة تدل على الأخ وأخرى تدل على الأخت وبقى الأمر على هذا الحال حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر، بينما لا زالت فيها حتى الآن كلمات مستقلة تدل على الأخ الأكبر والأخ الأصغر، والأخت الكبرى والأخت الصغرى. كما أنه لا توجد في اللغة الإنكليزية مثلا كلمات مستقلة تدل على كل من العم والخال، ولا

كلمات أخرى مستقلة تدل على كل من العمة والخالة، كما أن كلمة (cousin) تدل على عشرات من العلاقات من ابن العم إلى ابن الخال إلى ابنة العم إلى ابنة الخال إلى ابن العمة فابن الخالة فابنة العمة فابنة الخالة، فعدد آخر من الأقارب حتى البعيدين منهم.

وقد جرت محاولات على نطاق أوسع بكثير لتفسير بنية نظام المفردات، على أساس تجميع المفاهيم أو الأفكار العامة ثم تصنيف الكلمات على أساسها.

فقد قسم بعضهم الكلمات إلى ثلاثة أقسام رئيسية كبيرة هي:

- المفردات التي تشير إلى الكون.
- المفردات التي تشير إلى الإنسان
- والمفردات التي تشير إلى علاقة الإنسان بالكون.

ثم فصلوا هذا بحيث شملوا جميع كلمات اللغة التي كانوا يبحثونها. وربما كان افضل مثال على ذلك مما هو في متناول اليد هو ما نجده في معجم روجيت المشهور،[34] الذي قسمت فيه المفردات بحسب المفاهيم التي تشير إليها وأجملت هذه المفاهيم تحت ست أقسام كبيرة هي:

1- العلاقات المجردة

2- المكان

3- المادة

4- الفكر

5- الإرادة

6- العواطف

ثم فصل كل من هذه الأقسام الستة الواسعة إلى أجزاء أقل شمولا، وقسم كل منها إلى وحدات اصغر فأصغر، ثم جمعت المفردات التي يعبر بها عن كل من الوحدات الصغرى، بحيث تشمل بمجملها جميع المفاهيم التي يمكن أن يتكلم عنها أي إنسان يتكلم أية لغة-ويمكن لمن شاء الاطلاع على التفصيلات في قائمة المحتويات الموجودة في مقدمة هذا المعجم.

وهذا العمل الجبار الذي تم عام 1852-وان كان هدفه عمليا وتعليميا وهو كجميع المترادفات أو المفردات المتقاربة في المعنى بحيث يتيسر للطالب أو الكاتب أو الباحث مرجع يستخدمه للتعبير عن الأفكار التي يريد التعبير

عنها-يذكرنا بما أوردناه سابقا عن محاولات حديثة جدا قام بها مكولي وفلمور في نفس الاتجاه[35] وان كان غرض هؤلاء مختلفا يهدف إلى محاولة إعطاء وصف كامل لقواعد اللغة-أو اللغات-بدءا من المعاني وانتهاء بالأصوات.

لا نعتقد أن هنالك داعيا للخوض في مزيد من التفاصيل، بالنسبة لهذا الاتجاه في دراسة معاني اللغة الذي كان أكثر من غيره جدية وشمولا وإعمالا للفكر.

أما الاتجاه الثاني الكبير فقد عني أصحابه بالنظر إلى مفردات اللغة على اعتبار أنها رموز، أي وحدات صوتية ذات وظيفة رمزية. وكانت أهم نقطتين ركز هؤلاء عليهما هما:

أولا: علاقة شكل الكلمة بمعناها.

ثانيا: ظاهرة تعدد المعاني للشكل الواحد.

وهذا الاتجاه ليس جديدا في الواقع، كما رأينا عند عرضنا لقضية التوقيف أو الاصطلاح في اللغة التي أثيرت منذ أيام الإغريق القدماء بالنسبة لعلاقة الكل بالمعنى والتي بعثت من جديد في السنوات الأخيرة. كما أن ظاهرة تعدد المعاني من الظواهر التي درست في السابق وتدرس في هذه الأيام من جديد.

أما بالنسبة للنقطة الأولى، فان علماء اللغة يقسمون المفردات اللغوية إلى قسمين الكلمات التي يسمونها معتمة (Opaque) أي التي لا يدل شكلها على معناها بأي شكل من الأشكال، وهي الأغلبية الساحقة، مثل ولد، بنت، وردة، بحر، جمال الخ.

وتلك التي يسمونها شفافة (transparent) التي يمكن أن يستشف معناها من شكلها الخارجي الصوتي. وتندرج تحت هذه الفئة الأخيرة ثلاث مجموعات:

الأولى: هي الكلمات التي يشير صوتها إلى معناها مثل كلمات Splutter, Splash, bang, growl في اللغة الإنكليزية أو الكلمات: طرطش، بم، طاخ، الخ في بعض اللهجات العربية العامية. ولكن يجب أن نقول هنا حالا بأن مدى صحة هذه الملاحظة مشكوك فيه جدا، لان الكلمات التي من هذا النوع تختلف اختلافا شاسعا من لغة إلى أخرى، وهذا يعني أن هذه الظاهرة اصطلاحية اجتماعية لا تمت لقليل أو كثير إلى أصوات الكلمات.

والثانية: هي المشتقات التي إذا عرف معنى الأصل عرف معنى الكلمات المشتقة منها. وهذه ظاهرة واضحة، فكل فيها من الأفعال المزيدة في اللغة العربية مثلا يشير إلى معنى معروف إضافة للمعنى الأصلي، وكذلك الصفات المشبهة وأسماء الأفعال والمصادر وما إليها.

أما المجموعة الثالثة:

فتشمل التعابير المجازية وهي التي تستعمل فيها الكلمة بمعنى مشتق من معناها الأصلي، وهذه كثيرة للغاية، وظاهرة منتشرة في جميع اللغات، والكناية في اللغة العربية مثل واضح عليها، ومن الكلمات المفردة نفسها يمكن أن تستعمل مجازيا على نطاق واسع أيضا، كأن تقول:

- ذاق الأمرين

أو-أحمل هما كبيرا، وهكذا.

أما النقطة الثانية المذكورة أعلاه والمتعلقة بتعدد المعاني فهي التي كثيرا ما تسبب لبسا في معاني بعض الجمل، لان المتكلم يستعمل في الجملة كلمة تحمل اكثر من معنى، يقصد هو أحدها بينما يفهم السامع غيرها. وأمثلة هذه كثيرة وقد أشرنا إليها قبل قليل.

نخلص من هذا العرض السريع جدا لدراسات المعاني بأن هذه الدراسات لا هي حديثة، ولا هي مقتصرة على علم بعينه، ومن ما وصلنا من القديم منها لا يشفي الغليل-على كثرته-لأنه يتألف من محاولات لتحليل ظواهر محدودة، فلا هي شاملة من ناحية ولا هي استطاعت أن تدمج عملها في نظرية لغوية شاملة. وان محاولات جدية تجري في الوقت الحاضر للتوصل إلى نظرية متكاملة لنظام المعاني في إطار نظرية شاملة للغة ككل. كما اطلعنا على بعض الصعوبات التي تجعل التوصل إلى مثل هذه النظرية أمرا بعيد المنال وان لم يكن مستحيلا.

الهوامش

(1) R.H.Robins, "The Structure of Language", in Minnis, op Cit. p180.

(2) من الكتب الحديثة باللغة العربية كتاب: كمال بشر: علم اللغة العام، الأصوات (دار المعارف) 1973 والكتب الأجنبية كثيرة، سنذكر بعضها في آخر الكتاب.

(3) دراسة هذا النظام متوفرة في معظم المراجع في علم اللغة العامة. انظر مثلا الكتب التالية:

1- C.Dodge, "Morphology and Syntax", in HillLinguistics (V.O.A.), 1968, pp. 33 ff

2- J.Falk, Linguistics & Language (Xeros) 1973, pp.21-40.

3- P.H. Mathews, "Recent Developments in Morphology In J. Lyons (ed.) New Horizons in Linguistics" (Penguin), 1970, pp96-114.

(4) haz-ak-ban

(5) g-naglan-sl-i-Zak-s

(6) انظر الباب العاشر ص 21 وما بعدها من الكتاب التالي:

Mario Pei: Invitation to Linguistics (Doubleday).1965.

(7) الواقع أننا يجب أن نأخذ في الاعتبار اللام الزائدة والحركات أيضا ولكنا سنتغاضى عن ذلك هنا رغبة في التبسيط.

(8) انظر كتاب:

Charles Fries, The Structure of English (Longman), 1969.

(9) ربما كان أفضل مثال على ذلك ما فعله Zelling Harris في كتابه:

Methods in Structural Linguistics, (Univ. Of Chicago Press)1951

(10) انظر أيضا مبحث النظام الصرفي ص 272- وما بعدها.

(11) K.Pike, Language in Relation to a Unified Theory of Human Behavior(The Hague: Mouton), 2nd rev. Ed,1967.

(12) See J. Lyons: Chomsky (Fontana / Collins), 1970, p31.

(13) Crystal: op. cit., p211.

(14) انظر الحاشية صفحة 288 بأعلاه.

(15) Chomsky: Syntactic Structures, reproduced in Crystal op cit., p121

(16) Lyons: Chomsky, pp43-44.

(17) بعض اللغويين المعاصرين لا يعتبر هذه القاعدة قاعدة متكررة.

(18) انظر الجزء القادم من هذا الفصل الذي يبحث فيه نظام المعاني.

(19) Crystal: op. cit., p229

(20) Katz and Fodor (eds): The structure of Language (Prentice-Hall), 1964, pp479-518.

(21) J.D. McCawley: "Concerning the Base Component of a Transformational Grammar", Foundations

of Language Vol. 4(1968), pp243-269.

The Role of Semantics in a Grammar: In Bach and Harms(Eds). Universals in Linguistic Theory (N.Y. Holt, Rinehart and Winston), 1968 169.-124.pp

(22) انظر الصفحات 1- 90-من كتاب: Bach and Harms

المذكور في الحاشية السابقة تجد فيه عرضا كاملا لنظرية فلمور الأصلية.

(23) انظر مثلا الكتابين التاليين: A- Leech and Svartvik: A Communicative grammar of?(English) Longman1975.

B- D.A. Wilkins, National Syllabuses,(O.U.P),1976.

(24) انظر الصفحات 1-13 عن الكتاب التالي:

Nilsen and Nilsen: Semantic Theory (Rowley, Mass . :

. 1975, (Newbury House

(25) راجع الصفحتان 1-10 من الكتاب التالي للاطلاع على التطور التاريخي لعلم المعاني:

. 1970, (Stephen Ullmann: Semantics)Blackwell

(26) مثال ذلك الكتابان التاليان:

a- R.Carnap: Introduction to Semantics (Cambridge Mass)1942.

b- C. Morris: Signs, language and Behavior (N.Y. Georged. Braziller), 1942.

(27) مثال على ذلك الكتاب التالي:

S.I.Hayakawa: language in Thoughtd and Action (Allen and Unwin), 1968.

(28) مثال على ذلك الكتاب التالي:

Ogden and Richards: The Meaning of Meaning (Routledge and Kegan Paul) 1946.

(29) انظر المبحثين السابقين من هذا الفصل

(30) انظر.. L.Bloomfield: Language, pp. 139

(31) نفس المصدر السابق صفحة 139.

(32) هذا التحليل مبسط وغير دقيق تماما، ولكنه يخدم الغرض الذي نرمي إليه.

(33) تمام حسان: اللغة العربية: معناها ومبناها (الهيئة المصرية العامة للكتاب) سنة 1973، صفحة 183.

(34) عدة طبعات Roget's Thesaurus(longman)

(35)راجع الجزء السابق من هذا الفصل.

خاتمه

وبعد،

فهذا عرض سريع حاولنا أن نعطي فيه فكرة أولية عما يجري في العالم من أنواع الدراسات المختلفة التي يقوم بها علماء الغرب في أوروبا وأمريكا على اللغات إجمالا وعلى لغاتهم القومية على وجه الخصوص.

وكلنا أمل أن نكون قد وفقنا في رسم صورة صحيحة، وان كانت مقتضبة، لمدى النشاط الذي يدور حاليا في مجال البحث اللغوي.

وهذا العرض يبين بطريقة غير مباشرة مدى التقصير في الدراسات والبحوث اللغوية المتصلة باللغة العربية.

وأننا لنأمل أن يكون ما ذكرناه حافزا للقيام بدراسات لغوية جديدة جادة في مختلف الميادين تؤيدها المؤسسات العلمية والحكومية في أرجاء العالم العربي ونحن نعلم أن بعضها قائم بالفعل- وذلك لنلحق بركب الأمم المتقدمة في مثل هذه الدراسات.

فاللغة التي لقيت من الاهتمام والدراسة في العصور الإسلامية الأولى ما لم تلقه لغة أخرى، جديرة بأن تلقى مثل ذلك الاهتمام في عصر تيسرت فيه سبل البحث العلمي وتوافرت فيه الأموال التي يمكن أن تدعم مثل هذا الاهتمام بل أن حرصنا على نشر هذه اللغة في البلدان الإسلامية بوجه خاص يجب أن يدفعنا الأمرين

إجراء البحوث المقارنة بين اللغة العربية واللغات التي تتكلمها شعوب تلك البلدان تمهيدا لوضع الكتب المناسبة المبنية على أسس علمية لتعليم العربية لأبناء تلك البلدان.

مراجع لمزيد من الاطلاع

الفصل الأول:

مادة هذا الفصل موزعة في معظم الكتب المذكورة في الفصول الأخرى وفي كتب علم اللغة التطبيقي مثل السلسلة التالية:

1- 4 Allen & Corder (eds.): The Edinburgh Course in Applied Linguistics. 4 Vols. (O.U.P.), various dates.

أما تطبيقات علم اللغة على تعليم اللغات فهي متوافرة بكثرة في كتب مختصة بذلك مثل:

(5) . W.Rivers: Teaching Foreign Language Skills (Unive. Of Chicago Press), 1968 .

(6) G.Girard: Linguistics & Foreign Language Teaching. (Longman)1972

الفصل الثاني:

هنالك أربعة كتب أساسية لا بد لكل من يرغب في الاطلاع على أسس علم اللغة الحديث وخلفيته من الاطلاع عليها. وهي:

(7) F.de Saussure: Cours de Linguistique Generale (Paris: Payot), 5th ed., 1955. (English Translation, by Wade Basking: Course in General Linguistics. New York: 1959 Philosophical Library1959

(8) Edward Sapir: Language. (New York, Harcourt, Brace& World), 1921.

(9) Edward Sapir: Selected Writings.(ed. by D.G. Mandelbaum) Univ. of California Press1949.

(10) L. Bloomfield: Language. (N.Y.: Holt, Rinehart & Winston), 1933: and(London: Allen & Unwin),1935.

كما أن هنالك عددا كبيرا جدا من المقدمات في علم اللغة يمكن الاطلاع على أحدها لأخذ فكرة أوضح عما ذكرناه في الفصل الأول، نورد بعضها هنا:

(11) R.Wardaugh: Introduction to Linguistics McGraw Hill1972.

(12) D.Crystal: Linguistics. (Penguin), 1971

(13) J.Falk: Linguitics and Language.(Xerox)

(14) N.Minnis(ed.):Linguistics at Large(Paladin1973.

(15) A.A.Hill (ed.): Linguistics.(Voice of America,1968

(16) J.Lyons (ed.): New Horizons in Linguistics (Penguin)1970.

الفصل الثالث:

مادة هذا الفصل تعتمد بشكل رئيسي على الكتب التالية، والكتاب الأول منها بوجه خاص كتاب حديث شامل ولكنه ليس سهل القراءة.

(17) J.Aitchison: The Articulate Mammal. (Hutchinson of London)1976
(18) N.Chomsky: Aspects of the Theory of Syntax (Cambridge,Mass.:M.I.T.Press) 1965.
(19) E.Lenneberg: Biological Foundations of Language. (N.Y., Wiley1967
(20) R.Brown: A First Language. (London: Allen & Unwin1973.
(21) R.Brown: Psycholinguistics. (N.Y.The Free Press)1970
(22) J.Greenberg(ed.): Universals in Language. Cambridge, Mass.: M.I.T. (Press)1963

الفصل الرابع:

من أفضل المراجع لما ورد في هذا الفصل هي الكتب المذكورة بالحواشي بالإضافة إلى بضعة كتب أخرى هي:

(23) أوتو جسبرسن: اللغة بين الفرد والمجتمع، ترجمة عبد الرحمن أيوب، (مكتبة الأنجلو) 1954.
(24) م + م. لويس: اللغة والمجتمع، ترجمة تمام حسان
(25)علي عبد الواحد وافي: اللغة والمجتمع، (عيسى البابي الحلبي، القاهرة) 1951.
(26) محمود السعران: اللغة والمجتمع (دار المعارف) 1963.
(27) إبراهيم أنيس: في اللهجات العربية (مكتبة الأنجلو المصرية 1965).
(28) عبد الرحمن أبوب: العربية ولهجاتها (جامعة الدول العربية 1968).
(29) إبراهيم أنيس: اللغة بين القومية والعالمية (دار المعارف بمصر 1970).
(30) Martin Joos: The Five Clocks(Bloomington: Research Center), 1962.
(31) William Labov: Sociolinguistic Patterns(Univ. Of Philadelphia Press),1972.
(32) Joshua Fishman: The Sociology of Language (Newbury House),1971. (33) Joshua Fishman(ed.): Advances in the Sociology of Language (Mouton), 1971.

الفصل الخامس:

مادة هذا الفصل موجودة بشكل مقتضب في المقدمات المذكور بعضها في مراجع الفصل الثاني، كما يمكن الاطلاع على مزيد منها في مقدمات أو في مثل الكتابين التاليين:

(34) R.H.Robins: General Linguistics. (Longman), latest edition
(35) J.Lyons: Introduction to Theoretical Linguistics. (Cambridge Univ. Press)1968

(أ) علم الأصوات:

(36) إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية (مكتبة الانجلو المصرية 1975).
(37) كمال بشر: علم اللغة العام، الأصوات (دار المعارف 1973).
(38) A.C.Gimson: An Introduction to the Pronunciation of (English)Arnold.1970.
(39) D. Jones: An Outline of English Phonetics. (Cambridge Heffer) latest edition

(ب) النحو والصرف: المدارس المختلفة

(40) C.C.Fries: The Structure Of English(longmn),1969
(41) A.H.Gleason: An Introduction to Descriptive Linguistics.(N.Y. Holt, Rinehart and Winston)1966

(42) N.Stageberg: An Introductory English Grammar. (Holt, Rinehart and Winston),1965

(43) P.J.Broderick: Modern English Linguistics.(Thomas Crowell)1975.

(44) Jacobs & Rosenbaum: English Transformational Grammar.(Blaisdell)1968.

(45) B.L. Liles: An Introductory Transformational , 1971. (Prentice-Hall) Grammar.

(حـ) المعاني أو الدلالة:

(46) إبراهيم أنيس دلالة الألفاظ (مكتبة الأنجلو المصرية 1963).

(47) S.Ullman: Semantics. (Blackwell 1970 .

(48) F.R.Palmer: Semantics.(Cambridge Univ. Press)1977.

(49) G.Dillon: Introduction to Contemporary Linguistic Semantics.(Prentice-Hall)1977.

المؤلف في سطور:

الدكتور نايف خرما

* ولد في صفد بفلسطين عام 1925

* أنهى دراسته الثانوية بالكلية العربية بالقدس.

* حصل على البكالوريوس في الأدب الإنجليزي من لندن والماجستير في الآداب وطرق تدريس اللغة الإنجليزية من الجامعة الأمريكية في بيروت، والدكتوراه في التربية (تطبيقات علم اللغة على تعلم اللغات الأجنبية) من جامعة لندن.

* حضر عددا من المؤتمرات العلمية وكتب عددا من المقالات في المجلات العلمية العربية والأجنبية.

* له خبرة طويلة في تعليم اللغة الإنجليزية وتحضير المواد والامتحانات.

* عمل موجها عاما للغة الإنجليزية بوزارة التربية حتى عام 1974، ومديرا لمركز اللغات بجامعة الكويت حتى عام 1975.

* يقوم حاليا بتدريس علم اللغة والترجمة بقسم اللغة الإنجليزية بجامعة الكويت.



جحا العربي
شخصيته وفلسفته في
الحياة والتعبير

تأليف:

د. محمد رجب النجار